

د. السيد حنفي عوض
أستاذ علم الاجتماع
كلية الآداب - جامعة الزقازيق

في علم الاجتماع الحضري:

سُكان المدينة بين الزمان والمكان

المكتب العلمي للكمبيوتر والنشر والتوزيع

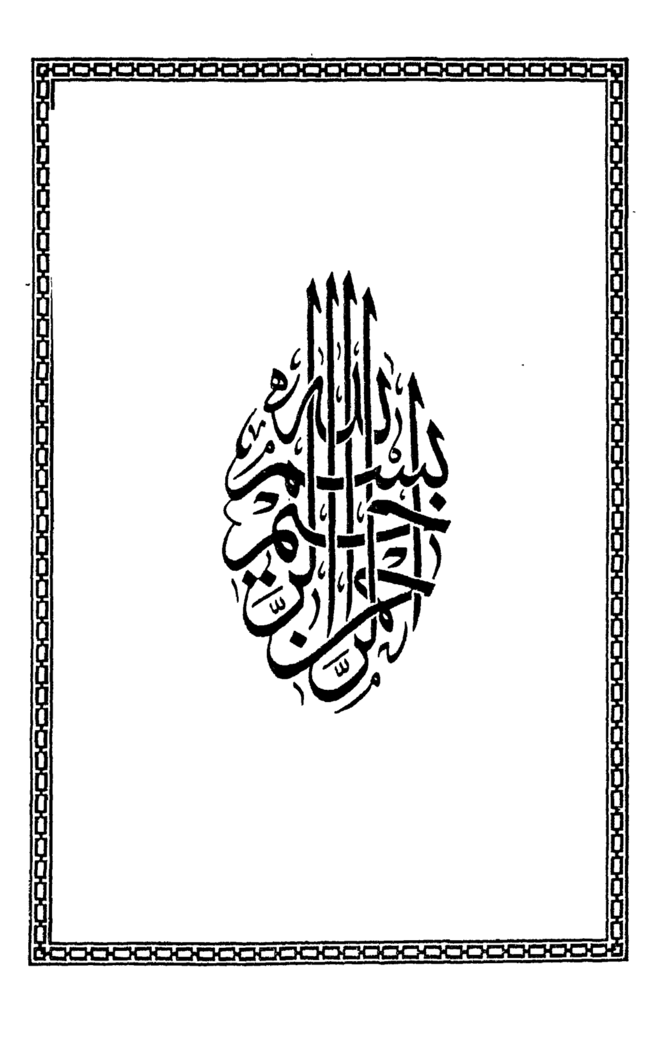
د . السيد حنفى عوض
أستاذ علم الاجتماع
كلية الآداب ـ جامعة الزقازيق

فى علم الاجتماع الحضرى :

سكان المدينة

بين

" الزمان والمكان "


بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى من أجزلوا العطاء دون انتظار لجزاء ،

زوجتى وأولادى

المؤلف

مقدمــــة

لما كان علم الاجتماع الحضرى يسعى إلى تطوير قدرته على تحليل وتفسير الظواهر الاجتماعية فى بناء المدينة ، فقد ارتهن منذ نشأته الأولى بالحوار المتصل بينه وبين علماء الفلسفة والجغرافية البشرية والتاريخ ، حول دور المدينة والمتغيرات التى طرأت عليها عبر الزمان والمكان .

وإذا ما تناولنا دراسة المدينة فى مسيرة التاريخ الحضارى للإنسان نجدها ـ أى المدينة ـ حقل الفعل الإنسانى ، بل يمكن القول أن تاريخ المدن يمكن أن ينبئ عن أنماط التصرفات للأفعال الإنسانية التى ساعدت فى تحديد الملامح الحضرية لها. ولاشك أن إدراك المجتمعات لتاريخ أفعالها هو إدراك لذاتها وذات أسلافها.

وهكذا يمارس تاريخ المدن تأثيره على حاضرها ، وإدراك سكانها لماضيها وهو ما يُفترض فى وعى المجتمع الحضرى . لقد اهتم المؤرخون وعلماء الاجتماع بدراسة المدن كمراكز حضرية ، ويبدو أن هناك إتفاقاً ملحوظاً على وضع قسمات بارزة فى تاريخ المدن إلى ما قبل الصناعة وما بعدها ، والمقصود بفترة ما قبل الصناعة الإشارة إلى الخصائص السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية التى مرت بها الدول الأوربية ـ وبعض الدول النامية ـ قبل القرن التاسع عشر .

أما المقصود بفترة ما بعد الصناعة ، فيرتبط بمتغيرات القدرة الصناعية وبناء المدن وما شهدته من التقدم التكنولوجى والمشروعات الصناعية الكبرى ، وهو ما أدى إلى تغير قوى العمل ، وحركة الهجرة نحو مدن المصانع ، وظهور الاتحادات العمالية ، هذا بالإضافة ثورة النقل والاتصال وما أسهمت به فى إتساع المدن ونموها .

وعلى أية حال فإن التقسيم إلى ما قبل الصناعة وما بعدها هو تقسيم غربي لا يتمشى مع تاريخ مدن العالم الثالث ، الذى شهد نمواً حضارياً فى حلقات تاريخية من العصور القديمة والوسطى (المسيحية والإسلام) إلى الثورة الصناعية التى بلغت أوج حضارتها فى العصر الحديث .

لقد دفعت الظروف المختلفة التى مرت بها مدن أوربا العلماء الاجتماعيين إلى محاولة فهم البناء الاجتماعي والاقتصادى والسياسى التى شهدتها هذه المدن ، والملاحظ أن معالجة هؤلاء العلماء للمدينة تنطوى على كثير من الاتجاهات الأيديولوجية ، التى تتمشى مع تخصصاتهم الأكاديمية وخبراتهم الاجتماعية .

وقد يكون من الانصاف القول ، أن المعطيات الفلسفية والأثرية والتاريخية والجغرافية أفادت علم الاجتماع الحضرى فى وصف ديناميات التحول بعيد المدى ـ منذ العصور القديمة ـ تلك التى طرأت على مجتمع المدينة ، كما دعمت فى نفس الوقت تفسير ديناميات هذا التحول على أسلوب الحياة العصرية لسكان المدينة . وما تخمض عن هذا الأسلوب من ظواهر اجتماعية ومشكلات معقدة التركيب .

ويبدو واضحاً أن علم الاجتماع الحضرى لا يستطيع أن يعالج وحده الظواهر الاجتماعية المعاصرة لمجتمع المدينة دون أن يمارس مهمته فى إطار الزمان والمكان ، خاصة وأنهما بمثابة الشرطين الضروريين لفهم الظواهر الإنسانية ومقارنتها .

ومجمل القول أنه لا يستطيع باحث فى علم الاجتماع أن يتصور وحدة السلوك الاجتماعى فى المدينة دون مقارنة أو تعاقب . اللهم إذا كان لديه تمثل سابق

للزمان بوصفه تجربة يتميز في جوهره بالتواتر والتكرار ، فهو ينطوى على دورات متعاقبة للأحداث التاريخية للحياة الإنسانية في إطار المكان .

وبإيجاز شديد ، ينظر علماء الاجتماع الحضرى للمدينة على أنها تجمع سكانى يتباين فى أنشطته الحياتية المتنوعة غير الزراعية ، له خصائصه الثقافية وممارسته الاجتماعية التى تتبلور فى شكل حضرى متميز يتعاقب جيلاً بعد جيل ، وهى فى نظر علماء الأيكولوجيا البشرية مركب ينطوى بداخله على عدة مجموعات من التجمعات السكانية ، والجماعات العرضية ومواقع الأنشطة المختلفة ، تتشابك فيما بينها فى أنساق اقتصادية وثقافية وعلاقات عرقية وقرابية ، وفى نفس الوقت تختلف من حيث الحجم والعمر ودرجة النمو والنوع الوظيفى للمدن ، وهى فى كل ذلك تتميز بأنماط وميكانيزمات متفاعلة فى البناء الأيكولوجى .

ومن الأيكولوجيين الذين يؤكدون على أهمية علم الاجتماع الحضرى فى دراسة العمليات السكانية فى المدينة " بوسطن " و " ميكلين " و " نستولوين " وهؤلاء حاولوا إيضاح أثر هذه العمليات فى التفاوت الاجتماعى فى أحياء المدن ، ومظاهر الاضطرابات فى العلاقات المستمرة للجماعات الأولية الناتجة عن الهجرة غير المتجانسة الوافدة للمدينة .

إن النظرة المتأنية للبناء الحضرى والأيكولوجى للمدينة نجد اهتمامهما ينصب حول سكان المدينة ، أو حياة إنسان المدينة ، ومن ثم إذا كان البناء الحضرى عبارة عن المحصلة النهائية لترابط الأنساق الاجتماعية فى المدينة ، فإن البناء الأيكولوجى هو المحصلة النهائية لترابط التوزيعات للأفراد والنشاطات والنظم الحياتية ممثلة فى الأحياء والمجاورات والمناطق الفرعية ، وهى ما يطلق عليها

الوحدات الأيكولوجية . والمحقق لمصطلحى البناء الحضـرى والأيكولوجـى يجد أن محور اهتمامهما قضية جوهرية واحدة ، هى دراسة الظواهر الاجتماعيـة فـى بنـاء المدينة وهى غاية علم الاجتماع الحضرى .

وفى ختام هذه المقدمة ، أود أن أشير إلى أن هذا الكتاب فى طبعته الثالثـة، جاء مزوداً ومنقحاً عن الطبعتين السابقتين لعام ١٩٨٦ ، ١٩٨٧ ، ولاشك أن التنمية المعرفية فى هذا الكتاب إنما يرجع الفضل فيها بعد الله إلى العلماء الذين قرأت لهـم، وهو اعتراف بالجميل نحوهم .

وعلى الله قصد السبيل ،،،

د. السيد حنفى عوض

القاهرة ٤ أكتوبر ١٩٩٦

الفصل الأول

المفاهيم

* علم الإجتماع الحضرى
* التعريف بالمدينة

المبحث الأول
علم الاجتماع الحضرى

يعرف هذا العلم بأنه علم دراسة المدينة أى مجتمع المدينة ، ينظر إلى الأفعال الإنسانية عبر الزمان والمكان فى تحليل ظواهرها الاجتماعية فى ذاتها ، إلى جانب دراسة المشكلات الخاصة بها . ويعد علم الاجتماع الحضرى أحد فروع علم الاجتماع العام الذى يهتم بدراسة المدينة . وبالرغم من أن هذا العلم ــ أى علم الاجتماع الحضرى ـ يتشابك مع اهتمامات علوم الجغرافيا والسياسة والاقتصاد والأنثروبولوجيا والبيئة وتخطيط المدن والخدمة الاجتماعية ، إلا أنه فى الواقع يتجاوز الموضوعات الأكاديمية لهذه العلوم بتركيزه على دراسة الحياة الإنسانية فى المدن بظواهرها الاجتماعية فى ماضيها وحاضرها (١) .

ويؤرخ لعلم الاجتماع الحضرى urban sociology بالدراسات الكلاسيكية الأولى لأعمال بعض المصلحين الاجتماعيين الذين حاولوا تشخيص أحوال العمال الفقراء من سكان المدن الصناعية فى المراحل الأولى من الثورة الصناعية، وكان من أوائل هؤلاء " تشارلزبوث " (١٨٤٠ ــ ١٩١٦) الذى قام بدراسته الشهيرة بلندن، وقد اهتم بدراسة مظاهر الفقر فى قطاع واحد فى المجتمع وهو القسم الشرقى منهما . وقد بدأ دراسته فى سنة ١٨٨٦ ونشرها على أجزاء فى الفترة من ١٨٩٢ ـ ١٨٩٧ . Life and Labour of the people of London (2)

وفى دراسة أخرى قام بها " روانترى " عام ١٨٩٩ عن ظروف الطبقة العاملة درس فيها أسر العمال فى مدينة يورك بانجلترا ونشر نتائجها فى سنة

---

(١) Gittler, J.B., Review of Sociology, Hall Limited, London 1957,p.159.

(2) Pahl RE., Rlymm and Buck N. H., Aspects of Modern Sociology Structures and Processes of Urban Life.. ed2 London . 1976. P. 42 .

١٩٠١ بعنوان Poverty : Study of town life ثم ظهر على غرارهما فى الولايات المتحدة مسح اجتماعى بشيكاغو ثم لينسبرج (١) .

أما بالنسبة لتاريخ الدراسات الاكاديمية لهذا العلم فيؤرخ لها بفترة مابعد الحرب العالمية الأولى ، بعد أن نشر " روبرت بارك " R.E.Park فى عام ١٩١٥ مقال بعنوان : The City Suggestions for the investigation of Human Behavior in the city Environment.

وكان هذا إيذانا ببدء عهد جديد لعلم الاجتماع الحضرى ، وفيه كانت أول فكرة تقول بأن بين كل المدن تشابها عائليا يسمح بوضع تعميمات وقوانين عامة على تركيبها الداخلى ونموها . ولكن الركام العلمى لم يكن متوفرا لهذه الظفرة الريادية ، فلم يلق المقال اهتماما ، حتى أعاد " بارك " نشره فى عام ١٩٢٥ ضمن مقالات جديدة فى كتاب صغير بعنوان The City وفى العام التالى نشر " بارك مع " برجس " Ernest & Burgess مجموعة مقالات متنوعة ولكنها هامة جدا فى كتاب بعنوان Urban Community وفيه وضع " بيرجس " النظرية الحلقية فى نمو المدينة وتوزيع الظواهر الاجتماعية فيها . وكان أثر هذا التوجيه مدويا ، وتحولت شيكاغو كمركز نشط لدراسة ايكولوجية المدينة Urban Ecology ، أى دراسة مجتمع المدينة فى اطار بيئتها الطبيعية (٢) .

ويبدو أن دراسة ظواهر المدن فى اطار بيئتها الطبيعية جاءت فى مقدمة أعمال " روبرت ليند Lynd " " وهيلين ليند " فى مؤلفهما المعنون " الميدلتون Middletown فى سنة ١٩٢٩، الذى أصبح فيما بعد مؤلفا كلاسيكا فى التراث السوسيولوجى الأمريكى ، وتمثل هذه الدراسة فى الواقع محاولة منظمة لفهم مجتمع

---

(١) Ericksen, E. Gordon., Urban Behavior, N.Y., 1954 , p. 9 .

(٢) Bergel Egon. Ernest., Urban Sociology . Mc Graw Hill, 1956. P.vii.

محلى أمريكى يمثل إلى حد ما طرازاً من المجتمعات المحلية الأمريكية وهو (مدينة مينسى Muncie بولاية انديانا (١)) .

كما ظهرت أيضا أعمال أخرى أخذت نفس الاتجاه تتمثل فى دراسة هارفى زوربوخ Harvey Zorbough ، (١٩٢٥) حول The Gold Coast & the Slum ، وأيضا أعمال " لويس ويرث Louis Wirth " حول The Ghetto ، ثم أضاف " ماكنزى D. Mckenzie " كتابا بعنوان : The Metrpolitan Community نشره عام ١٩٣٣ ، وفيه كانت نواة هامة للدراسات الاقليمية Regionalism وتنظيم المدن فى المجتمع الحديث (٢) ، وفى الوقت نفسه يعد كتاب " رايس A.J.Raiss " " هات P.K. Hatt الذى نشر عام ١٩٥١ بعنوان Cities and Sociology مرجعا من المراجع الهامة فى ميدان علم الاجتماع الحضرى(٣).

لقد كان للدراسات السابقة أثرها على تشكيل مدرسة شيكاغو فى ايكولوجية المدن ، وتأكيد مفهوم المدينة وبلورته كمتغير أساسى فى علم الاجتماع ، حتى أصبحت هذه المدرسة تشكل معملا تجريبيا أنتج كثيرا من الأبحاث الحيوية التى وضعت أسس منهج المنطقة الطبيعية Nature area أى الجزر البشرية والوظيفية المجتمعية التى تنشأ فى مجتمع المدينة نشأة تلقائية . بيد أن الدراسات التى قدمها كل من " دنكان Duncan " و " شنور ـ Schnore " كان لها أبلغ الأثر فى دراسة الايكولوجية البشرية هذا المركب من أربعة مكونات رئيسية هى: البيئة ، والسكان ، والتنظيم الاجتماعى ، والمستوى التكنولوجى .

---

(١) نيقولا تيماشيف : نظرية علم الاجتماع طبيعتها وتطورها . ترجمة محمود عوده وآخرون ، دار المعارف بمصر ، ط ٢ ، ١٩٧٢ ، ص ٣٣٠ .

(٢) Bergel., Op. cit., P. vii .

(٣) محمد عاطف غيث : قاموس علم الاجتماع . الهيئة العامة للكتاب (١٩٧٩) ص ٤٩٨ .

ويمكن تصور هذه المكونات أو المتغيرات فى علاقاتها التبادليه ، بحيث يؤدى التغير فى احداها الى التعديل فى الأخريات .

ومن خلال هذا المركب يمكن تصور علاقة أفراد المجتمع الحضرى داخل مجتمع المدينة . ويتحدد بناء على ذلك درجة تفاعلهم معا واستغلالهم فى تفسير الحياة الحضرية .

وعلى الرغم ما انطوت عليه مدرسة شيكاغو من محاولات فى تفسير الحياة لسكان المدينة الحضرية إلا أنها واجهت عددا من الصعوبات ، منها تفسيراتهم التى تعتمد على المفاهيم الأيكولوجية لم تكن مرتبطة تماما بتفسير النشاط الاجتماعى للسكان . والواقع أن معظم الكتاب الذين تأثروا " بروبنرت بارك " قد درسوا الأيكولوجيا البشرية داخل ما يمكن أن يطلق عليه بأنه إطار حيوى Biotic، على الرغم من أن أصحاب هذه المدرسة قدموا تفسيرات مختلفة ، إلا أن النظرية ذاتها قد استبعدت المظاهر الاجتماعية للعلاقات السكانية المتبادلة باعتبارها ميكانيزم لتفسير الانماط الأيكولوجية . ويضيف بعض الكتاب ومنهم " هاولى Hawley إلى أنه من الممكن تضميم إطار مرجعى حيوى يتضمن المتغير التكنولوجى أو الاقتصادى ، وبالرغم من ذلك فلا يزال يصر بعض من هؤلاء الكتاب على استقلال المتغير التكنولوجى عن المجال الحيوى ، والملاحظ أن وجهة النظر الحيوية ليست لها سوى أهمية ضئيلة خاصة إذا ما اعتبرناها متغيرا مستقلا ، وذلك عندما نحاول دراسة الأنماط الأيكولوجية التى تحدث فى مدن العالم ، وهذا بدوره يعنى استبعاد القيم الثقافية وبناء القوة ، والتكنولوجيا (١) .

ويبدو لنا أنه يمكن اعتبار المدينة مركب ايكولوجى للمجتمع الحضرى بكل تفاعله المكون من البيئة ، السكان ، التنظيم لمستوى التكنولوجى ، بناء القوة ، القيم الثقافية . ومع التسليم بأهمية هذه المتغيرات فى علم الاجتماع الحضرى ، إلا أننا

---

(١) محمد الجوهرى وأخرون : ميادين علم الاجتماع ، دار المعارف بمصر ، ط ٤ ١٩٧٦ ص ١٢٦.

مازلنا فى حاجة إلى تحديد واضح لدلالات المعانى بالنسبة للتحضر والحضرية تلك الدلالات التى ترتبط بسكان المدينة حتى يمكن أن نزيل اللبس والغموض حول هذين المصطلحين .

التحضر Urbanization :

يواجه الباحث فى علم الاجتماع الحضرى تعريفات عديدة لظاهرة التحضر حيث يزخر التراث السوسيولوجى النظرى باختلاف وجهات النظر حول التحديد الدقيق لهذه الظاهرة .

لقد كان من النادر استخدام كلمة " حضرى " Urban فى اللغة الانجليزية فيما قبل القرن التاسع عشر . وقد تضمن قاموس اكسفورد المختصر تعريفا لها بأنها كل ما يتصل بالمدن أو حياة المدينة ، وهي مشتقة من الكلمة اللاتينية Urbs وهى اصطلاح كان الرومان يستخدمونه للدلالة على المدينة وبصفة خاصة مدينة روما(١) .

والملاحظ أنه قد استخدمت بعض المصطلحات التى تمثل اشتقاقات لغوية من اللفظ حضرى . مثل التحضر والحضرية . والمقصود بالتحضر هنا ، هو شكل جماعات السكان الذين يعيشون فى المناطق الحضرية ، وذلك بمقارنتهم بإجمالى عدد السكان داخل المجتمع الواحد (٢) ويقسم " كوستللو Costello " التحضر الى عنصرين أساسيين هما التحضر الطبيعى Physical urbanizaion والتحضر الاجتماعى Social Urbanization فالتحضر الطبيعى فيعنى بـه الأماكن الاقامية لحياة الأفراد وحركتهم الديموجرافية .

أما التحضر الاجتماعى فيعنى به العمليات الاجتماعية التى يكتسب الناس عن طريقها عناصر الثقافة المادية وغير المادية ، وأنماط السلوك والتفكير التى تمثل

(١) محمد عاطف غيث : قاموس علم الاجتماع . المرجع السابق ، ص ٤٩٨ .

(٢) popenoe, David., Sociology., prentice Hall, Inc. N. J. 4 th, ed., (1980). p.50.

خصائص مميزة للمدينة [١] . كما أنها ترتبط فى نفس الوقت بالاتصال الفيزيقى ، وعند هذه النقطة الأخيرة أود أن أشير إلى الاختلاف بين الاتصال الفيزيقى لسكان الحضر وبين الاتصال الاجتماعى ، فالاتصال الأول يتميز بالشدة ، بينما يتميز الاتصال الثانى بالسطحية ، وهذا هو الذى يجعل السكان فى المدينة يصنفون الى فئات اجتماعية لكل منها رموزاً تدل عليها ، تتمثل فى مظاهرهم الثقافية أو يصنفون الى طبقات حسب مناطق اقامتهم ، وهو ما يميز مستواهم الاجتماعى أو الاقتصادى [٢] . بالإضافة إلى هذه النماذج النظرية ، ظهرت نماذج أخرى قدمها " أريك لامبيرت Eric Lampart " حدد فيها أربعة أشكال للتحضر هى :

أ - التحضر البدائى Primordial urbanization ويبدأ الفرد فيه محاولات التكيف مع البيئتين الفيزيقية والاجتماعية .

ب - التحضر المميز Definitive Urbanization ويبدأ فى هذا الشكل ظهور وظائف محددة - بدرجة ما - للمدن .

جـ - التحضر الكلاسيكى : Classic Urbanization وتظهر فيه قيود عديدة حول عملية نمو السكان ، ونشأة المدن .

د - التحضر الصناعى Industrial Urbanization وهو الشكل الحالى للتحضر ويتميز بالتقدم التكنولوجى ، وتركز السكان فى المدن ، واتساع المراكز الحضرية .

الواضح من التصنيف السابق أنه يقوم على محورين أساسين : المحور الأول وهو زمانى ، يستقرئ حالة التحضر وخصائصه المميزة له من خلال التاريخ الذى يرصد تطور المدن والمراكز الحضرية فى العالم بصفة عامة . المحور

---

(١) Costello J.F., Urbanization In the middle east., Cambridge University Press. 1977, p. 8 .

(٢) محمد عاطف غيث : علم الاجتماع الحضرى مدخل نظرى . دار الكتب الجامعية . الاسكندرية . (١٩٧٢) ص٨.

الثانى: وهو مكانى ينظر إلى الجانب الأيكولوجى للمدينة وكيفية استغلال الموارد ومدى نجاح الانسان فى استخدامها لتحقيق أغراضه ، ودرجة تقدمه فى زيادة حجم استثماراته منها (١) .

وفى الواقع أن دراسة التحضر تعد على قدر كبير من الأهمية سواء العلمية أو المجتمعية ، وخاصة فى هذه الأونة التى تشهد معدلات مرتفعة من التحضر فى كثير من دول العالم ، وبناء على ذلك ، هناك العديد من المؤتمرات التى عقدت لمناقشة تأثير التحضر على حياة الأفراد ، والتى شارك فيها علماء الاجتماع من المدارس الفكرية المختلفة . فقد عقد أحد هذه المؤتمرات فى جامعة شيكاغو عام ١٩٥٣ ، حيث أهتم بدور المدن فى التنمية الاقتصادية والتغير الثقافى . وقد شارك فى هذا المؤتمر لفيف من العلماء فى كافة التخصصات العلمية ، منهم علماء الاجتماع وعلماء الانثروبولوجيا الثقافية وعلماء الجغرافيا وعلماء الاقتصاد وعلماء التاريخ ، وتركزت المناقشات على موضوعات هامة ، مثل التحضر فى دول ما قبل التصنيع ، ودراسة تاريخ المدن فى المناطق المتقدمة اقتصاديا ، بالاضافة الى دراسة النظم الاجتماعية والاقتصادية فى المناطق الحضرية ، وكلها تصب فى النهاية على قضايا ومشكلات سكان المدن . وبالنسبة للمدن الكبرى (المتروبولتيان)* فقد عقد لها مؤتمراً فى جامعة كولومبيا عام ١٩٥٤ وقد شارك فى هذا المؤتمر باحثون من بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة ، كما شارك كذلك عدد كبير من

---

(١) Hauser P., & Schnoer L., The Study ofUrbanization, John Wiley Sons , inc. N.Y. 1967 . P. 523 .

* يطلق على المدن الكبرى أيضاً Megalopis ، وهى تعنى المدن المليونية . وهى ظاهرة واضحة فى الولايات المتحدة الأمريكية ، تلك التى تضم فيما بينها عدا من المدن والضواحى المجاورة فى المدن الساحلية الممتدة من بورتلاند إلى فيرجينيا . ويبدو تأثيرها واضحا فى المجالات الثقافية والاقتصادية على المناطق التى تخضع لسيطرتها . انظر فى ذلك .

(2) Champion. J.Deans & others., Sociology., Halt Rinehart winston., London. 1984. p 431 .

المهتمين بدراسة التحضر من مختلف دول العالم ، ممثلين للقانون والاقتصاد وعلم الاجتماع والآثار والفن واللاهوت والعلوم السياسية والهندسية وخاصة المعمارية والجغرافيا والتربية والتاريخ وتخطيط المدن والسكان ، وقد ركزت أغلب المناقشات على تأثير المدن الضخمة فى المؤسسات الاجتماعية والسلوك الانسانى.

كما عقد مؤتمراً ثالثاً فى أبيدجان بأفريقيا فى عام ١٩٥٤ تحت اشراف اليونسكو ، وقد اهتم بالدرجة الأولى بتحضر الدول النامية وبصفة خاصة التحضر فى أفريقيا . وكما حدث فى المؤتمرات الأخرى كان المشاركون يمثلون عددا من المهتمين بدراسة التحضر ، وركزت المناقشات بشكل أساسى حول تأثير المدينة على الحياة الاجتماعية والاقتصادية فى بلدان افريقيا (١) .

وفى عام ١٩٩٤ شهدت واشنطن مؤتمراً يضم نحو ٩٠٠ من قيادات الحضر فى العالم لبحث سبل تدعيم الخدمات الصحية بالمدن قبل حدوث مزيد من التدهور البيئى ، وخلال المؤتمر حث " هنرى سيسيزوس " وزير الإسكان والتنمية الحضرية الأمريكى على تجنب النمو السكانى غير المنسق ، مشيراً إلى الأضرار التى تنتج عن هذا الخلل فى كثير من المدن الأمريكية ، من بينها ارتفاع نسبة البطالة وزيادة مستوى الفقر والظروف غير الصحية التى يعيش فيها السكان ، بالأضافة إلى أشكال المناطق الموبوءة بالأمراض والمواد السامة .

وفى تحذير رئيس البنك الدولى " لويس بريستون " أشار إلى أن سكان المدن يتزايدون بشكل سريع خاصة فى دول العالم الثالث .

وفى نفس الوقت إشارت إحصاءات البنك الدولى أن سكان الحضر فى الدول النامية يتزايدون بنسبة ٣,٨٪ وسوف يصل عددهم إلى ٣,٦ مليار نسمة عام ٢٠٢٠ بعد أن كانوا ١,٤ مليار نسمة عام ١٩٩٠ (٢) .

---

(١) Gittler, op . cit., 161 .

(٢) الأهرام : بتاريخ ١٩ ، ٢١ سبتمبر ١٩٩٤ .

قد يكون من المفيد أن نشير إلى القضايا المطروحة حول قضايا المدن الحضرية والتى يتمثل معظمها فى معدلات النمو السكانى ومشاكل الفقر والبطالة ، ونقص المساكن وظهور العشوائيات والأحياء المتخلفة ، وتدنى خدمات الصرف الصحى وما يترتب عليه من تلوث بيئى ، وفى تصورى أنها لب المشاكل الحضرية وهو ما سنتعرض له فى فصول هذا الكتاب .

الحضرية : Urbanism

إن الالتباس المحيط بمفهوم الحضر والحضرية وسكان المدينة ، لا يعفينا من مهمة الاستمرار فى تحديد المفاهيم ، خاصة مفهوم الحضرية تعرف الحضرية Urbanism بأنها نماذج الثقافة والتفاعل الاجتماعى الذى ينجم عن تركز عدد كبير من السكان فى مناطق محدودة نسبيا . وتعكس الحضرية عمليات تنظيم المجتمع فى حدود تقسيم العمل المعقد ومستويات التكنولوجيا المتفوقة والتنقل والحراك الاجتماعى السريع ، والاعتماد المتبادل بين أعضائه فى أداء الوظائف الاقتصادية ، والعلاقات الاجتماعية غير الشخصية (١) .

وبمعنى آخر تعد الحضرية أسلوباً فى الحياة يصاحبه عادة مجموعة من الخصائص كالفردية والتغير الثقافى السريع ، والمادية المفرطة والصراع الثقافى بالإضافة إلى الضعف المستمر فى الاتصال المباشر الوثيق والانهيار فى وسائل الضبط الاجتماعى غير الرسمية ، وقد ترتبط هذه السمات بالتحضر الذى ينتج عن تركز السكان وتوطن الصناعة .

والشئ الجدير بالملاحظة أن الحضرية لا ترتبط دائما بالتحضر ، خاصة وأن هناك مناطق ريفية تتوافر فيها كثير من سمات الحضرية ، وعلى العكس من

---

(١) Champion. J.Deans & others.. op. cit . p. 515 .

ذلك قد نجد مناطق متحضره ولكنها لا تنطوى الا على عدد ضئيل من سمات الحضرية ، بالاضافة إلى ذلك قد تتفاوت المدن فى درجة العمليات الحضرية (١) .

وعند النقطة الأخيرة يمكن أن نوضح المقصود بالعمليات الحضرية خاصة أن علماء الاجتماع قد اهتموا منذ فترة بعيدة بالبناء الاجتماعى للمدينة ، وأظهروا الى أى مدى يختلف سكان المجتمع الحضرى فى شكله وبنائه وثقافته عن غيره من المجتمعات الأخرى القروية ، ومن هؤلاء العلماء " روبرت بارك " و" أرنست برجس " و " لويس ويرث " حيث كان لكتاباتهم حول الحياة الحضرية والثقافية لسكان المدينة أثر واضح فى هذا المجال ، وتعتبر مدرسة شيكاغوا من أبرز المدارس التى ركزت فى أبحاثها على الحياة الحضرية ، ويعتبر " لويس ويرث " أحد أعضاء هذه المدرسة ، ومن بين أعماله العلمية البحث الذى أجراه تحت عنوان الحضرية كاسلوب للحياة سنة ١٩٣٨ ، ويؤكد هذا العالم على أن حجم وكثافة السكان وعدم تجانسهم تتجمع لانتاج ثقافة خضرية ، هو يميز بعض ملامح الثقافة الحضرية والبناء الاجتماعي الذى يبدو ارتباطه بشكل خاص بهذه الخصائص الديموجرافية ، حيث يلتقى سكان المدن بعضهم البعض فى أدوار ثانوية أكثر من التقائهم فى علاقات أولية . ويؤكد هؤلاء على الدور والوظيفة والمكانة الاجتماعية بصفة خاصة حيث تعد ميكانيزمات ضبط رسمية . والواقع أن اعتماد السكان فى المدينة بعضهم على بعض هو أهم طابع يميز المدينة المعاصرة الى جانب عدم احساس السكان الشديد فى اعتمادها على الطبيعة (١) .

لقد التزم " لويس ويرث " فى إطار عرضه لنظريته عن الحضرية بالأطر التكوينية فى النظرية السوسيولوجية بصورة عامة ، وهذا ما أكسب نظريته قبولا وانتشاراً فى ميدان الفكر والبحث الحضرى ، وجعلها من ناحية أخرى نظرية قابلة

---

(١) محمد الجوهرى وآخرون : المرجع السابق ، ص ٣٧٤ .

(١) محمد عاطف غيث : قاموس علم الاجتماع . المرجع السابق ، ص ٤٩٨ .

للتبنى والتطبيق ، من ناحية أخرى تتمثل هذه الأطر فى عدد من النقاط تتمثل فى الآتى :

أولا : إمكان إخضاع الحقائق موضوع النظرية للملاحظة والتحقيق الإمبريقى.

ثانياً : توضح ما هو نسبى وغير نسبى داخل النسق الفكرى فى بناء النظرية.

ثالثاً : إمكان الكشف أو التوصل الى الترابط القائم بين الحقائق بعضها ببعض .

رابعاً : تحديد الإنعكاسات التحليلية للحقائق والكشف عنها على أساس نقد المداخل السكانية والبيئية التى يعتبرها كثير من الباحثين الاطر الأساسية لقياس الحضرية .

الواضح من الأطر السابقة أنها تتعامل مع الانسان بوصفه حجما ونشاطا مادياً بيئيا فحسب ، دون أن تضع فى اعتبارها محتواه الاجتماعى التاريخى الذى يجسده التصور السوسيولوجى للإنسان (١) .

بعد ذلك ، نستطيع بنظرة سريعة إلى دلالة معانى الحضرى والحضرية نجد أنه من الصعب الفصل بينهما بل أنهما مرادفان أيضا لمصطلح المدينة .

المدينة بين التحضر والحضرية :

والواقع أن الفصل التعسفى لكل من المدينة والتحضر والحضرية تعد من الأمور التى تسئ إساءة بالغة للنتائج المنهجية فى علم الإجتماع الحضرى ، ومن ثم فإن دراسة المدينة هى دراسة للتحضر والحضرية وإلا ما هى ماهيتها الأصلية أو جوهرها الواقعى وهو التحضر والحضرية معا . والواضح أن التحضر

---

(١) أحمد النكلاوى : الإنسان التحديث ، قضايا فكرية ودراسات واقعية ، مكتبة نهضة الشرق ، (١٩٨٠) ص١١٧

والحضرية هما دالة المدينة الأمر الذى يفرض على الدراسات السوسيولوجية اتجاهين :

أولاً : التوفيق بين التحضر والحضرية كأسلوب للحياة السكانية داخل المدينة .

ثانياً : التخلص من النزعات التى صورت التحضر والحضرية على أنه نمط خاص من الحياة يعيشه سكان المجتمعات الصناعية فقط ، وأن المجتمعات غير الصناعية أو التى التى يطلق عليها غير نامية فهى لا تعرف سوى مدناً متخلفة وهو قول موضع شك .

ومجمل القول أن مثل هذا الفصل لا يقوم على منطق علمى ، ذلك لأن كل من التحضر والحضرية ـ وبخاصة اليوم ـ حالة عادية نسبية ، والمدينة ليست مجرد مكان لهذه الحالة ، إنما هى الحالة ذاتها بكل تركيباتها المتفاعلة المادية والاجتماعية . والخلاصة أن المجتمع الحضرى بسكانه هو المجتمع المدينى ، ذلك لأن المجتمعات تتجه فلسفتها وسياستها الاقتصادية والاجتماعية اليوم على اختلاف نماذجها إلى مجتمعات مدن (١) .

ويستطيع المتأمل فى التراث الزاخر الذى وُضع فى دراسة المدينة أن يسجل ملحوظة هامة أخرى ، هى أن هذا التراث قد أسهم فى تراكمه تيارات يصعب التوفيق بين مسارتها ، ومن ثم فإن مسار هذا التراث فى مجموعة وإن أسلمنا إلى اتجاهاته المتعددة ، لم يزل يبحث عن ذاتية متميزة تجعله يستقل عن المباحث التى خضبته بالطابع الجغرافى والسكانى والاقتصادى المحض . ولقد تجلى ذلك لدى رواد الأتجاهات الكلاسيكية فى تاريخ دراسة المدينة .

واذا كانت دراسة المدينة قد وقفت عند التأمل الوصفى التشخيصى عند علماء الاجتماع الأوائل ، فالواقع أنها لم تصل إلا فيما ندر إلى مسئولية التحليل

---

(١) أحمد النكلاوى : دراسة المدينة مدخل نقدى . دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٧٦ ، ص ١٥٩ .

الميكروسكوبى الدقيق ، والتحليل الأمبريقى الأمر الذى جعل التراث السوسيولوجى فى دراسة المدينة عاجزاً عن أن يقدم تفسيراً علمياً مقبولاً لكثير من مشكلاتها الملحة .

ومن وجهة نظر أخرى ، فإن الموضوعات التى كانت تستأهل الاهتمام فى دراسة المدينة إذا كانت قد سارت على نحو تدريجى مع تطور الفكر الإنسانى واتساع رقعة اهتماماته وتوافقاته مع الظروف والتحديات المتبادلة والمتغيرة ، فإن الوصف بمختلف أنماطه وحده لا يضفى أى شئ فى مواجهة القضايا والمشكلات الملحة التى تفرض على المدينة المعاصرة التصدى لها .

وإذا كان علم الاجتماع عامة يعانى نسبيا أو يفتقد التكامل النظرى ، فإن الموقف فى علم الاجتماع الحضرى ـ أى علم دراسة المدينة لا يخرج عن إطار علم الاجتماع العام (١) . وإذا نظرنا الى البدايات الأولى لنشأة علم الاجتماع الحضرى نجد الإرهاصات الأولى بدأت فى الولايات المتحدة وكان أهم موضوعات الاهتمام ينصب على مشاكل المدينة من أجل أهداف علمية وأيديولوجية تتعلق بالضبط والسيطرة والمواجهة ؛ أكثر من الاهتمام بتقدم المعرفة والوصول إلى صياغات نظرية تسهم فى إثراء النظرية العامة لعلم الاجتماع ، ومع ذلك فقد ظهرت فى السنوات الأخيرة اتجاهات جديدة تخرج من إطار الاتجاه المحلى الأمريكى إلى الإطار العالمى ، وقد ساعد على هذا الاتجاه عاملين أساسين :

أولاً : زيادة الكم الهائل من البيانات عن مدن العالم التى شارك فيها علماء الاجتماع الأمريكيين وغيرهم من الدول الأخرى .

---

(١) محمد عاطف غيث : المرجع السابق .

ثانياً : التطور الذى صاحب النظرية السوسيولوجيه التى تهتم بدراسة المدن الأمريكية ، وكشفت عن عدم صلاحية هذه النظرية فى الدراسات السوسيولوجية على المدن الامريكية وغير الأمريكية (١) .

وثمة حقيقة أخرى ترتبط بهذه الدراسات ، وهى مناهج البحث وأدواته فى دراسة المدينة التى تستخدم بكثرة فى علم الاجتماع الحضرى ، ومع ذلك لم تعد قابلة للتطبيق فى مواقف ثقافية متباينة ، خاصة أنها صممت وتطورت لكى تتلاءم مع السمات التى تميز المدن الامريكية ، ويعتبر دليل خصائص المكانه الذى أعده " لويد وارنر warner مثالاً حيا على ذلك . ويتألف هذا الدليل من مجموعة الدلائل الفرعية الموزونة ، كالمهنة ، ومصدر الدخل ، ونمط السكن ، والمنطقة السكنية . الشئ الملاحظ بالنسبة لهذا الدليل أنه لا يعبر عن أنساق المكانات الاجتماعية فى المدن التى تنتمى إلى ثقافات غير أمريكية ، ولقد لاحظ أحد الكتاب أن عنصر السكن كان دليلاً ضعيفاً من دلائل المكانة فى المدن الروسية المعاصرة ، وما ينطبق على دليل وارنر ينطبق أيضا على مقاييس العزلة Segregation Indexes فالأداة التى صممها كل من " شفكى " و " وليم " و " بل " Shevxy , william , Bell وكذلك مقياس الحضرية الذى أعده كوين Queen وكاربنتر Carpenter لقيت تأييدا حماسيا عند بعض الباحثين ولكنها تحتاج فى الواقع إلى تعديلات كثيرة قبل تطبيقها فى بعض المجتمعات ، إلا أن المعتقد أن أكثر مثالبها هو عدم القدرة على الإفادة منها فى مستوى الدراسات الحضارية المقارنة (٢) .

وحينما نناقش هذه المثالب ، نجد من أهم عواملها تشعب اتجاهات الباحثين فى أساليب القياس فى محاور ثلاثة ، المحور الأول : وينظر إلى المدينة على أنها مجتمع صغير Small Society يتميز عن غيره من المجتمعات المماثلة الأخرى

---

(١) محمد الجوهرى : المرجع السابق : ص ٣١٩ .

(٢) نفس السابق . ص ١٤١ .

بمجموعة من الخصائص تطبعه كمجتمع حضرى . المحور الثانى : ينظر إلى المدينة على أنها تجمع سكانى له تنظيم اجتماعى يتناول الخصائص الحضرية فى ضوء بعد واحد أو أكثر من الأبعاد التحليلية الأساسية للظاهرة الاجتماعية التفاعية . المحور الثالث : يتناول المدينة على أنها نمط أو شكل خاص من أشكال التجمعات المحلية أى كمجتمع محلى حضرى .

وحسماً لهذا الخلاف نستطيع القول ، أن المدينة تشكل وحدة مجتمع يتركب من أبعاد ثلاثة أساسية ، تستمد دلالتها المنهجية والتفسيرية من التلافها وترابطهما من البعد السكانى والبعد الايكولوجى والبعد السوسيولوجى ، وهذه الأبعاد تشكل وحدة متداخلة العناصر يصعب فصل أى منها عن الآخر ، ولايتسنى فهم تلك العناصر إلا إذا كشفنا عن مدى التساند والترابط القائم فيما بينهم جميعا . وعليه فإن التفسير السكانى المجرد للمشكلة الحضرية ليست له دلالة فى ذاته لأنه يتجاهل المضمون الحضارى لتاريخ المدينة ، كما أن التفسير الايكولوجى المجرد للمشكلة الحضرية ضعيف القيمة لأنه لا يرى الانسان فى صورة طاقة مجردة أو أرداة فاعلة لنشاط ما .

فى ضوء الأبعاد السابقة فإننا نعنى مفهوم المدينة بأنه النطاق الحضرى للأنساق الاجتماعية المتفاعلة مع البناء المادى الفيزيقى للمكان (١) . والحضر والحضرية تعنى أسلوباً أو نمطاً للسلوك الحياتى اليومى لسكان المدينة، وهذا النمط السلوكى يعد محور الفعل الإنسانى ، والذى تشكل ظواهره روافد علم الاجتماع الحضرى .

---

(١) أحمد النكلاوى : الإنسان والتحديث .المرجع السابق ، ص ص ٣٠٤ ـ ٣٠٥ .

المبحث الثانى

المدينة : التعريف والمؤشرات

التعريف :

بداية الأمر ، إذا ما حاولنا التعرف على مفهوم المدينة ، فإننا سنجد مركزية للمناقشة حول ماهية المدينة ، أو ما هى المدينة ، وهذا ما يدفعنا للخطوة الحاسمة نحو تحديد الفهم العلمى للمدينة ومؤشرات تحديدها ووظائفها .

إذا ما عدنا إلى المدلول اللغوى الاشتقاقى لمفهوم المدينة فسنجد تعريف المدينة فى القاموس المحيط بمعنى يشير إلى الاستقرار ويأتى المعنى من لفظ مدن : أقام ، وفى نفس الوقت يشير نفس القاموس إلى القرية بمعنى الاستقرار . إذن فالأساس اللغوى قد جمع بين القرية والمدينة لمعنى واحد ، وهو بذلك أصبح غير ملائم لتحديد مفهوم المدينة .

يبدو أن فكرة المدينة واضحة لدينا جميعاً ، فكلنا نعرفها بالقياس إلى البداوة أو الريف ، ومع ذلك فإن أحداً لم يعطى التعريف المقنع ، فنحن نضفى لقب مدينة City على البلده Town ولهذا نجد لبس المفاهيم ، وقضايا تركيبيه تطلب التحقق من صدقها .

وحسما لذلك حاولنا مواصلة التحليل للتعرف على مفهوم المدينة فى الدراسات الحضرية المعاصرة ، نجد أن الباحثين فى هذا المجال مازالوا يفرقون بين المدينة والبلدة على أساس أن البلدة أصغر حجما من المدينة ، الواقع أن هذه التفرقة ليست مطلقة ، كما أنها تختلف فى تحديدها من مجتمع لأخر ففى الولايات المتحدة تعتبر البلدة هى المكان الآقامى الذى يتراوح سكانه بين ١٠٠٠ ألف نسمة ، ٢٥٠٠ نسمة ويوجد بها ٥٠ وحدة خدمات منها خدمات تخصصية مثل الطبيب أو طبيب الأسنان أو الطبيب البيطرى أو المحامى .

وقد توجد بها صحيفة محلية أسبوعية (أو عدد نسبى منها) ، أما المدينة فهى التى يزيد سكانها عن ٢٥٠٠ نسمة إلى جانب تعدد الوظائف بها بدرجة تفوق ما يوجد فى البلدة .

ولكن من الصعب أن يطبق هذا المعيار فى كثير من دول العالم كما أن تحديد عدد سكانى يفصل عالميا بين المدينة والبلدة أمرا يكاد أن يكون من الأمور الصعبة كمحك للتصنيف .

ويمكن القول أن المدينة هى أكبر الأماكن العمرانية ، سواء من حيث عدد السكان أو المساحة المبينة أو تعدد الوظائف التى تمارسها (١) . ومع هذا فهناك قاسم مشترك فى تعريف المدن شاع استخدامه بين المهتمين بالدراسات الحضرية ، وهذه التعريفات جاءت من خلال دراسات جغرافية المدن ، وهى تستند فى تفسيرها على مقارنة البيانات الكمية كموشر فى تحديد حجم المدن ووظائفها .

ومع ذلك لا نستطيع أن نغفل القدر الكبير من البيانات الكمية التى استند عليها علماء الاجتماع فى دراساتهم المقارنة للمدن ، ومن هؤلاء العلماء " كنجزلى دافيز " الذى تزعم حركة تجميع البيانات عن مجتمعات محلية على مستوى عالمى ، وذلك من خلال المنظور الديموجرافى ، كما أن الدراسات التى أجراها دوتستون " Dotson " وكابلاو Coplow " " وإيرهارد Eber hard " وأخرون قد أضافت إلينا مزيدا من المعرفة عن المراكز الحضرية فى مجتمعات مختلفة ، على أن علماء الاجتماع المهتمين بالدراسات الحضرية المقارنة قد وصلوا إلى ما وراء العلم الاجتماعى الأمريكى ، وذلك بسبب البيانات التى جمعوها . فلقد جمع علماء السكان والجغرافيا والأنثروبولوجيا قدرا ملحوظا من البيانات عن مدن العالم ، وما يقال عن هؤلاء يقال أيضا بالنسبة لعلماء التاريخ والاقتصاد والسياسة ، وكذلك بعض

---

(١) احمد على اسماعيل : دراسات فى جغرافية المدن . مكتبة سعيد رأفت ، القاهرة ، ١٩٨٢ ص ٣٤ .

الموظفين الحكوميين ، ولاشك أن هؤلاء جميعا قد اسهموا فى رصيد البيانات المقارنة وإن لم يسهموا فى مجال النظرية (١) .

وللوهلة الأولى ، تبدو البيانات المقارنة عن حجم المدن ووظائفها بيانات كمية تهدف على الاختلافات بينها الوقوف على الطابع البنائى للمدينة وإن كان ذاته عرضه للتغير . ولهذا ليس من الصعب علينا أن نحدد هذا البناء فى ضوء متغيرين أساسين من تصميمات الدراسة الجغرافية والديموجرافية، هما حجم المدن ووظائفها. فبالنسبة لحجم سكان المدن ، نجدها تخضع لمؤشرات احصائية وإدارية وتاريخية وإنتاجية ، وبالنسبة لوظائفها نجد محكات حرفية ومهنية كأساس للتقسيم المنطقى التى تمارسه قوى العمل فى بناء المدينة .

ولنبدأ الآن فى مناقشة مؤشرات حجم المدن ووظائفها .

المؤشرات :

يتخذ الإحصائيون مؤشرات حجم المدن لتصنيف وتحديد نسب سكان المدن إلى مجموع السكان العام . وقد شاع استخدامه فى التعداد السكانى ، لأنه يبدو واضحا وسهلا فى تحديد حجمهم وكثافتهم . ويمكن أن نميز بين نوعين من الحجم والكثافة :

فبالنسبة للحجم فهو يختلف من قطر لآخر ، ويرتفع المدى بين الأقطار التى يغلب عليها طابع المدينة كنمط عمرانى . وعلى سبيل المثال ، يرتبط حجم المدينة فى كل من فنلنده والسويد اذ زاد عدد سكانها عن ٢٠٠ نسمة فقط ، ويرتفع إلى ألف نسمة فى كل من كندا وفزويلا والى ٢٠٠٠ نسمة فى كل من غانا والهند والى ١٢٠٠٠ نسمة فى روسيا والى ٣٠٠٠٠ نسمة فى اليابان .

---

(١) محمد الجوهرى وآخرون : ميادين علم الاجتماع . دار المعارف بمصر الطبعة ٤ (١٩٧٦) ص١٢٠.

ويلاحظ من هذه الأرقام ، أن كل فئة تضم عددا من الدول غير المتجانسة فى الأساس الاقتصادى والعدد الكلى للسكان والمساحة مما يجعل تفسير وجود الأقطار فى فئة واحدة أمرا صعبا (١) ولهذا وضعت هيئة الأمم المتحدة اتفاقا حول الحجم الملائم لمجتمع المدينة بما لايزيد عن ٢٠,٠٠٠ ألف نسمة (٢) .

أما فيما يتعلق بالكثافة فانها تتفاوت هى الأخرى بين مختلف الدول .. والكثافة لا تبدو أساسا أفضل ، فليس ثمة حد كثافى تنتهى عنده القرية والمدينة . فالواقع أن الكثافة فى المدن عامل شديد التفاوت ، وقد حاول ولكوكس W.F. Willcox بدراسة احدى مقاطعات ولاية نيويورك . بوضع مقياس كثافى لتحديد المدن والقرى كالآتى : ١٠٠ نسمة فى الميل للريف ، من ١٠٠ إلى ١٠٠٠ نسمة للقرى + ١٠٠٠ للمدينة ، ومع ذلك تعرض هذا المقياس للنقد الشديد لأنه مقياس كلى لا قيمة عامة له . ومن ناحية أخرى يقترح "مارك جفرسون" أن كثافة ١٠,٠٠٠ نسمة من السكان فى الميل تؤهل المكان لأن يكون مدينة (٣) .

يبدو أن حساب الكثافة السكانية على الوجه الأكمل يلزم أن تشمل المساكن تشابه الارتفاع فى المنطقة الواحدة واستعمال المساحات ، ولما كان من الصعب تحقيق ذلك فى كل الأحوال ، فقد استبدلت حاليا فكرة اتخاذ المنزل كوحدة قياسية للكثافة ، واستعيض عنها بمؤشرات عدد الغرف التى تستعمل للسكن على مقياس الفدان habitadle rooms وبذلك تتحدد الكثافة الملائمة Accommodation density فى نفس المنطقة ، ثم نقارن بينهما بعد ذلك لإيجاد درجة الإشغال occupancy rate أو عدد الأشخاص فى الغرف السكنية ، وذلك لبيان المناطق

---

(١) جمال حمدان : جغرافية المدن . مكتبة النهضة المصرية بدون تاريخ نشر ص ٥٤ .

(٢) عبد المنعم شوقى : مجتمع المدينة ـ مكتبة نهضة الشرق . القاهرة (١٩٨٠) ص ١٦ .

(٣) جمال حمدان : المرجع الاسبق ، ص ٥٦ .

غير المستعملة . أو التى فيها زيادة إزدحام ، ولكن الخطأ فى هذه الطريقة هو أنها لاتحسب حساب مساحات الغرف التى تؤثر تأثيراً مباشراً على عدد الأفراد الذين يستعملونها ، ولذلك فإن الكثير يفضلون حساب درجة الملاءمة Accommodation وذلك بالنسبة لمساحة الفدان والأدوار المسكونة فى حساب الفدان Hábitable Floor Shace acre وتقاس درجة الإشغال بعدد الأشخاص فى كل الف قدم مربع من مساحة الدور ، وتحدد بالمعادلة التالية :

كثافة الفدان : (عدد الأشخاص فى الفدان)

$$\frac{\text{كثافة الفدان : (عدد الأشخاص فى الفدان)}}{\text{الكثافة الملائمة (عدد الغرف المستعملة للسكن فى الفدان)}} = \text{درجة الأشغال للفرد}$$

الكثافة الملائمة (عدد الغرف المستعملة للسكن فى الفدان)

ومن الوسائل السائدة الاستعمال فى بعض البلاد للحصول على فكرة محددة عن درجة كثافة السكان ، وخاصة المجموعات السكنية ، هى وضع أرقام للعلاقات الحسابية بين السطح الكلى لجميع مسطح المبانى السكنية والمساحة الكلية للأرض بما عليها من خدمات وملحقات كالجراجات وغيرها . وإذا فرضنا أن مساحة مسطحات المبانى السكنية المبنية على دور واحد هو (م) ، وأن الأرض الكلية مساحتها (س) ، فتكون العلاقة : بين (م إلى س) وهى التى تعطى درجة شغل المبانى للأرض ، أى أذا كانت المبانى السكنية ١٠,٠٠٠ م٢ ، وكانت مساحة الأرض ٤٠,٠٠٠ متر٢ كانت درجة شغل المبانى للأرض .

$$\frac{\text{م}}{\text{س}} = \frac{١٠٠٠٠}{٤٠٠٠٠} = \frac{١}{٤}$$ من مساحة الأرض .

هذا فى حالة المبانى ذات الدور الواحد ، أما إذا كانت المبانى من عدة أدوار فيجب أن تكون المساحة لمختلف الأدوار = م حتى نحتفظ بنفس الكثافة فى عدد السكان ، وكذلك يمكن أن نحصل على العلاقة بين الأرض ومساحة السطح المشغول بالمبانى السكنية من العلاقة : (س إلى م)

وفيما يتعلق بكثافة السكان فإن هذه العلاقات يمكن تفسيرها بالطريقة التالية.
كلما كانت النسبة بين الأرض المشغولة والأرض ـ أى (م إلى س) ـ كبيرة كانت المبانى عالية ومتلاصقة ، أى أن كثافة السكان كبيرة ، وكلما كانت هذه النسبة صغيرة كانت المبانى منخفضة ومتفرقة ، وكثافة السكان تكون ضعيفة .

والواقع أن استخدام هاتين العلاقتين (م إلى س ، س إلى م) المذكورتين آنفا ، من أهم وسائل التخطيط العمرانى لتحديد درجة إمكانية البناء وشغل الأرض بطريقة تتمشى مع الكثافة المقبولة للسكان خاصة فى المدن الجديدة . (١)

المؤشرات الإدارية :

تعتمد المؤشرات الإدارية فى تصنيف المدن دائما على قرار أو إعلان حكومى ، رسمى يحدد الأماكن العمرانية التى تعتبر مدنا وتلك التى تعتبر ريفا .

وفى بعض الدول يصدر مرسوما خاصا لكل مكان يحمل صفة المدينة ، يحدد فيه واجبات السكان وحقوقهم ، ويمكن تتبع مراسيم المدن حتى عصور تاريخية قديمة ، وتعتبر بريطانيا من الدول التى تحمل مدنها مثل تلك المراسيم ، ولكن ثمة أقطار أخرى تأخذ بنظام الادارة المحلية أو الحكم المحلى مثل كل من مصر وتركيا وبيرو ، وفى هذا النظام يكون لكل مدينة ادارة حكومية تعنى بشئونها الداخلية مثل الضرائب والأمن والتعليم (٢) وهذا ما حدث فى مصر عندما طبق نظام الادارة المحلية عام ١٩٦٠ ، ليشمل المحافظات الحضرية وهى القاهرة ،

---

(١) محمد حماد : تخطيط المدن وتاريخه . الطبعة الأولى ، ١٩٦٥ . ص ٢٥٥ ـ ٢٥٦ .
(٢) أحمد على اسماعيل : المرجع السابق . ص ٢٤ .

الاسكندرية ، بورسعيد ، السويس، بالاضافة إلى عواصم ومراكز المحافظات الصحراوية والريفية بوجهيها البحرى والقبلى (١) .

المؤشرات التاريخية :

وهو يرتبط بنشأة المدينة ودورها فى التاريخ ، ولكننا نجد أن كثيرا من المدن التاريخية أصبحت اليوم أطلالا ، وكل ما تبقى منها هو أجزاء من قلاعها وأسوارها ، ولعل كثيرا منها قد أصبح اليوم أماكن متواضعة قليلة السكان ، نتيجة لتغير العلاقات المكانية ، أو لتغير فى وسائل النقل والمواصلات ، هذا الى جانب بعض العوامل الطبيعية مثل نوبات الجفاف أو الزلازل والبراكين التى تؤدى إلى اضمحلال المدن التاريخية ، كما أن ظهور الحدود السياسية فى العصر الحديث قد أدى إلى انكماش مدن كانت لها أهميتها فى الماضى ، ومثال ذلك نجد قرية صغيرة فى مركز أسيوط تدعى "شطب" كان عدد سكانها فى حدود ٧٠٠٠ نسمة عام ١٩٦٠يعمل ٩٠٪ منهم بالزراعة على الرغم من أنها كانت مدينة هامة فى مصر الفرعونية وكانت عاصمة لاحدى المقاطعات التى لعبت دوراً هاما فى تاريخ مصر القديمة(٢).

يتعين علينا الإشارة هنا إلى أن التعريف التاريخى أصبح من التعريفات غير المقبولة ، وهو كالأساس الادارى تعريف شكلى لا موضوعى .

مؤشرات قوى العمل :

يميل علماء الجغرافيا إلى اتخاذ مؤشرات قوى العمل وعلاقته بالانتاج فى تعريف المدينة ، وكما يرى (بوش) فان أهمية المدينة لا يتوقف مع المساحة التى

---

(١) الجهاز المركزى للتعبئة والاحصاء : الكتاب الاحصائى السنوى ـ يونيو ١٩٨٤ . ص ١٩ .

(٢) أحمد على اسماعيل : المرجع السابق ، ص ٢٣ ـ ٢٦ .

تشغلها أو عدد السكان الذين يقيمون فيها ، ولكنه يستند بالدرجة الأولى على الانتاج التى تمارسها .

وتكون التفرقة بين المدينة والريف على أساس تعريف سالب للمدينة فى الواقع ، كما لاحظ (حمدان) أن التعريف يكون أصلا للقرية على أساس أنها المكان الذى يحترف سكانها الزراعة ، أما المدينة فهى التى يحترف سكانها أعمال غير زراعية .

ومن حيث مكان العمل ، قد يقال أن سكان القرية يمارسون أعمالهم خارج الكتلة السكنية فى الحقول ، أما المدينة فان سكانها يعملون فى أبنية مقفلة الا فى حالة مدن التعدين . أما بالنسبة للأنشطة الاقتصادية فهى تعد الركيزة الرئيسيه فى التفرقة ، وفى ذلك يركز " ماكس فيبر " على ضرورة وجود السوق الدائم للتبادل فى المدينة . وفى سوق المدينة يظهر انتاج ظهيرها المباشر – من القرى – لأن التجارة وظيفة أساسية وقديمة للمدينة ، وأما من حيث العلاقة بين المدينة والزراعة فهو يلاحظ وجود المدن شبه الريفية .

وبالرغم من أن بعض المدن متخصصة وظيفيا مثل مدن التعدين أو مدن الاستشفاء أو المصايف أو بعض الموانى المتطرفة ، فان المدينة تكون عادة متعددة الوظائف بعكس الريف الذى تسوده الزراعة (١) .

ويوضح (بيرجل) أن كل منطقة سكانية تركز نشاطها على الاستهلاك المحلى ليست بمدينة ويحدد المدينة بوظيفتها (٢) .

والحقيقة أن المدينة تعد ظاهرة متطورة ومتغيرة ، ويتوقف شكلها وطبيعتها على الزمن الذى تنتمى اليه والمكان أو الحضارة التى تنتسب اليها ، ومن الملاحظ أن هناك مدنا أفريقية لا تملك من مقومات المدينة الأوربية الا اليسير منها ، ومع

---

(١) نفس المرجع السابق ، ص ٢٢ ـ ٢٣ .

(٢) جمال حمدان : المرجع السابق : ص ١١ .

ذلك تلعب دورا يشابه دور المدينة الأوربية كمركز نشاط تجارى ، وكمركز استقطاب لما حولها من قرى .

والخلاصة أن تعريف المدينة لا يمكن أن يكون تعريفا أحاديا لينطبق على كل المدن فى كل البلاد وفى كل الحضارات .

مؤشرات المظهر الخارجى :

كما كانت الأسس السابقة غير كافية لتعريف المدينة لذلك فقد استخدم عامل المظهر الخارجى فى تحديد فى كثير من دراسات جغرافية المدن . فالمدينة بالنسبة للباحث فى العلوم الإنسانية ليست الا مظهرا من مظاهر الحياة اليومية ، ومن الممكن أن يجد فى مظهرها الخارجى أساسا يعتمد عليه فى التصنيف كالقلاع والأسوار القديمة وأشكال وتوزيع المساكن ودرجة التزاحم بين الوسط والأطراف وعدد السكان الذى يبدو فى تعداد المساكن وارتفاعها وفى طول الشوارع واتساعها. كذلك فى الحياة الصناعية التى تشتهر بها كثير من المدن التى تبدو فيها المداخن العالية والمصانع الضخمة ، أما الحياة التجارية فمن مستلزماتها واجهات المحلات التجارية ، ومهما يكن من شئ فان هذه المظاهر الخارجية التى نشاهدها فى المدن ليست الا نتيجة لشئ آخر وهو نوع الحياة فى كل من المدينة والقرية (١) . واذا أردنا أن نقارن بينهما ، فلابد أن نعرف أولا أن هذا الاختلاف بين حياة المدينة والقرية هو نتيجة تكيف حياة السكان لكل من البيئتين ، بحيث أصبح أهم مميز لحياة أهل الريف أن أعمالهم الزراعة ، فهل يمكن أن نميز حياة المدن هى الأخرى بنفس الطريقة ، فنقول بأن رجل المدينة هو الذى لا يزرع الأرض ، أو على الأقل لا يقوم بالجزء الأكبر من العمل فيها ؟

---

(١) عطيات حمدى : جغرافية العمران ، دراسة موضوعية تطبيقية . دار المعارف ١٩٦٥ ، ص ٢٥ ، ٢٦ .

ولتوضيح فكرة اختلاف الوظائف في المدينة ، نقول أن الوظائف الأساسية تختلف باختلاف الزمان والمكان ، ولذلك من الصعب أن نجد المحكات الموضوعية التي تميز بين جميع المدن خلال تاريخها المتغير الذى يمتد بعضها إلى آلاف السنين من عمر الزمن (١) .

* الوظائف :

تعد وظيفة المدن احدى مبررات وجودها ، ونمطا من أنماط الحياة فيها ، فهى الأساس فى قيام وتشكيل بنيتها ، والواقع أن معظم المدن متعددة الوظائف بدرجة أو بأخرى ، ولا يخرج التصنيف الوظيفى عن محاولة ابراز العوامل الايكولوجية لها، ومن هنا فان تصنيف مدينة ما على أنها مدينة صناعية وأخرى على أنها مدينة تعدين ، كل ذلك لا يعني غياب عدد آخر من الوظائف الضرورية، كل ما فى الأمر أن الوظيفة الأساسية قد تكون مبرر وجود المدينة (٢) ، ومن هذه الزاوية يمكننا أن نفهم تأثير هذه الوظائف على أشكال المدن الحضرية .

ومن المحاولات الأولى فى تصنيف وظائف المدن ما قام به " كولن كلارك" "وماكنزى " "وبيرجل " "وشابو " " وأورسو " .

كولن كلارك : يقسم كولن كلارك وظائف المدن على ثلاث قطاعات حرفية ، أولها قطاع الحرف الأولية التى تتعامل مع الطبيعة مباشرة كالزراعة واستخراج المعادن وعملية الصيد وقطع الأخشاب . أما الثانى فهو قطاع الصناعات التحويلية التي تقوم على تحويل الخامات الأولية إلى أشكال صناعية . أما القطاع الثالث فهو قطاع التجارة والخدمات ، فالتجارة تعتمد فى طبيعتها على التبادل الذى يتم من نتاج القطاعين السابقين ، أما الخدمات فلا تختص بالتعامل فى تداول السلع التجارية .

---

(١) نفس المرجع السابق . ص ٢٦ .

(٢) احمد اسماعيل : المرجع السابق . ص ١٧٤ ، ١٧٥ .

ولكنها تشمل الخدمات الخاصة والعامة كالتعليم والدفاع والبنوك والقضاء والادارة والنقل والطب والخدمات الشخصية .. الخ (١) .

والملاحظ على هذا التقسيم ، أن الجزء الاهم من قطاع الحرف الأولى وهى الزراعة لا علاقة لها بالمدن ، فهى حرف ريفية ، وتختص المدن بأعمال القطاع الثانى والثالث ، ولكنها تتفاوت كثيرا بين مدينة وأخرى، كما يلاحظ أن أول الوظائف فى حياة المدينة لم تكن الصناعات التحويلية . بل العمل فى القطاع التجارى ، أى أن الترتيب الزمنى جاء عكس الترتيب الوظيفى والسبب فى ذلك أن التبادل فى الخامات الزراعية والمعدنية عملية لا شك أنها أبسط من عملية تصنيعها وتحويلها .

ماكنزى : يميز ماكنزى وظائف المدن على أربع نماذج من المجتمعات ، هى مجتمع الخدمات الأولية أى الانتاج الأولى ثم مجتمع التجارة ثم مجتمع الصناعة ، ثم مجتمعات تخلو من الأساس الاقتصادى كمدن الترفيه والسياسة والتعليم والدفاع .. الخ .

بيرجل : يحدد بيرجل وظائف المدن على سبعة نماذج هى : المدن الاقتصادية ، السياسية ، والحضارية ، والترفيهية والسكنية ، والرمزية ، والنوعية . والواضح من هذا التقسيم أنه متداخل ومبهم وغير متسق تحليليا بحيث يحسن أن يضم الى مجموعات أعم .

شابو : يصنف شابو وظائف المدن على أشكال الواقع التجريبى ، وحدد هذه الوظائف على النحو التالى : الحرية التجارية ، الصناعية ، العلاجية ، السياحية ، ثم الفكرية والدينية ، وأخيرا الادارية .

أورسو : اقترح أورسو فى تصنيفه للمدن ست وظائف هى :

---

(١) جمال حمدان : المرجع السابق ، ص ١٧٤ ، ١٧٥ .

١ ـ **الوظيفة الادارية** : وتضم العواصم ومدن الدخل أو الايرادات الحكومية .

٢ ـ **الوظيفة الدفاعية** : وتضم مدن القلاع والحاجيات والقواعد البحرية .

٣ ـ **الوظيفة الثقافية** : وتضم مدن الجامعات والمدن الدينية ومدن الحج ومراكز الفنون .

٤ ـ **الوظيفة الانتاجية** : وتضم مدن الصناعة .

٥ ـ **وظيفة المواصلات** : وتنقسم الى ثلاثة أقسام فرعية :

أ ـ **مدن الجمع Collection** وتضم مدن التعدين والصيد وأعمال الغابات ومدن المخازن والمستودعات . Depot towns

ب ـ **مدن الانتقال** : والتحويل Transfer وتضم مدن الأسواق ، والمطارات ومحطات السكك الحديدية رؤوس الكبارى ومدن والموانى الملاحية .

جـ ـ **مدن التوزيع** : وتضم مدن التصدير والاستيراد والتموين .

٦ ـ **الوظيفة الترفيهية** : وتضم مدن المنتجات ومدن السياحة ومدن قضاء العطلات .

الملاحظ أن تصنيف " أورسو " قد شابه بعض الخلط فى تضيف مدن المواصلات التى تبدو شاذة فى تركيبها ، وغير متوازنة ، ويكفى أنها تضم كلا من مدن التعدين ومدن الأسواق رغم تباينهما وظيفيا ، ورغم ذلك فان تصنيف أورسو يعتبر بداية لظهور التصنيفات للمدن [١] .

هاريس : يذهب " تشونس هاريس " فى مقال نشر له عام ١٩٤٧ الى أن الدراسات التى سبقته فى التصنيف الوظيفى للمدن تخلو من بيانات كمية فى التحليل الوظيفى للمدن الأمريكية .

---

(١) احمد اسماعيل : المرجع السابق . ص ١٧٦ .

وهى البيانات التى سيعتمد عليها فى تحليله لوظائفها . والأساس الذى اتخذه هاريس " هو التوصل الى أكثر الأنشطة أهمية فى كل مدينة . وذكر أن المدن الكبيرة كلها متعددة الوظائف ، ولهذا فان تصنيف احداها على أنها مدينة صناعية لا يعنى غياب التجارة عنها .

وقد أعتمد " هاريس " فى تحديد النشاط الاقتصادى لكل مدينة على مصدرين احصائيين : بيانات العمالة وبيانات المهنة .

أما البيانات المهنية فيكون الحصول عليها بسؤال كل فرد عما يعمله . وهى تنشر فى التعداد الأمريكى للمدن التى يزيد سكان كل منها عن ٢٥٠٠٠ نسمة . وقد قسمت المهن الى عشرة فئات أساسية ، ولكن هذه الفئات لا تكفى فى رأيه بالنسبة للوظيفتين الأساسيتن للمدن وهما الصناعة والتجارة .

أما بيانات العمالة ، فإن الحصول عليها يكون عن طريق المنشآت والمؤسسات الصناعية والتجارية التىتقدم بيانات عن العاملين لديها ، وهى توجد أيضا فى التعداد الأمريكى بالنسبة للمدن التى يزيد عدد سكانها عن ١٠,٠٠٠ نسمة، وقد بلغ عدد هذه المدن ٩٨٤ مدينة فى تعداد الولايات المتحدة لعام ١٩٣٠ .

أما الأسس التى اتبعها " هاريس " بالنسبة لكل وظيفة فهى كما يلى :

١ ــ مدن الصناعة : وقد اختار لها أساسين أولهما ، أن تبلغ نسبة العمالة فى الصناعة وتجارة التجزئة والجملة ما بين ٧٤٪ الى ٦٠٪ على الأقل من أرقام العمالة .

والأساس الثانى ، هو أن تكون نسبة الذين يعملون بأجر أو يتكسبون بعملهم فى الصناعة والصناعات الميكانيكية تتراوح ما بين ٣٠٪ الى ٤٥٪ .

٢ ــ مدن تجارة القطاعى : وفيها تكون نسبة العاملين فى تجارة القطاعى ٥٠٪ على الأقل ممن يعملون فى الصناعة وتجارة الجملة وتجارة القطاعى ،وأن يصل

العاملون فى تجارة القطاعى الى ٢,٢ مرة (٢٢٠٪) من العاملين فـى تجـارة الجملـة وحدها .

٣ ــ مدن متنوعة الوظيفة : وفيما تكون العمالة فى كل مـن الصناعـات وتجـارة الجملة والتجزئة أقل مـن ٦٠٪ ، ٢٠٪ ، ٥٠٪ علـى الترتيب مـن جملـة العمالـة ، وفيما عدا استثناءات قليلة فان الصناعات الحرفية والصناعـات الميكانيكيـة تضـم مـا بين ٢٥٪ ، ٣٥٪ من العاملين بأجر .

٤ ــ مدن تجارة الجملة : وفيها تكون العمالة فى تجارة الجملة ٢٠٪ على الأقل من جملة العاملين فى الصناعة وتجارة الجملـة والقطـاعى ، وان تكـون بنسـبة ٤٥٪ على الأقل من العاملين فى تجارة القطاعى وحدها .

٥ ــ مدن النقل : وفيها يكون العاملون فى النقل والمواصلات بنسبة ١١٪ علـى الأقل من العاملين بأجر ، وأن يكون عددهم يساوى ثلث عدد العاملين فـى الصناعـة والصناعات الميكانيكية على الأقل ، وثلثى العاملين فى التجارة . وقد طبق "هاريس" ذلك على المدن التى يزيد سكانها عن ٢٥,٠٠٠ نسمة والتى تتوافر بياناتها .

٦ ــ مدن التعدين : وفيها يعمل فى استخراج المعادن ١٥٪ على الأقل من العاملين بأجر (بالنسبة للمدن من فئة ٢٥,٠٠٠ نسمة فأكثر) ، وهى التى تتوفر عنها بيانـات احصائية . أما بالنسبة للمدن التى يقدر عددها بين ١٠,٠٠٠ ، ٢٥,٠٠٠ نسمة ، فقد قام " هاريس " بعمل مقارنات بين أعداد العمالة المتوفرة فى المقاطعـات التـى توجـد بها مدن تعدين واعتمد على البيانات المنشورة للمقارنـة بيـن مـدن التعديـن الفعليـة ، والمدن التى تعمل فى التجارة أو الصناعة القائمة على التعدين .

٧ ــ مدن الجامعات : وفيها تكون أعداد المسجلين فى الكليات الجامعية والمعاهد العليا الفنية وما يماثلها من معاهد التعليم العالى تساوى ٢٥٪ من جملة سكان المدينـة على الأقل ، هذا القياس على ضوء التعداد السكانى عام ١٩٤٠ .

٨ ــ مدن الاستجمام والراحة : لم يجد " هاريس " أساسا ما يقتنع به بدرجة مرضية بالنسبة لهذه الوظيفة ، ولكنه تتبع المدن التى تنخفض فيها نسبة العمالة بالقياس الى جملة السكان .

هوارد نلسون : بعد مرور أكثر من عشرة أعوام على تصنيف " هاريس " نشر " هوارد نلسون " فى عام ١٩٥٥ مقالا عن تصنيف المدن الأمريكية أعتمد فيه على إحصاء تعداد السكان الأمريكى لعام ١٩٥٠ ، الذى نشر بيانات عن المدن التى يسكن الواحد منها ١٠,٠٠٠ نسمة فأكثر بقدر من التفصيل ، وبلغ عددها ٨٩٧ مدينة .

ويقسم التعداد الأمريكى أوجه النشاط الاقتصادى الى ٢٤ قسما فرعيا ، وقد أدخل " نلسون " تعديلا على هذا التقسيم فقد استبعد بعض الأنشطة مثل الزراعة وضم بعض الأقسام المتشابهة ، وخلص من ذلك بتسعة أقسام أساسية للنشاط وهى التعدين، الصناعة ، النقل والمواصلات، تجارة الجملة ، تجارة القطاعى ، الأمور المالية والتأمين والعقارات ، الخدمات الشخصية ، الخدمات المهنية ، ثم أخيرا الادارة العامة (١) .

بعد ذلك قام " نلسون " بحساب كل نشاط من الأنشطة التسعة فى المدن الأمريكية التى يصل سكان الواحد منها الى ١٠,٠٠٠ نسمة فأكثر وهى ٨٩٧ مدينة. وخرج من ذلك بمتوسطات النسب المئوية للتركيب الوظيفى أو الأقتصادى لقوة العمل . وكانت على الترتيب :

الصناعة ويعمل بها ٢٧,٠٧٪ . وتجارة القطاعى ١٩,٠٩٪ والخدمات المهنية ١١,٠٩٪ ، النقل والمواصلات ٧١٢٪ الخدمات الشخصية ٦,٢٪ والادارة

(١) نفس المرجع السابق : ص ١٨٠ ــ ١٨٢ .

العامة ٤,٥٨٪ ، تجارة الجملة ٣,٨٥٪ والمالية والتأمين والعقارات ٣,١٩٪ لا يتم أخيرا التعدين ١,٦٢٪ .

الواضح أن " نلسون " اتبع فى تصنيفه أسلوبا احصائيا دقيقا يقوم على متوسطات نسب الوظائف فى المدن الأمريكية والانحراف المعيارى عن هذه المتوسطات .

لقد اسفرت طريقته الى أن بعض المدن تأخذ أكثر من وظيفة فى التصنيف ، ويرى أن ذلك ليس عيبا بقدر ما هو ميزة ، فكثير من المدن تجمع فعلا بين أكثر من وظيفة بتطبيق الأسس الاحصائية (١) .

إذا ما سلمنا بإمكانية سد الفجوة بين اتجاهات علم الاجتماع الحضرى والجغرافيا البشرية فى دراسة المدينة فإننا نكون بذلك قد خطونا نحو منهج مقارن يجمع بين المنظورين فى تحليل وتفسير ايكولوجية المدينة .

وإذا استعرضنا الجهود التى تناولها الجغرافيون والمؤرخون والأنثروبولوجيون فى دراستهم للمدينة ، نجد افتقاد الأدوات الفكرية التصورية الملائمة لتحديد تعريف المدينة ، ويمكن أن نشير فى ذلك إلى ملاحظتين :

الملاحظة الأولى : أن المؤشرات التى بذلت للوصول إلى تحديد حجم المدينة ، جاء فى صورة إصطلاحات قانونية ، ذلك أن حاكما ، قد يطلق اسم مدينة عن طريق اعلان أو وثيقة رسمية تصدر عن سلطة عليا ، ومع أن هذا التعريف واضح إلا أنه غير مرضى ، لأن المكان لا يكون مدينة بمجرد الاعلان ، لأن هذا لا ينطبق على كثير من المدن الموجودة فى كثير من بلاد العالم التى نشأت وتطورت دون إعلان رسمى أو دون صدور وثيقة بذلك من الجهات المختصة ، أما عن تعريف المدينة ــ إحيانا ــ بطرق إحصائية ، فقد يرجع هذا التحديد العددى للأغراض

---

(١) نفس المرجع السابق : ص ١٨٧ .

الاحصائية ، الا أنه غير مفيد تماما من الناحية السوسيولوجية ، ومع ذلك فليس هناك من اتفاق على هذا العدد في كثير من بلاد العالم .

لقد حاول البعض تعريف المدينة على أنها المكان الذى أصبح من الكبر بحيث لم يعد الناس يعرفون بعضهم بعضا ، ولكننا لا نعتقد في صحة هذا التعريف لأن كثيرا من المدن الصغيرة يعرف سكانها بعضهم بعضا .

ونخلص إلى أن التعريفات التي تحاول أن تضع مقياسا واحدا لتحديد المدينة أو لتعريفها لم تقابل بنجاح ، الأمر الذى دعى كل من " سوركين وزيمرمان ومونيه وزيمبارت " إلى القول بأن التعريف الصحيح للمدينة لابد أن يأخذ في الاعتبار تعدد العوامل وارتباطها . وربما جاء ذلك القول لدحض اتجاهات الآباء المؤسسين للايكولوجية البشرية ـ الذين واجهوا تفسيراتهم النظرية بشكل أساسي نحو المنافسة الاقتصادية على المجال السكاني في المدينة ، ومحاولة سيطرتها ، ومع ذلك كان هناك مؤشرات للعوامل الاجتماعية المؤثره في حياة المدينة خاصة تلك التي تؤثر في الأماكن السكنية ، كالعوامل الاجتماعية والثقافية والعنصرية الذين يبدو أن التعريفات المتعددة عن المدينة اعتمدت على ظاهرة أو أكثر من الظواهر التي تميزها عن القرية ، وأن اختلاف تلك التعاريف يوضح مبلغ الصعوبة في اعطاء تعريف واضح دقيق لهذه الحقيقة المتشعبة ، حيث نجد بلادا صغيرة بقيت صف مدينة ونصف قرية .

وعندما نحاول تعريف المدينة فاننا نواجه صعوبة متعارف عليها بين علماء الاجتماع ، وليست هذه الصعوبة خاصة باصطلاح المدينة وحده لأن هناك عدد قليل من المصطلحات السوسيولوجية تحظى باتفاق خبراء التعاريف .

الملاحظة الثانية : المدينة من الناحية السوسيولوجية الفنية البحتة عبارة عن فكرة مجردة ولكن العناصر التي تتكون منها ، مثل الاقامة والبناءات الداخلية ، ووسائل

المواصلات ، عبارة عن موجودات لها طبائع مختلفة ، ولذلك فان ما يجعل المدينة شيئا محددا هو ذلك التكافل الوظيفى لعناصرها المختلفة على هيئة وحدة كلية ، ومع ذلك لا يكون للمدينة وظيفة واحدة [١] ، وهو ما يبدو من مؤشرات علماء الجغرافيا الذين وضعوا تصوراتهم للمدينة فى ضوء الحجم والوظائف .

وهى ملاحظات ليست دقيقة ، لأن أنواع الحياة الانسانية فى المدينة هى فى التعدد ، بحيث يكون من المستحيل أن نجمعها جميعا تحت اصطلاح واحد يشملها ، ومع ذلك تختلط حياة الريف وحياة المدينة معا فى بلد واحد ، كما فى البلاد الكبيرة فى المجر أو بلغاريا أو اقليم الفرات حيث تغلب فيها صبغة الريف .

فى ضوء الملاحظتين السابقتين نجد مؤشرات متعددة للمدينة كما نجد اختلاف العلماء فى تعريفها وهذا يدل على اتساع المشكلة ، فبعض العلماء يميل الى اطلاق صفة التجارة على المدينة ويجعل من خصائصها سمة الاولى لمعظم المدن ، ولكننا نجد أن هذا الأساس الذى اعتمد عليه هؤلاء العلماء يصبح شيئا ثانويا فى مدن أخرى أى أن التجارة قد تصبح صفة ثانوية فى بعض المدن .

ونورد هنا تعريفان آخران أحدهما للعالم Fr. Von Richthofen الذى يذهب إلى أن المدينة هى مجموعة من الناس تتكون وسائل حياتهم المعيشية من اشتغالهم فى التجارة والصناعة قبل كل شئ .

أما التعريف الآخر فهو للاستاذين " جان برنشر وبيير (Jean Brunges e Pierre) فيذهبان الى القول : " بأن المدينة ترتبط بمجال السكان الذين يستخدمون معظم أوقاتهم فى داخل مكان تجمعهم ، على عكس القرية التى يستخدم معظم سكانها أوقاتهم خارج مكان تجمعهم " .

---

(١) محمد عاطف غيث : المرجع السابق . ص ١٢٦ .

لقد واجه التعريف السابق عدة اعتراضات من حيث أن نشاط سكان المدينة لا يفترضى أن يكون داخل مكان التجمع دائما ، كما فى حالة مصانع توليد الكهرباء والتى تتكون من مصنع واحد وعدة منازل متجاورة .

ويعرف H. Dories المدينة بأنها عبارة عن تجمع للسكان حول نواة واضحة ثم بمظهرها الذى يتكون من عدة عناصر (١٦) كما نجد " مونيه " يعرف المدينة بأنها مجتمع كامل أساسه الجغرافى محدد بحجم سكانه ، أو أن المكان الذى تشغله ضيق نسبيا اذا ما قورن بعدد السكان الذين يشغلونه ، ويعود " مونيه " بهذا الى التعريف الذى سبق رفضه ، والذى يجعل من كثافة السكان عنصرا أساسيا فى تمييز المدينة عن غيرها من التجمعات الانسانية (١) .

ولعل أبرز من تناول تعريف المدينة فى ضوء خصائصها " سوركين وزيمرمان " فقد جمعا ثمانية خصائص يختلف بها المجتمع الحضرى عن المجتمع الريفى وهى : المهنة البيئة ، حجم المجتمع المحلى ، كثافة السكان ، تجانس ولا تجانس السكان ، التمايز والتشريع الاجتماعيان ، التنقل والحراك الاجتماعى ، نسق التفاعل الاجتماعى ، عدد وأنماط الاتصالات (٢) .

ومع كل هذه التعاريف ، ظل التمايز والتشريع الاجتماعيين أبرز ما يميز الطابع الحضرى ، نظرا لما تتصف به المدينة من اختلافات شديدة من حيث المهن والمراكز الاجتماعية والاقتصادية ، والوضع الثقافى والعرقى للسكان ، الأمر الذى يجعلنا نقول ، أن المدينة هى أى نطاق مكانى يعمل أغلب سكانه فى أنشطة متعددة ومتنوعة غير الزراعة ، وما يتصل بها من شئون وتباين يعكس القوى والديناميات الاجتماعية التى تجعل الأحياء السكنية فى المدن الكبرى تختلف فى خصائصها المكانية والسكانية عن بعضها البعض .

---

(١) عطيات حمدى : المرجع السابق ، ص ٢٧ ، ٢٨ .

(٢) محمد عاطف غيث ، علم الاجتماع الحضرى المرجع السابق ص ١٢٧ ، ١٢٩ .

خلاصة القول أن المدينة بكل ظواهرها الاجتماعية ، هى الميدان الطبيعى لدراسات علم الاجتماع الحضرى ، ومن ثم يصبح علم الاجتماع الحضرى هو علم دراسة المدينة .

الفصل الثانى

المدينة فى مسيرة التاريخ

المدينة فى الفكر الاجتماعى
المدينة فى الحضارات القديمة
مدن العصور الوسطى

المبحث الأول

المدينة فى الفكر الاجتماعى

ليس من اليسير أن نحدد نقطة الصفر التى انطلقت منها الدراسات التاريخية للمدينة ، خاصة وأنها صورة من صور التفاعلات الإنسانية التى مرت بمراحل طويلة فى تطور الحضارات ، وحينما نسترجع المراحل الزمنية لهذا التطور نجد أن شكلها المبكر كان مجرد بلده Town بالمعنى الحديث ، تتألف من خمسة أو عشرة آلاف من السكان تقريبا . ومع ذلك فإن مثل هذه المدن كانت النتاج النهائى لحصيلة التطور الحضارى فى أجيالها ، ومن ثم يتضمن تصورنا لدراسة المدينة أن يكون تاريخها منطويا على مراحل فكرية تساير تطور نموها البنائى والوظيفى .

وإذا ما حاولنا اقتفاء أثر الأفكار حولها ، نجد أن المدينة قد احتلت أهمية كبيرة فى عقول الفلاسفة والمفكرين الاجتماعيين الذين حاولوا فحص الدور الذى لعبته فى العصور المختلفة من الحضارات الإنسانية .

صحيح أن المدينة قد أكتسبت أهمية خاصة فى المنظور الفلسفى عند الإغريق فيما رأى أفلاطون أن الاستقرار المتكامل للمدينة هو الهدف الأعلى الذى يحافظ على الانسجام والتناسق بين السكان ، فجعل المدينة شبه مستقره خوفا من تعرضها للتغير والهزات الإجتماعية والحروب الأهلية لمدينته الفاضلة ، فدعا إلى وضع التحديدات الصارمة ضد زيادة النسل ، وأراد أن يتخلص من الاضطرابات الاقتصادية ، فقسم السكان إلى أصحاب الأصناف من المهن والحرف تقسيما وراثيا مغلقا ، وأرجع سبب القلق الإجتماعى إلى الروح المبدعة ، الروح الشعرية .

ومن ثم جاء تصوره بضرورة طرد الشعراء من جمهوريته بعد أن يتوجوا بأكاليل الغار ، والواضح أن جمهوريته كانت عبارة عن تصورات عقلية راكدة وساكنة بكل ما فيها من مساحة وسكان .

لعل ما يمكن أن يقال عن نظره أفلاطون للمدينة ، أنه ربط بين التغير والفوضى ، وانتقد بشدة قلق المدن الكبيرة التجارية مثل " أثينا " وكورنيث " وتأثر بشكل واضح من كثرة الاضطرابات ، والقلاقل والفتن بين سكان أثينا فاعتبر "إسبارطة " نموذجا مثاليا للاستقرار ، واقترح تجميد كل حركة فى الأنظمة السياسية والاقتصادية والعقلية ، وفضل العودة إلى البناء التقليدى للمدينة الفاضلة ــ اليونانية القديمة . وارجع افلاطون كل تلك الاضطرابات إلى الزيادة السكانية والتغيرات التى تحدث فى تركيبها ، واتباع السياسة التوسعية ذات المظهرين الأساسين وهما : السيطرة على الأسواق ، والتهجير .(١)

فضلا عن ذلك وقف " ارسطو" موقفا متشابها " لأفلاطون " مع شئ من الموضوعية ، بعد أن وصف مائه وثمانية وخمسين مدينة إغريقية وأجنبية ، كان يبحث عن كل واقع يقترب من الكمال فى الكائن الحقيقى فيها ، حيث تكون بالنسبة له أسبابا نهائية وكافية ، خاصة التى تصحب الإنسان باعتباره كائنا سياسيا ، وفى محاولته دراسة أنماط السلوك الفردية والاجتماعية فى المدينة نظر أرسطو إلى الواقع الاجتماعى فى مظاهر أربعة وهى :

١ ــ التضامن أو الروح الاجتماعية .

٢ ــ التجمعات الخاصة .

٣ ــ الدولة : المجتمع الأكبر الذى يتوج كافة المجتمعات .

٤ ــ مجموعة القواعد الخاصة بالسلوك الاجتماعى ، والتى تحيط بالتقاليد والأعراف والتطبيقات والأداب الاجتماعية ، والقانون والأخلاق وما يدعى بوسائل السيطرة الاجتماعية .

---

(١) عبد الجليل الطاهر : مسيرة المجتمع . بحث فى نظرية التقدم الاجتماعى ، المكتبة العصرية بيروت ١٩٦٦. ص ٦٠ ــ ٦١ .

الواضح أن " أفلاطون " وأرسطو وضع تصورهما للمدينة الفاضلة التى يستطيع أن يعمل فيها كل مواطن وفق القوانين ويكفل لنفسه فيها أكبر قدر من السعادة ، وبنفس الأهمية نجد فكرة المدينة الفاضلة فى العصور الوسطى عند القديس " أوغسطين " ٣٥٤ م ٤٣٠٠م فى كتابه الشهير مدينة الله . وفيه قسم النوع البشرى إلى مجموعتين :

أولئك الذين ارتضوا حياة الدنيا ، فعاشوا فى المدينة الدنيوية The Earthly City وأولئك الذين ارتضوا أن يعيشوا وفق تعاليم الله فى مدينة الله The City of God (١) ويرجع سكان مدينة الله إلى مدينة الدنيا . حيث يمكن تحقيق الخيرات الحقيقية : القانون ، والنظام . والسلام والرخاء . ولكن إذا تناسى سكان المدينة الأرضية الخيرات الطيبة التى تتمتع بها مدينة الله ، وطمعوا بتلك الخيرات وأعتبروها الخيرات الوحيدة ، حينئذ، ومن الضرورى أن يبرز الشقاء ، ويزداد البؤس .

بالرغم أن القديس " أوغسطين " لم يتقدم بأى تفسير للصراعات الداخلية والخارجية التى تقضى على كل مجتمع أرضى ، إلا أنه أكتفى بالقول : " إذا لم ينذر السكان ولاءهم وأخلاصهم الأول إلى مدينة الله ، فإن المدينة الأرضية تنقسم على نفسها ، فيكون كل قسم ضد الأخر .

وبالرغم أن كتابه هذا يتضمن فلسفة التاريخ واللاهوت ، والفلسفة ، إلا أن الفكرة الأساسية عنده هى أن الله قد أختار الكنيسة لتكون رمزا على الأرض . ومن ثم اتبع الخطوط الأساسية فى فكر أفلاطون (٢) . وفى غضون العصور الوسطى برز عدد من فلاسفة المسلمين الذين بحثوا فى المدينة الفاضلة التى يسعى إلى تحقيقها المجتمع الإنسانى ومن هؤلاء أبو نصر الفارابى (٢٥٩هـ ــ ٣٣٩هـ) الذى

---

(١) المرجع السابق : ص ١٩٣ .

(٢) نفس المرجع السابق ص ٦٤ .

تناول فى كتابه أراء أهل المدينة الفاضلة ، حاول أن يوضح فيه الأسس التى يجب أن يقوم عليها المجتمع الفاضل . وخصائص النفس البشرية . فيقول " لا يستطيع أن يبقى وأن يبلغ أفضل كمالاته إلا فى المجتمع ، والمجتمعات البشرية منها ما هو كامل ومنها ماهو غير كامل . والكامل منها ثلاثة : العظمى المعمورة ، والوسطى الأمة، والصغرى المدينة ، وغير الكاملة هى : القرية والمحلة والسكة والمنزل . والخير الأفضل والكمال الأقصى ينال بالمدينة لا بالاجتماع الذى انقص منها . والمدينة الفاضلة تضاد المدينة الجاهلة والمدينة الفاسقة والمدينة المتبدلة والمدينة الضالة .

وقد وصف " الفارابى " الحاجة إلى الاجتماع السياسى فى المدينة الفاضلة بمعنى أن الإنسان لا يستطيع فيها أن يحقق أهدافه منعزلا ومستقلا عن الأخرين (١).

وبعد ذلك نأتى إلى " ابن خلدون " (١٣٣٢م ـ ١٤٠٦م) الذى تناول المدن فى دراسة للخط العام الدائرى لمسيرة المجتمعات البشرية ، ووضعها فى مرحلة الحضارة بعد البداوة التى تقوم على العصبية والملك وهى غاية العصبية ، والحضارة عنده التفنن فى الترف ، وأنها غاية العمران فى مرحلة العيش الرغيد والفراغ . وفى ظل هذه الحضارة ينصرف الحكام إلى جمع الثروات ، وبناء القصور ، والنصب التذكارية وفرض الضرائب لدفع الرواتب للجنود من أجل أن يؤثر فى حلفائه ويخيف قلوب اعدائه ، ويصف أهل الحضر ، بأن منهم من ينتحل فى معاشه الصنائع ومنهم من ينتحل التجارة ، وتكون مكاسبهم أنمى وأرقى من أهل البدو ، لأن أحوالهم زائدة على الضرورى ، ومعاشهم على نسبة وجدهم .(٢)

والواقع أن نظرية " ابن خلدون " فى تفسير حركة المجتمعات البشرية ومسيرتها فى الخط الدائرى على مبدأ التمييز بين البداوة وحضارة المدن ، تشير

---

(١) نفس المرجع السابق ، ص ٦٧ .

(٢) نفس المرجع السابق ، ص ٧٤ .

إلى أهمية العوامل الاقتصادية بصراحة فى حياة المجتمع المنظم فى دولة العصور الوسطى ، ويعنى ذلك ضرورة وجود موازنه لاقتصاد سليم فى بناء المجتمع كشكل حضرى وريفى . وهذه الموازنة هى مفتاح الاستقرار السياسى.

وفى منتصف القرن الثامن عشر أبان التحول من مدن العصور الوسطى إلى المدن الثورة الصناعية ، ظهر عدد من المفكرين الذين اهتموا بالدراسة الفلسفية للمدينة ، صاغها " فولتير " " وأدم سميث " " وفيشته " وجاءت أفكارهم فى ثلاثة اتجاهات متباينة هى : المدينة الفاضلة ، والمدينة كرذيله ، والمدينة بين الفضيلة والرذيلة .

فبالنسبة للمدينة الفاضلة ، فهى تعكس احترام مجتمع المدينة لمواهب الفرد وممارسته فى الحرية والتجارة والثقافه ، وفى هذه المدينة تبدو الفضيلة المتفاعلة مع التقدم الاجتماعى . أما المدينة كرذيلة ، فهو وصف لأثار نمو التصنيع على النمو الحضرى ، وتخلف الاقتصاد الريفى من ناحية ، وتحول النمط الدينى إلى النمط القائم على الكشف العلمى من ناحية أخرى ، وبدأت صور التناقض والصراع بين المصالح الذاتية المتبادلة بين الأثرياء من جانب وبين الفقراء من جانب أخر . وفى تصوير المدينة بين الفضيلة والرذيلة ، جاء هذا التصور على أن المدينة هى نتاج للحضارة العقلية وأنها تمتص الحياة من الريف .

فى ضوء التصورات السابقة ، يبدو أن دراسة المدينة جاءت كتجسيد للمجتمع وليست قطاعا منه ، ومجرد وحدة مورفولوجيه ، ولقد عبر عن هذا التصور أغلب المفكرين الاجتماعيين على مر العصور وحتى قيام الثورة الصناعية.

ومع ذلك فقد تغير هذا التصور بين المدينة والمجتمع أبان القرن الثامن عشر نظرا للتغير الذى حل على المدن ذاتها ، إذ تضخمت أحجامها واتسعت مساحتها بصورة لم تعرف من قبل ، ولم تعرف المدن هذه التبدلات نتيجة مجرد عوامل داخلية كالتغيرات السكانية بل نتيجة التغير الذى طرأ على الزراعة ودفع

بأهل الريف إلى ترك قراهم للإقامة بالمدن ، لاسعيا وراء العمل بقدر ما كان دافعهم البحث عن شئ جديد يجدون فيه انسانيتهم وذاتيتهم ، خاصة بعد أن عرفت العصور الوسطى وعصر النهضة نظام المصانع الكبيره (١) .

(١) أحمد النكلاوى : دراسة المدينة مدخل نقدى ، المرجع السابق ، ص ٤٢ .

المبحث الثانى

المدينة فى الحضارات القديمة

كثيراً ما يكشف التاريخ عن حضارات انطلقت من أهم المدن ، وظلت هذه المدن رموزاً فى عناصرها المادية والإنسانية . ومن ثم أصبح تاريخ هذه المدن هو تاريخ التفاعلات والأفكار والسلوكيات والاعتقادات والقوة ، وهو ما عبرت عنه هذه المدن فى مسيرة الحضارة .

إن دراسة المدن ، أصبح يفرض على الباحث وهو يحاور الواقع ان يضع فى ذهنه تاريخ المكان ، لفهم تطور المدينة من نشأة ونمو وأفول ، وفى كل هذه الأحوال فهى ظواهر من صنع الإنسان فى تعاقب الحضارات الإنسانية .

المدن فى الحضارات القديمة

اعتقد أن الاهتمامات التاريخية فى دراسة البناءات الاجتماعية لمدن الحضارات القديمة مازالت تدين بالانتماء لعلم الآثار ، والشئ الملموس فى سعى هذا العلم الوصول إلى مزيد من الحقائق عن هذه المدن ، ليكشف عن كيفية انتشارها وأفولها فى حضارات وادى النيل الخصيب ، ووادى نهر دجلة ، والفرات، ووادى الكنج، والسند .

والمتأمل فى موقع هذه المدن يجدها قامت بجوار الأنهار التى تعد من أهم شرايين الحياة الانسانية ، وفى محيط وديان هذه الأنهار ، تكونت حضارات الممالك وامبراطوريات قوية شهدت صراعات فيما بينها للسيطرة على عاملين أساسيين ، الموارد الطبيعية ، والقوى البشرية . أى على المكان والانسان .

ومع كل انتصار ، كان المنتصرون يفرضون عقائدهم ومعابدهم على السكان، ويقيمون لأنفسهم ولحاشيتهم القصور ويحصنوها بالأسوار لترسيخ سلطاتهم ولتكون مركزا لمدينة العاصمة .

ومن هذه الشواهد الأثرية ، مدن مصر الفرعونية التى ازدهرت بتعددها عبر التاريخ ومازالت تمثل للمكان حضارة منذ شيد ملوكها المعابد الضخمة على جانبى النيل ، ورصفوا الشوارع التى تفصل بين المعابد والقبور لمواكبهم .

لقد ظلت هذه الشواهد الأثرية باقية فى اطلال معبد الأقصر وطريق الكباش ومجموعة معابد الكرنك التى احتلت مساحة أربعين فدانا من العمران .

وفى أسيا تكونت المدن فى وادى نهرى دجلة والفرات ، وكانت المدن محصنه ضد أى هجوم من الأعداء ، مما جعل المعبد حصن الإله ، وفى نفس الوقت مصدر السيطرة على المدينة .

ولعل ما شجع على نمو المدن وازدهارها التطور التكنولوجى الذى سيطر عليه فكر الانسان ، وأضفى بتوظيفه الشكل الحضارى على المدينة ، ففى حضارة وادى النيل والرافدين زخرت أفاق جديدة للأكتشافات التعدينية (النحاس ، البرنز، الفضة ، الرصاص ، الحديد) .

لقد ساهمت هذه الإكتشافات فى صناعة العربات ذات العجلات المعدنية ، والمحراث ، وصناعة الأوانى المعدنية والعملات والسلاح ، والمراكب الشراعية ، ومنتجات الفخار ، وصناعة الزجاج ، والميزان ، والمنفاخ ، وورق البردى ، وكل ذلك فى الفترة من ١٢٠٠ ــ ٤٠٠٠ قبل الميلاد [١] .

غير أن أهم ما يميز المدن القديمة ، هو التخطيط العمرانى وقوانين البناء ، فلم يكن التشييد البنائى عشوائيا ، وإنما كان يخضع للتنظيم والعقوبات ، فالتنظيم كان يحدد المستوى الطبقى لأفراد الشعب والأمراء والكهنة والعمال ، وهو ما ينعكس على شق الطرق ونوع المسكن وعدد حجراته ، ومع كل ذلك كانت قوانين البناء حاسمة لأمن السكان . ولنا شواهد على ذلك فى قوانين الملك " حمورابى " (١٧٩٣ق.م) . التى تنص على عقاب البنائين الذين لا يقدرون المسئولية فى أعمالهم

---

[١] عزيز السيد جاسم : تأملات فى الحضارة والاغتراب ، بغداد ، الطبعة الأولى (١٩٨١) ص ٣١ .

" إذا سقط حائط وتسبب في قتل ابن ساكن المنزل فحياة ابن الباني هي البديل الوحيد ، وبذلك يحكم القضاء بموته " (١)

" وبفضل الاهتمامات الأثرية المتنوعة في الكشف عن الصور المختلفة لحياة المدينة القديمة " فإن هذه الصور تختلف باختلاف الحكام والسكان . ومع هذا الأختلاف ، فمنها عناصر متشابكة ومشتركة ، هي البيئة الطبيعية للوديان وسيطرة الانسان على مواردها وتطويعها في صناعة التكنولوجيا وأساليب التخطيط العمراني الذي وضع ملامح المدينة وخصائصها السكانية ، وترسيخ هذا التخطيط وتنظيمه في ضوء العقيدة الدينية التي كانت وسيلة للضبط السياسي ادارة الدولة .

* المدينة في مصر القديمة :

لماكانت الحضارة في جميع مظاهرها هي نتاج التفاعل الإنساني مع البيئة الطبيعية ، فمن البديهي أن يخضع المصري القديم في حياته المعيشية على ما تفرضه مكونات هذه البيئة .

ولعل من أهم هذه المكونات نهر النيل ، الذي يشكل الشريان الحياتي لمجتمع وادي هذا النهر من الجنوب إلى الشمال ، ينتهي نسبيا بالدلتا قبل أن يصب في البحر الأبيض المتوسط . وفي حدود الوادي تحول إلى فرعين الأول ضيق في الجنوب نهر حضارة الوجه القبلي ، والثاني متسع نسبيا في الشمال نهر حضارة الوجه البحري .

وبالرغم من هذا التحول ، كان النهر بكل امتداده أهم المصادر الحياتية للمجتمع المصري وأحد رموز عقيدته وحضارته .

لقد جاهد المصري القديم في استثمار مياه النهر وفيضانه في الزراعة والصناعة ، وفي نفس الوقت أتخذ أساليب الوقاية النظرية بالبعد عن فيضانه من

---

(١) محمد حماد : المرجع السابق ص ٤٥ .

هدم العمران ، فقام ببناء المدن فى صحراء الوجه القبلى التى ظلت شامخة بأثارها على مر العصور ، أما المدن التى أنشأها فى الوجه البحرى لأسباب سياسيه وعسكرية ، فقد غمرها الكثير من فيضان نهر النيل وتلاشت أثارها مع السنين (١) .

وتمضى القرون وآلاف السنين على ذلك لتحل المبانى الجديدة محل القديمة أو على الأقل تغطيها . وهذا الأمر لا يزال شاهدا حتى اليوم فى مدن مصر الحالية وقراها التى يقوم أكثرها على أطلال مساكن قديمة . ونرى على سبيل المثال تلك المنطقة الأثرية فى عين شمس أو مدينة أون التى سماها الإغريق هوليوبوليس . ومازالت بعض من الأراضى الزراعية حتى اليوم تخفى معالم المدن القديمة ، وإن كانت الحفريات كشفت عن آثارها بجوار عين شمس ، وأرض النعام ، ومصر الجديده ، ويمكن نرى أطلال مدينة هيراكومبوليس من نهاية عصر ما قبل الأسرات وهى بجوار الكوم الأحمر الحالية وكانت عاصمة الوجه القبلى القديمة .

واذا ما تأملنا الآثار المتبقية فى بعض الأماكن بين سكان مصر العليا ومصر السفلى نجد من أهم مظاهرها الجبانات المطمورة تحت الأرض . فقد اعتاد سكان مصر العليا منذ العصور الأولى دفن موتاهم فى جبانات بعيدة عن السكان . ويودعوا المقبرة كل ما يتصوره الانسان عن احتياج الميت من من مأكل ومشرب فى حياته الثانية ، وذلك لبعد المقبرة عن المساكن التى يعيش فيها أقاربهم الأحياء . والدفن فى الجبانات يدل على أن أصحابها كانوا يعيشون عيشة البدو الرحل الذين تقوم حياتهم على رعى الماشية والذين كانوا يتجولون على مقربة من الأرض المزروعة فى مصر العليا .

وبالنسبة لسكان مصر السفلى كان دفن موتاهم داخل القرية المجاورة لأماكن الزراعة . وفى هذا مظهر من مظاهر الاستقرار الاقتصادى والعقائدى .

---

(١) المرجع السابق : ص ٤١ ـ ٤٧ .

ومع ذلك ظلت مظاهر دفن الموتى فى داخل كردون القرى وعلى حددوها علامة من علامات التوارث الثقافى عبر الحضارات فى مصر ومازالت شواهدها قائمة فى حياتنا المعاصرة .

كانت هذه الحضارة البسيطة فى عهود ما قبل الأسرات ، ومع بداية الأسرة الأولى حوالى ٣٢٠٠ قبل الميلاد وتوحيد مصر العليا والسفلى ، ظهرت حضارة واحدة لشعب مصر ، واستجابت لهذه الوحدة نهضة الفنون والتخطيط العمرانى ، وهو ما أدى إلى تحول بعض المدن البسيطة إلى مدن النظام السياسى الملكى ، الذى ظهر فى مملكة الشمال ومملكة الجنوب ثم فى المملكة الموحدة تحت حكم " نعرمر " الذى أنشأ مدينة الحائط الأبيض عاصمة لملكه ، وأعقبه بعد ذلك الملوك فى بناء المدن الجديدة وتحصينها .هذا ويمكن أن نرى أثار هذه المدن وأسوارها وحصونها التى تؤكد سلطة الحاكم على الشعب ويؤكد " لويس ممفورد " على أن الهدف من هذه التحصينات إرهاب كل من يتطلع الى السيطرة على المدينة من السكان . حتى لو كانوا يعانون سوء التغذية أوالهوان فى فرص العمل . أو من يحاول منهم إثارة الاضطرابات ، نتيجة سوء التغذية وقهر العمل الذى يفوق طاقاتهم الانسانية ، وبالرغم إن الملك كان لا يضن بالصرف على إقامة المعابد والقصور التى تسيطر على باقى المدينة بحجمها الضخم وارتفاعها الشاهق وأسوارها القوية التى تضفى على مناصب الدولة ما يؤكد ثباتها واستقرارها ، وكانت المبانى تزين بمختلف الأشكال التى لها صفة القداسة ، وكذلك النصوص التى تثبت علاقة الملك الحاكم بالألهة العظام ، وكان المقصود من تلك الفنون الهادفة إثارة الرعب الذى يبعث على الاحترام .

وهكذا يكون هذا الرأى على جانب من الصواب فى أوقات معينة ، خاصة و أن تلك التحصينات كانت حماية للملك والشعب من المغيرين الأجانب خارج

المدينة ، وفى نفس الوقت كانت المعابد بمثابة الملجأ الأخير وهو بيت الاله الذى يحمى المدينة والعرش .

وهذا يفسر لنا أن الفكرة التى كانت وراء تحصينات المدن والمعابد المحصنة بأسوارها القوية وهى أهم مظاهر المدينة المصرية فى بداية نشأتها ، وهو عامل من عوامل الاحتياط لحماية الحكام وأهل البلاد كما هو فى مدينة منف أو مدينة طيبه ومعابدها المحصنة بأسوار قوية ، أو معبد الكرنك ، أو معبد الرمسيوم الذى كان به مسكن الملك نفسه ، كما أن بناء مقبره الملك التى يدفن فيها بعد موته كانت داخل أسوار المدينة المحصنة ، وحولها مقابر أفراد الشعب ، وهذا يشير إلى أن الملك والإله فى حماية أسوار المعبد ، ويقوى هذه الحماية وجود الشعب من حولة داخل اسوار المدينة (١) .

لاشك أن ما تركته آثار المدن المصرية فى حضارتها القديمة أو منذ عصر الأسرات كشفت عن المستوى التنظيمى للسكان داخل أسوار المدينة ، من ناحية المستوى الاقتصادى وبناء المخازن وصوامع حفظ الغلال والمواقد والمقابر ، ونستطيع فى ضوء الشكل التنظيمى للسكان أن نستدل تخطيط مدن الدولة القديمة ونظامها أو على الأقل الأحياء التى كانت قريبة من البلاط الملكى ، فمن الواضح أنها كانت دقيقة التخطيط ، وهو ما يبدو من موقع قصور النبلاء بجوار القصر الملكى وبيوت الكهنة والموظفين والعمال التى كانت تعكس المستوى الاجتماعى والإقتصادى لكل فئة منهم .

فبالنسبة لمدن العمال كشفت الحفريات عن تقسيمها الى شوارع ومجموعات سكنية كل مجموعة لها صوامع حبوبها ومستودعاتها .

---

(١) نفس المرجع السابق ، ص ٦٦ .

ومن أمثله هذه المدن : مدينة عمال أهرام " خنت كاوس " الذين بنوا الهرم الرابع . كما استعملها الكهنة ، الذين كانوا يعكفون على تنفيذ الأوقاف المرصودة للقيام بالشعائر الدينية ، كما هو الحال فى الأوقاف الخيرية فى حياتنا المعاصرة .

ومن هذه المدن أيضا، مدينة كاهون التى ترجع الى الأسرة الثانية عشرة ، وقد قسمت الى مجموعتين : الأولى البيوت الرئيسية لسكان المدينة الطبقة الممتازة من العمال والمجموعة الثانية فكانت تمثل بيوت الفقراء ، ويبلغ حجم هذه المدينة للمجموعتين حوالى ٢٠ فداناً .

وتشير الدلائل التاريخية أن هذه المدينة كانت تستوعب الرجال الذين يعملون فى بناء هرم سنوسرت الثانى ، الذين ظلوا يعيشون مع عائلاتهم فيها حتى موت الملك وزوجته ، وبعد ذلك انتقلوا إلى أماكن عمل أخرى ، مما أدى إلى اهمال منازلهم حتى تعرضت للهدم تحت ظروف عوامل التعرية (١) .

أما مدينة العمال بتل العمارنة فقد كانت سكنا لبناة مدينة " أخت آتون " التى بناها " أمنوفيس " الرابع " اخناتون " ١٣٧٧ ق.م ـ ١٣٤٥ ق.م كعاصمة جديدة نتيجة لتغير العقائد الدينية ، واتجاهاته إلى مذهب التوحيد والطبيعة والعالمية كفلسفة لثورته الدينية .

ويذكر " هيردوت " أن " خوفو " كان يستخدم مائه الف رجل فى بناء هرمه فى وقت واحد ، وكانت كل جماعة تعمل مدى ثلاثة أشهر . وأن بقايا المستعمرة القائمة حول هرم خفرع تشير إلى أنه كان يتعهدكم بالسكنى أى أنه بنى مدينة للعمال الذين قاموا ببناء هرمه .

وعلى الضفة الغربية للأقصر توجد مدينة عمالية تعرف باسم قرية دير المدينة جنوب طيبة وقد شيدت لسكنى العمال الذين يعملون فى بناء المقابر الملكية.

---

(١) نفس المرجع السابق ، ص ٦٩ ، ٧٢ .

وإذا ما تأملنا المدن السكنية لأفراد الشعب بالعمارنة نجدهامقسمة لأحياء مختلفة ، تجمعت حول القصور الملكية والمعابد ومبانى الدولة الرسمية ، وكانت بيوت العظماء منازل فسيحة ، لها ردهات وأماكن كافية لغرف النوم ، وبها دورات مياه وحمامات ، وحتى بيوت العمال والفقراء كانت لها ردهات أمامية ، وغرف نوم وسطح .

كان قصر الملك والمعبد يقفان جنباً الى جنب . أما منازل الصفوة من الأمراء والأعيان فكان موقعها على الشوارع الرئيسية ، وكان يحيط بها الحدائق الفسيحة " والأشجار ، وكان بهذه القصور أحواض المياة والممرات المغطاة بتكاعيب العنب (١) .

لقد تعددت مظاهر المدن الفرعونية وأشكالها ، وعلى سبيل المثال نجد مدينة " هابو " مدينة كاملة تماثل الى حد كبير " الرمسيوم " وهى من آثار عهد الرعامسة ، وقد أضاف اليها " رمسيس الثالث " اتساع الحوش الخارجي الذى يتضمن الأسرة الثامنة عشرة وصفوفا من المنازل للكهنة والخدمة الدينية . بالاضافة إلى البوابات المحصنة بالطوابق العليا للحراس .

لقد عرفت الحضارة الفرعونية المدن المخططة ، والمدن المسورة كمدينة أهرام خنت كاوس ، ومدينة اللاهون ، والمدن المفتوحة كمدينة " أخت أتون ، والمدن الدفاعية كمدينة سمنا المحصنة ، وحصن كلمة واحدة .

فى ضوء الاعتبارات السابقة يمكن القول أن التخطيط العمرانى المصرى كان له أثره على مدن الحضارات الأخرى (٢) .

وحينما ننظر إلى المدينة المصرية فى ضوء الاستعمار الإغريقى والرومانى نجد متغيرات التركيبة السكانية قد اصطبغت بسياسة المستعمر بتوطين

---

(١) نفس المرجع السابق ، ص ٨٣ .

(٢) نفس المرجع السابق ص ٩٥ .

القوى البشرية من مواطنيه فى المدن المصرية لدعم حكمه ، وعلى سبيل المثال لقد شهد عصر هذا الاستعمار مدن " الجاليات " التى يسكن فيها الأجانب ، ومن هذه المدن مدينة "نقراطيس " وهى ميناء يقع بين الاسكندرية ومنف ، وقد أسسها تجار الإغريق من قبل فى منتصف القرن السابع قبل الميلاد ، وكانت أول مدن مصر التى تمتعت بهذا النوع من الاستقلال الداخلى للأجانب ، وبالرغم من هذا الاستقلال فكان يبدو فيها ملامح العنصرية بلغة العصر ـ فقد كانت مدينة " نقراطيس " بكل تأكيد تشيع فيها الثقافة الرومانية ، وحرية اختيار حكامها ، كما كانت الإسكندرية أيضا مدينة مستقلة يعيش فيها عدد كبير من اليهود والإغريق منذ أنشأها الاسكندر الأكبر ، وفى الفيوم قام ملوك البطالمة بتوطين عدد كبير من جنود الإغريق وقد استطاع هؤلاء إنشاء مدينة أرسنوى Arsinoe بالقرب منها ، وكان أغلب القائمين على شئونها من الإغريق ، أما مدينة " بطوليمايس Ptalemais الواقعة فى صعيد مصر ، فكانت تعد ثالث مدينة اغريقية تحمل اسم منشئها " بطليموس الأول " وموقعها الأن مدينة المنشاة محافظة سوهاج ، وكان لها مجلس محلى وإدارة محفوظات ، ثم مدينة أنتيونى Antinoe التى أسسها الرومانى " هاديان " حوالى ١٣٢ بعد الميلاد ، ومكانها الآن قرية الشيخ عباده بمحافظة المنيا ، وكان كل سكانها من الاغريق ، ومن ثم كان الطابع المعمارى لها إغريقيا ، كما كان يحكمها القانون الإغريقى ، أما بالنسبة للشكل الإدارى للمدينة ، فقد اتخذت لنفسها مجالس للأعيان جعلها شبه مستقلة عن النظام الإدارى العام ، مثل مدينة اكسرينكوس oxyrihynkhos وموقعها الأن البهنسا بمحافظة المنيا ومدينة وهيراكليوبوليس Herakleopolis وموقعها الحالى إهناسيا بمحافظة بنى سويف .

وحينما نتأمل وظائف مجلس الأعيان ، نجد وصف " بترى " لاختصاصات هذا المجلس وعلاقته بالمدينة ، فكان يختص بتعين الموظفين المحليين للمدينة الموارد الحفلات والنظر فى جميع مطالب الحكومة المركزية ، وإقرار المسائل

المتعلقة بالتجارة المحلية ، وكان المجلس المدينة يمثل فى كافة العلاقات القائمة بينها وبين الحكومة المركزية .

ومن الطريف فى تلك الفترة ما يتصل بالسلوك السياسى لمناقشات المجلس لبعض قرارته ، التى كانت تطول وتتشعب دون حسم للموضوع ، وقد تحتدم فيما بينهم المناقشات إلى حد وصولها إلى العنف اللفظى والبدنى ، والواقع أن هذه الطرافة لا تخلو من التشابه مع الواقع الحالى لبعض المجالس الشعبية فى الدول المعاصرة .

أما عن نظام حكم المدينة ، فقد كان فى كل مدينة حاكما مهمته تفسير القانون، وتنظيم أمور المدينة ، وكان له زى رسمى ، وكان موضع احترام المجتمع، وكان يليه فى الأهمية الكاتب أو مسجل الوثائق ، الرسمية ، ثم قاضى القضاه وقائد عسس الليل ، وفى اطار التنظيم كان هناك ضوابط لتنظيم قوى العمل، فكان يحرم على الصناع المهرة تغيير حرفهم حتى لا يتدخلوا فى الشئون السياسية للمدينة ، وفى نفس الوقت اتخذ هذا الاجراء لحماية السلطة السياسية التى يمارسها موظفوا المدينة (١) .

* المدينة الأغريقية :

لا جدال أن طبيعة البيئة الفيزيقية ، لأى مكان تفرض على سكانها التكيف مع ظروفه ، وفى نفس الوقت ينعكس هذا التكيف على التخطيط العمرانى الذى ينظم للسكان أساليب حياتهم .

---

(١) بترى و . م فلندرز : الحياة الاجتماعية فى مصر القديمة ترجمة حسن محمد جوهر . وعبد المنعم عبد الحليم . الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة ١٩٧٥ . ص ١٠٨ / ١٠٩ نفس المرجع السابق ٢٩٥.

* بترى و . م فلندرز : عالم أثرى ولد عام ١٨٥٣م بانجلترا جاء إلى مصر ١٨٨٠ وبدأ فيها سلسلة من الحفريات ، وعين أستاذا لعلم الأثار العربية بجامعة لندن عام ١٨٩٣م .

لقد كشفت الشواهد الأثرية فى تخطيط المدن اليونانية " المدينة ـ الدولـة " .
عن العلاقة بين الحياة المعيشية للسكان ، وموقع المدن التى كانت تعلو التلال التى فرضتها حياة الحروب بين البلاد وبعضها البعض ، ومن ثم يمكن القول أن موقع المدن اليونانية ارتبط بأهداف دفاعية . ولاشك أن هذه الأهداف انعكست على توجيه تخطيط المدن اليونانية القديمة التى لم ترتكز علـى أسس ثابتـة . بل كان التخطيط حرا حسب طبيعة كل موقـع . ممـا فرض على المدينة اليونانيـة فـى تخطيطهـا أن تكون على الميدان الرئيسى Agora من وسط المدينة الذى يعد فـى نفس الوقت مركز للنشاط الاجتماعي والاقتصادى والسياسى للسكان ، ومن ان يجمـع السكان في المناسبات المختلفة . لقد أدى النشاط الرياضى والاجتمـاعى والترويحى لنسكان الاهتمام ببناء المؤسسات الملائمـة لهـا كالمسرح المكشوف الكبير Theatre الـذى يستعمل لأغراض التمثيل ، وصالـة الموسـيقى Odeum المغطـاه ، والملعب الريـاضى Gymasium وحلبه سباق العدو Stadium وملعـب سـباق العجـلات Hippoirome وكلها من الأماكن العامـة التـى تـم تخصيصـهـا للمواطنيـن لمزاولـة انشطتهم الرياضية والترويحية التى اهتم بها الاغريق إلى حد كبير .

ان طبيعة الموقع فى البلاد الإغريقية التى بنيت غالباً على التلال لأغـراض دفاعية أدى الى تقسيم المدينة الى قسمين .

١ ـ القسم الأول أعلى التل ويعـرف بـالأكروبول ocroplis أى المدينـة العليـا التـى تعتبر كحصـن للتـل ، وقـد بنـى حولهـا حـائط دفـاعى ضـخم لحمايـة المعـابد الرئيسية، ودار الخزانة وغيرها مـن المبـانى الهامـة الموجـودة داخـل نطـاق السـور بالاضافة إلى المبانى العامة .

" والأكروبول " فى حد ذاته عبارة عن قلعة منيعة بل يمكن القول أنه بمثابة حرم مقدس للآلهة .

٢ ـ القسم الثانى بنى أسفل القسم الأول متدرج على منحدرات التلال التى استفاد الإغريق من تدرجها فى اختيار المواقع المناسبة لأنشاء المسارح والمبانى العامة .

وفى ضوء ظروف السكان ومتغيرات الكثافة السكانية ، انتشرت المستعمرات السكنية التى اتسعت لتهجير حوالى عشرة آلاف مواطن هلينى لكل مستعمرة ، ولذلك ، فإن عدد السكان فى المدن الإغريقية لم يزد عن عشرة آلاف ساكن باستثناء أثينا التى يصل عدد سكانها إلى أربعين الف مواطن فى القرن الخامس والرابع قبل الميلادى .(١)

إن اهم ما يمكن أن يقال عن حالة الإسكان فى أثينا هو التقسيم الأيكولوجى للأحياء ، فقد كانت أحياء الأغنياء والفقراء متجاوره ، إلى حد يكاد يتعذر التمييز بينهما ، فيما عدا الحجم ومستوى الحياة لهذه الأحياء .

وفى تصوير " ممفورد " لهذه الأحياء يذهب إلى أنها ليست أكثر من الشوارع الضيقة الملتوية القذرة التى لا تكفى لمرور رجل ومعه دابته ، ومن ثم على الفرد أن يعرف الحي الذى يعيش فيه لكى يستطيع الاهتداء إلى مسكنه ، ومع ذلك لم تحظ أثينا الا بالقدر القليل من التخطيط الحضرى .

وعلى عكس " ممفورد " يذهب " حماد " إلى وصف المدينة الاغريقية خاصة أثينا وأولينتوس وديلوس دبيرينى بأنها كانت مخططة وكانت مساكنها تبدو فى دور واحد على شكل القصور ، وقد عنى الإغريق بتصميم المنازل فى بساطه تامة فى اتساق مع الغرف ، وترتكز مبادئ هذا التخطيط من اسلوب التخطيط المصرى الذى اهتم بتوفير الاتجاهات الصحية للمنزل من حيث الشمس والهواء (٢) .

---

(١) محمد حماد : المرجع السابق ص ١١٤ ـ ١١٢

لويس ممفورد : المدينة على مر العصور أصلها وتطورها ومستقبلها ، مكتبة الانجلو ، القاهرة، ص ٢٩٤.

(٢) محمد حماد . نفس المرجع السابق . ص ١١٦ .

* مدن الحضارة الرومانية :

اذا ما انتقلنا الى مدن الحضارة الرومانية نجدها تكتسب مزيدا من النمو والتفرد والاستقلال . والواقع أن طابع المدينة الذى تشكل خلال فترات حكم القياصره الرومانيين قد ظل مسيطرا على معظم المجتمعات الأوروبية حتى بداية القرن التاسع عشر الميلادى ، فقد بلغ عدد سكان روما فى العصر البطولى فى القرن الثانى الميلادى نحو المليون نسمة .

لقد أدى قوى الامبراطورية التى عمت سيطرتها بالفتوحات فى توسيع نشاطها التجارى مما اغدق عليها الثروات ، وتوظيف هذه الثروات فى إدارة الدولة، وازدهار أعمال العمران ، ومستوى التعليم ، ورعاية الفقراء بتوزيع الطعام عليهم بالمجان .(١)

وحينما نسترجع تاريخ روما نجد أنها انشئت طبقا لرواية " شيشرون " عام ٧٥١ ق .م ولم يكن لروما بالنسبة لتخطيطها العام نظام خاص كالمدن الرومانية الأخرى ، الا أن شهرتها جاءت من تأسيسها على سبعة تلال ، فقد كانت مدينة اكروبول ، وكانت مساكنها مكدسة بين الشوارع التى تسكنها قبائل مختلفة ، وفى عهد نيرون أحرق المدينة ثم أعاد تخطيطها (٢) .

لقد استطاع الرومان ان يجعلوا من مدينتهم روما أكبر مدينة عرفها العالم قبل ظهور لندن فى القرن التاسع عشر ، باستثناء اسطمبول التى نشأت بعد روما ببضعة قرون ، وتسنى للرومان بفضل قدرتهم على الحرب والانتصار والتنظيم ان حكموا امبراطورية كاملة ، وينشروا الزراعة الناجحة فى الأراضى الايطالية لمتاخمة لهم مباشرة (٣) .

---

(١) Popenoe. op. cit. p. 507

٢) محمد حماد . المرجع السابق ص ١٤١ .

(٣) Moller, Herbret ., Population movements in European History . Macmillan co. New. Your. 1964 . P77 .

ومما يجدر ملاحظته أن بعض المدن التى حكمها الرومان مثل باريس وفينا ولندن كانت تتبع خطة حضرية أكثر تطورا من تلك التى عرفتها روما .

الا أن هذا الحكم استطاع أن يصبغ هذه المدن بصفته العسكرية التى يغلب عليها الطابع الرومانى ، لكنها استطاعت برغم ذلك النهوض بمقوماتها الحضرية بشكل اسرع إذا ما قورنت بروما التى صدرت للعالم ثقافتها فى مجالات القانون والحكم والهندسة ، واعتمدت على مستعمراتها للحصول على السلع الأساسية ، على أن هذه الظروف لم تستمر بعد ذلك طويلا ، إذ سرعان ما ظهرت علامات الانهيار واضحة على الامبراطورية الرومانية بسبب الغارات العديدة التى شنها ألفانداليون والبرابرة حتى تقطعت فى النهاية أوصالها . وخلال عصور الظلام لم تكن روما بأكثر من قرية متواضعة تعيش على ذكريات مدينة عظيمة .(١)

ومن المحقق أن روما لم يصادفها الانهيار فجأة ، فقد استمر الانهيار تدريجيا مع الغارات البربرية التى بدأت فى الواقع فى القرن الثالث ، وظلت مستمرة بشكل منقطع لمدة تزيد على ألف سنة ، وكشأن روما كانت بالتبعية المدن التى اخضعتها لحكمها ، فقد بدأت فى الانكماش السكانى والاقتصادى ، نتيجة تعرضها للغارات العدائية للامبراطورية الرومانية ، وكان كل ذلك يحمل فى طياته نهاية العمران الحضرى الرومانى (٢) .

* مصر بين حضارتين :

أصبح المعروف فى مسيرة التاريخ الحضرى أن موجات الغزو والفتوحات كانت تنقل معها صورا متعدده من التفاعل الثقافى ، كان بعضها يقود إلى نمو

---

(١) السيد الحسينى : المدينة دراسة فى علم الاجتماع الحضرى ، القاهرة ، (١٩٨٠) ص ٥ .

(٢) ممفورد : المرجع السابق الجزء الثانى ص ٤٤٤ .

واتساع الحضارة ، وتزويدها بعناصرها إبداعية جديدة بينما كان البعض الأخر يحمل معه هدم جوانب مهمة من الحضارة المحلية .

ولعل من هذه الشواهد فى سيناريو الحضارة المصرية احتلال الاسكندر أرض مصر ، واتخذ من مدينة الاسكندرية عاصمة لامبراطوريته ، حتى أصبحت هذه المدينة فيما بعد من أكبر موانى الامبراطورية مثل أثينا وكورنتا وسيراكوتر (١) ومن أجل دعم حكم الاسكندر فى مصر ، توج نفسه فرعونا لها وبعد أن زار معبد أمون بسيوه اعتبره كهنة المعبد إبنا لامون ، وتوجوه بقرنى الاله أمون وهو ما أضفى عليه لقب ذى القرنيين . وفى المقابل أصفى على الكهنة امتيازات خاصة تقديرا لأدوارهم فى ترشيح عبادته الجديدة التى كان يحاول من خلالها دعم سياسة الغزو الثقافى الدينى الجديد على المجتمع المصرى الذى حاول أن يفرضها على المجتمع المصرى فى شكل ثالوت مقدس . صحيح أن الديانة الجديدة فى بادئ الأمر فازت بعدد من الاتباع والانصار ، ولكن نجاحها الحقيقى يمكن قياسه بما أفلحت فى تحقيقه .

والواقع أن المصريين كانوا يعبدون آلهة مصرية وإن كانت فى ثوب إغريقى .

وفى نفس الوقت اعتنق الإغريق ديانه الثالوت المقدس ، مصرى ، رومانى، إغريقى التى جاءت فى شكل إله إغريقى يجسد ديانة الاسكندر الأكبر .

(١) محمد حماد : المرجع السابق .

ومع ذلك ظلت العقيدة المصرية القديمة كامنة فى نفوس المجتمع المصرى، تعكس وجودها فى طقوسهم الدينية الخاصه ، وفى مضمون دعواتهم فى الخلاص مع مغتصبى أراضيهم (١) .

أما ما يقال عن الغزو الثقافى لمصر وانعكاساته على المصريين من ناحية وعلى الغزاه من ناحية أخرى ، نجد أن الإغريق والرومان فرضوا دياناتهم على المصريين بالقوة ، واتخذوا أساليب الاضطهاد لفرض هذه الديانات ، وهو ما يبدو من مضمون إحدى الوثائق المصرية القديمة التى تعبر عن صرخة أحد المصريين عاش فى القرن الثالث ق . م يصف إستبداد الاغريق والرومان الذين يحطمون ما هو كل مصرى ، وما هو مقدس ، يقول فيها : سيحين الوقت الذى يبدو فيه أن مصر أكرمت إلهتها طيال هذا الزمن بدافع من ورعها ، سيترك الأله هذه الأرض ويعودون إلى سمواتها ، لأن الغرباء ، يملاون هذه البلاد وهذه الأرض .

.. أيا مصر .. ! لن يبقى من كل صلاحك سواء أحجار صماء ، لن يؤمن أبناؤك ولن تبقى غير الفاظ منحوته فى الصخر كى تحكى قصة أعمالك الصالحة به .

الواضح من مضمون هذه العبارات ارتباط المصرى بمصريته ، وبعقيدته الدينية ورموزها ، وموقفه الرافض من الاستعمار الإغريقى والرومانى .

وحينما نتأمل نقطة أخرى ـ قد تكون فيها طرفة إلا أنها تعكس تأثير بعض مظاهر الثقافة على الغزاة وهذه النقطة تتمثل فى فقراء المدينة من المتسولين فى طرقات مدينة روما فكانوا يطلبون الصدقة من الناس إكراما للآله " إيزيس " ، كما كان يقيم بعض القادرين الاحتفالات الدينية للآلة المصرية فى ضواحى روما ، ولقد

---

(١) الموسوعة المصرية : تاريخ مصر القديمة وآثارها العصر اليونانى والرومانى . الهيئة المصرية العامة للكتاب ، المجلد الأول . ٤٤٣ ـ ٤٤٤ .

أدت هذه المظاهر أن يصدر الامبراطور " أغسطس " قوانين تحرم الولاء إلى الديانة المصرية القديمة .

وفى نفس الوقت التى ايتخذ فيه حكام روما موقفا معاديا من الديانة المسيحية التى ظهرت فى مصر ، إلا أن الديانة المسيحية انطلق انتشارها من مصر إلى روما .

والواقع ان انتشار المسيحية فى العالم لم يتحقق إلا بعد ان أكتسبت الطابع المصرى ، حتى يمكننا القول ان المسيحية التى نعرفها اليوم فى الواقع هى المسيحية التى تطورت فى مصر (١) .

ومع كل ذلك فالمدينة فى تطورها التاريخ كانت تحمل ثقافات متفاعلة بين القبول والرفض والهيمنة والانسحاب . فالواضح من الغزو الفكرى الإغريقى على المجتمع المصرى ، أنه كان يهئ المناخ لمركز ثقافى يهيمن على محيط المجتمع . وأول ما يقال فى ذلك إنشاء مركز ثقافى إغريقى بقرار من بطليموس فيلاديلفوس٢٨٥ ق . م ـ ٢٠٧ ق . م . الذى اتخذ من الإسكندرية مقراً لحكمه بعد وفاة الإسكندر الأكبر ، وقد عمل بكل نشاط على نشر الثقافة اليونانية ، وقد أدى ذلك إلى أغلاق مدرسة أرسطو باليونان ونقل مكتبتها الفلسفية إلى الإسكندرية ، واستدعى كثيراً من العلماء ليقوموا ببحوث علمية فى عاصمة ملكه ، منهم البطالسة الذين أسسوا جامعة الإسكندرية ، ثم قام بتطوير مدرستى أفلاطون وأرسطوا وشجع المتخصصين بدراسة الموضوعات العديدة والجديدة التى تفرعت من الدراسات الشاملة للعلماء السابقين ، وقد تم تجهيز الجامعة الجديدة بمكتبة ضخمة، وصالات للمحاضرات ، وحجرات للتشريح ، وحديقة للحيوانات والنباتات ، ومرصداً للبحوث

---

(١) تشارلز وورث : الامبراطورية الرومانية ترجمة رامز عبده جرجس . دار الفكر العربى بالقاهرة ١٩٦١ هى ٦٦ ـ ٦٧ .

واتساع الحضارة ، وتزويدها بعناصرها إبداعية جديدة بينما كان البعض الأخر يحمل معه هدم جوانب مهمة من الحضارة المحلية .

ولعل من هذه الشواهد فى سيناريو الحضارة المصرية احتلال الاسكندر أرض مصر واتخذ من مدينة الاسكندرية عاصمة لامبراطوريته حتى أصبحت هذه المدينة فيما بعد من أكبر موانى الامبراطورية مثل أثينا وكونثا وسيراكوتون (١) ومن أجل دعم حكم الاسكندر فى مصر ، توج نفسه فرعونا لها ، وبعد أن زار معبد، أمون بسيوه اعتبره كهنة المعبد ابنا لامون ، توجوه بقرنى الاله أمون وهو ما أضفى عليه لقب ذى القرنيين . وفى المقابل أحذ على الكهنة امتيازات خاصة تقديراً لأدوارهم فى ترشيح عباداه الجديدة ، التى كان يحاول من خلالها دعم سياسة الغزو الثقافى الدينى الجديد على المجتمع المصرى الذى حاول أن يفرضها عليه فى شكل ثالوت مقدس . صحح أن الديانة الجديدة فى بادئ الأمر فازت بعدد من الاتباع والانصار ، ولكن نجاحها الحقيقى يمكن قياسه بما أفلحت فى تحقيقه . الواقع أن المصريين كانوا يعبدون آلهة مصرية وإن كانت فى ثوب إغريقى .وفى نفس الوقت اعتنق الإغريق ديانه الثالوث المقدس ، مصرى ، رومانى ، إغريقى التى جاءت فى شكل إله إغريقى يحقق ديانة الإسكندر الوثنية .

وحينما نظر إلى مركز الحضارة فى أمبراطورية " الإسكندر الأكبر " والبطالسة ، نجد أن الإسكندرية أصبحت قطب هذه الحضارة ، ووريثة أثينا وعين شمس الثقافيتين فى آن واحد (٢) . ومن هذه المدينة أنتقى علماء الفكر العربى الإسلامى ما يتلاءم من ثقافتها مع ما يتمشى الشريعة الإسلامية .

---

(١) محمد حماد : المرجع السابق .

(٢) مختار القاضى : أثر المدينة الإسلامية فى الحضارة الغربية . المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، لجنة التعريف بالإسلام . القاهرة ، ١٩٧٢ ، ص ٥٠ ـ ٥١ .

ولا يمكن للباحث الجاد فى مجال الفلسفة وتاريخ الفكر أن يتخطى فى دراسته دور الإسكندرية فى تشكيل الفلسفة الإسلامية ، خاصة وأن لدينا شواهد منها تبدو فى فلسفة الكندى والفارابى وابن سينا وغيرهم ، ومع كل ذلك فمازال فكر علماء الإسكندرية ممتداً حتى يومنا هذا فى الموروث الشعبى والأكاديمى ، الذى يمتد فى أصوله إلى هذه المدرسة (١) .

---

(١) يوسف زيدان : الأثر السكندرى فى الحضارة العربية الإسلامية ، مقال منشور فى جريدة الأهرام ١٠/ ٢ / ١٩٩٠ .

المبحث الثالث

مدن العصور الوسطى

ما يمكن أن يقال عن الاتصال والتفاعلات بين مدن الحضارات القديمة ، يمكن أن يقال أيضاً عن حضارة العصور الوسطى ومدنها ، مع الافتراض الزمنى لها بنهاية القرن السادس عشر الميلادى . وإذا كان محور المدن القديمة هى المعابد والحصون وبيوت الحكام وبيوت الشعب ، فإن الطابع الغالب على هذه المدن أنها مدن دينية تعنى مقر الحكم الدينى، وإذا ما تأملنا مدن العصور الوسطى حسب تقسيمها الزمنى فى العقيدة المسيحية والاسلامية نجد أن لكل فترة منها طابعها العمرانى الذى يتمشى مع عقيدتها .

فبالنسبة للمسيحية ، نجد أن بناء الأديرة أسهم فى تكوين الشخصية الدينية للمدينة وحقق سيطرة الكنيسة على حياة المدن ، ولكن هذه السيطرة لم تكن متوازية مع الأهداف المسيحية ، خاصة بعد انهيار المدن الرومانية وسقوط ديانتها الوثنية، وهو العامل الذى ضاعف مسئولية الكنيسة بين المسئولية الدينية والمسئولية الدنيوية. لذلك واجه رجال الدين تحمل مسئوليات معقدة فى مواجهة السيطرة على المجتمع ، مما أدى إلى توجه جهودهم إلى الشئون الدنيوية ، ولعل ما كان يزيد الأمر تعقيداً هو إنشغالهم بالمنهج التوفيقى بين العقيدة المسيحية من ناحية ، والمعتقدات والأنظمة الوثنية من ناحية أخرى ، بجانب محاولة السيطرة على القوى التى كانت تهدد دور الأساقفة .

ومن أجل تحقيق هذا التوافق وجد رجال الكنيسة أنفسهم فى دائرة العمل السياسى وأصبحوا مضطرين إلى مزاولة السلطه السياسية بجانب السلطة الدينية ، والواقع أن الظروف السياسية فرضت على قيادة الدولة أن يتولىألأساقفة مهام القيادة العسكرية وحكم المدن ، وبهذا أصبحوا يجمعون بين الكاهن والحاكم فى النمط الرومانى القديم . لقد كانت الكنيسة تمثل الحماية القومية العامة الوحيدة التى بقيت

فى غرب أوربا . وكان الانتظام فى سلك هذه الجماعة اختيارياً من الوجهة النظرية وإجبارياً من الوجهة العملية ، فإن الحرمان من غفرانها كان عقاباً ، حتى أن الملوك أنفسهم كانوا يخشون التهديد بالحرمان من غفران الكنيسة ، ولقد كان وجودالكنيسة بادياً للعيان فى كل مجتمع ، من أصغر القرى بكنيستها المحلية إلى أعظم المدن بكاتدرائيتها وكنائسها العديدة وأديرتها وأبراشياتها .

لقد ارتبط التقسيم السياسى للمدينة بمناطق الأبرشيه Parish والاشقفية Diocese فكانت كل منطقة دار مشتركة للعبادة ، ورئيس روحى معين يمثل البابا، وطبقاً لما يقوله " ج. ج. كولتون G. G. Coulton " كان فى أنجلترا كنيسة أبرشيه لكل مائة أسرة ، ولكن فى كثير من القرى والمدن كانت توجد كنيسة لعدد من الأسر يقل كثيراً عن ذلك ، وكانت الضريبة التى تجبى فى كل مكان هى ضريبة العشور أى عشر الإيراد السنوى . فى الوقت الذى كانت فيه الكنيسة تعنى بروح الفرد فى ظل سيطرتها ، كان مجتمع العصور الوسطى يقوم على أساس الطبقات والمراتب في نظام محلى محدود يتمثل فى النظام الاقطاعى أو نظام البلديات ، وقد كان الفرد الحر من أى ارتباط فى خلال العصور الوسطى محكوماً عليه إما بالحرمان من غفران الكنيسة ، وإما بالنفى ، وكان كلاهما يقرب هذا الإنسان الحر من الموت ،فلكى يكون للفرد وجودا كان عليه أن ينتسب إلى جماعة ، أو بلاط أو ضيعة أو طائفة ، ولم يكن هناك سبيل إلى الأمان إلا عن طريق حماية الجماعة ، ولا وجود للحرية التى لم تكن تعترف بالالتزامات المستديمة لحياة جماعية ، فكان الفرد يعيش ويموت طبقاً للنهج الخاص الذى تعرف به طبقته ، والجماعة التى ينتمى إليها .

وباستثناء الكنيسة ، كانت الطوائف الحرفية هى أوسع ممثلى الحياة الجماعية إنتشاراً ، وهكذا جمعت مدينة العصور الوسطى بين القاعدتين الأساسيتين لزمالة الحرفية ، وهما العمل المشترك ، والعقيدة المشتركة (١) .

---

(١) لويس ممفورد : المرجع السابق ص ٤٤٩ ـ ٤٨٩ .

وإذا كانت الطائفة الحرفية قد ظهرت في الواقع مع ظهور مدينة العصور الوسطى ، فإنها قد سقطت بسقوطها بحكم ما بينها من صلة وثيقة ، وذلك لأن الطوائف الحرفية لم تكن إلا عبارة عن المظهر الاقتصادى للمدينة (١) .

وإذا ما تأملنا تباين أصول مدن العصور الوسطى ، فيمكن وصفها على نحو بالغ الدقة بأنها نسق اجتماعي هدفه الأساسي الحياة المعيشية طبقاً للمنهج المسيحى ، ويفترض فى هذا المنهج النموذج المثالى للمدينة المسيحية ، ولكن الواقع كان غير ذلك فقد كانت المدن المسيحية فى هذه الفترة بمثابة مراكز صنع قرارات الصراع والحروب وهو ما يتناقض مع تعاليم المسيح ، ومع ذلك ظلت الكنيسة تؤدى خدماتها الاجتماعية فى المجالات الإنسانية والتنمية الاجتماعية ، وكان من أهم هذه النتائج ، بناء المستشفيات والملاجئ . ولم تنفصل هذه الخدمات فى أى مرحلة عن المجتمع ، وذلك أن المنشآت اللازمة لهذه الخدمات أنشئت بفضل الإعانات الاختيارية والإجبارية التى أخذت من المجتمع بأسره . فى ضوء احتمالات ظروف إنسانية كان يعانى منها الفقراء ، استدعت فرض الاعانات باسم الدين ، وفى وصف تناوله " هرابانوس Harbanus " فى القرن التاسع الميلادى عن مدينة العصور الوسطى بأنها اتحاد بين الكنيسة والمجتمع من أجل تحقيق الحياة المقدسة ، وحتى عندما فشل هذا الاتحاد فشلاً ذريعاً فى تحقيق المثل الأعلى للمسيحية فإنه مع ذلك أوجد كلاً من المؤسسات والمبانى التى كان الغرض منها موازرة ذلك المثل (٢) .

وبجانب ما أسهمت به الأديرة فى نمو المدن فى العصور الوسطى ، نجد حوليات الأنجلو سكسون Anglo - Saxson Chronicle تشير إلى عامل آخر فى تنمية هذه المدن ، وهو بناء الحصون والأسوار حول مراكز الاستقرار وكانت

---

(١) نفس المرجع السابق ، ص ٤٩٥.

(٢) نفس المرجع السابق ، ص ٤٨٧ .

عملية هذا البناء أحد الأنشطة الرئيسية لجيش الملك ، وفى هذا أيضاً دليل آخر على الدور الذى قام به الملوك فى بناء المدن بفضل مقدرتهم على حشد المزيد من الأيدى العاملة ، بل أن نفس الحوليات تحدثنا بأنه فى وقت أقدم عهداً يرجع إلى سنة ٨٨٥م. كانت مدينة روشستر Rochester محوطة بالأسوار ، وبأن مواطنيها نجحوا فى الدفاع عنها ، على حين أنه بعد ذلك بسنة تولى الملك الفريد بنفسه تحصين مدينة لندن ، وقد أصبح أداء الخدمة العكسرية واجباً على كل مواطن ، بل لعله كان يعنى حشد جيش دائم ، بالاضافة إلى مهمته فى صيانة أسوار المدن (١) .

* المدن فى الحضارة الإسلامية :

نستطيع القول أن الفتح الإسلامى أضاف إلىرصيد مدن العصور الوسطى مدناً جديدة ، وفى نفس الوقت أضاف إلى المدن القديمة مزيداً من النمو والازدهار ، والدليل على ذلك أن المدن الغربية كانت تتضاءل من أجل البقاء خلال العصور الوسطى .

لقد اختلفت الأهداف التى أنشئت من أجلها المدن الإسلامية ، فمنها ما بدأ على هيئة معسكرات حزبية ، ثم تطور إلى مدينة كالبصرة والكوفة والفسطاط والقيروان ، ومنها ما أتخذ لأغراض إدارية ، ومنها ما أنشئ كعواصم أو حواضر للدولة المتتابعة كبغداد والقاهرة وفاس وغيرها ، ومنها ما كان فى بدايته مناطق ارتكاز تحصينية للدفاع ، وبمرور الزمن غلب عليها الطابع المدنى وتحولت إلى مدن كالرباط والمونستير ومجريط (مدريد) وغيرها ، ومنها ما نشأ ونما مرتبطاً بعوامل دينية كالنجف وكربلاء والكاظمية وغيرها (٢) .

---

(١) نفس المرجع السابق ، ص ٤٥٥ .

(٢) محمد عبد الستار عثمان ، المدينة الإسلامية ، عالم المعرفة ، العدد ١٢٨ ، الكويت ١٩٨٨ ، ص ٩٥.

لقد كانت هذه المدن فى الشام والعراق ومصر وإيران تلعب دوراً أساسياً ثقافياً ودينياً واقتصادياً فى نفس الفترة ، الأمر الذى يؤكد على أن الإسلام يعد بحق دين المدن (١) . وقد يكون من المفيد هنا أن نقارن بين المدينة الإسلامية والمدينة الأوربية فى العصور الوسطى ، فالقضية الأساسية تتلخص فى الدرجة الأولى بوجود خصائص مشتركة تجمع بين المدن الإسلامية التى ظهرت فى منطقة الشرق الأوسط ثم تأثير هذه الخصائص على الحياة الحضرية الحديثة ، ومع ذلك فهناك من المجالات التى تقارن بين المدن الإسلامية فى الشرق والمدن الغربية فى العصور الوسطى ، فلقد أوضح " ماكس فيبر " أن مجتمع المدينة بمعناه الحقيقى لم يتحقق إلا فى الدول الغربية ، وأن ظهور المدن فى دول الشرق كسوريا ولبنان والعراق ليست إلا شكل من أشكال الاستثناء ، ويضيف " فيبر " أن المدن الأوربية فى العصور الوسطى نشأت حربية حيث القلاع والأسواق والضبط الحكومى . وعلى عكس تصورات فيبر بالنسبة لمدن دول الشرق الأوسط ، يذهب كوستللو Costello إلى القول بأن المدن الإسلامية نشأت بنفس الظاهرة الحضارية ، فالقلاع تشكل مركز القوة العسكرية والدفاع وقد بقى آثارها إلى اليوم (٢) . ومن نماذج هذه المدن ننتقى منها مدينة بغداد ومدينة القاهرة .

فبالنسبة لمدينة بغداد التى أنشأها " أبو جعفر المنصور " بعد عشر سنوات من توليه الحكم ـ أى حوالى ١٤٦ هـ ـ ٧٦٥ م أطلق عليها المدينة " المدورة " وقد اشترك فى بنائها مائة ألف عامل واشترك فى تصميمها خمسة من المهندسين العرب وأربعة من الملاحظين أحدهم " أبو حنيفة " صاحب أقدم مذهب من المذاهب الإسلامية الأربعة ، وجاء التصميم الهندسى للمدينة فى شكل دائرى ، به أربعة أبواب بأسوار عالية يحيطها خندق عرضه ستة أمتار ، أما قلب المدينة فكان

---

(١) جمال حمدان : جغرافية المدن ، عالم الكتب ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ص ٤٠ .

(٢) Costello ., Op. Cit., P. 11 .

يتوسطه قصر الخليفة المنصور وكان يعرف باسم قصر الذهب ، وتصميم القصر يشبه إلى حد كبير تصميم دار إمارة أبى مسلم بخراسان .

أما بالنسبة لمصر ، فتعد مدينة الفسطاط هي أول مدينة أنشئت فى صدر الإسلام ، فقد خططها " عمرو بن العاص " بجوار حصن نابليون القديم بمصر العتيقة ، وقد امتدت مدينة الفسطاط فى القرن الثانى الهجرى وأنشئت كذلك مدينة العسكر فى عهد " أحمد بن طولون " ، كما أنشئت مدينة القطائع . وهذه المدن الثلاث أنشأها العرب فى مصر قبل إنشاء القاهرة بعد أن تخربت مدينة الفسطاط عام ٥٦٤ هـ أمام العسكر والقطائع .

وفى العصر الفاطمى خطط " جوهر الصقلى " لمدينة القاهرة ، وقد شرع في بناء سور دفاعى حول المدينة ، كما بنى الأبراج فى هذا السور والبوابات كاحتياطات لتحصين المدينة وأذن للقبائل أن تختط كل قبيلة مكانا لها . وقد لوحظ أن الحارات التي عاشت فيها القبائل كانت قريبة من الأسوار ، ومن أمثلة هذه الحارات المعروفة الآن حارة الروم ، وحارة زويلة ، وحارة البزقية . وفي نفس الوقت شهدت المدينة تخطيطاً منظماً للميادين ومساحات واسعة أمام القصور ، فيما بينها وأمام مبانيها الرئيسية ومساجدها .

وكان أمام القصر الكبير وفيما بين القصرين الكبير والصغير من الدولة الفاطيمة ميدان فسيح لعروض الجيش ، وكان يتسع لعشرة آلاف من الجنود ، وعلى الجانب الغربى من هذا الميدان أقيم القصر الصغير الغربى ، وعلى جزء من أرضه الآن منشأت " المنصور قلاوون " فعرف هذا الميدان باسمه ، ثم الشارع فيما بعد باسم بين القصرين ، وكان يوجد بجوار القصر الغربي ميدان آخر موضعه الآن المنطقة المعروفة بالخرنفش ، وبجواره البستان الكافورى المطل على الخليج ، وفى دولة السلطان صلاح الدين ، ثم دولة المماليك امتد العمران وخاصة فى دولة "الناصر محمد بن قلاوون " حيث زادت القاهرة بمقدار النصف ، وصارت القاهرة

والفسطاط مدينة واحدة تمتد من العباسية إلى بركة العيش (أثر النبى) ومن النيل إلى المقطم .

وفى وصف " ابن فضل الله العمرى " المؤرخ الجغرافى فى القرن الرابع عشر الميلادى ، الثانى الهجرى لمدينة القهرة ، يقول " لم تزل القاهرة فى كل وقت تتزايد عمارتها ، وتتجدد معالمها ، خصوصاً بعد خراب الفسطاط سنة ٥٦٤ هـ ــ ١١٦٨م وانتقال أهلها إليها حتى صارت على ماهى عليه فى زماننا من القصور العلية ، والدور الفخمة والمنازل الرحبة ، والأسواق الممتدة والمناظرة النزهة ، والجوامع البهجة ، والمدارس الرائعة ، والخوانق الفاخرة ، مما لم يسمع بمثله فى قطر من الأقطار ، ولا عهد نظيره فى مصر من الأمصار . وحينما ننتقل إلى صور المؤسسات الدينية والتعليمية والخيرية فى المدن الإسلامية نجد أن أقدم الجامعات الإسلامية هى الجامع الأزهر الذى بناه المعز لدين الله الفاطمى فى مدينة القاهرة ١٣٦١ هـ ، والواقع أن المسجد بقدر ما كان يعكس دوره الدينى فقد كان يعكس أيضاً اهتمام الحكام بشكله العمرانى التى تتمشى مع روح عصرهم (١) .

ولاشك أن الجامع المسجد أسهم بالعديد من الأدوار التعليمية والثقافية التى كانت مصدر إشعاع فكرى فى المجتمع الإسلامى بجانب دوره كمجلس للقضاء بشريعة الإسلام .

وفى بغداد أنشأ نظام الملك أول مدرسة تعليمية عام ٤٥٧ هـ كما أنشأ حولها خانات وحمامات وأسواق وحبس عليها ضياعا للصرف عليها .

وتجدر الإشارة أو أول مكتبة إسلامية عرفتها بغداد كانت فى عهد هارون الرشيد وأطلق عليها بيت الحكمة لتكون خزانة للكتب ، فجمع فيها الكتب الإسلامية والأعجمية ، وأرسل فى استجلاب الكتب من أقطار أجنبية .

---

(١) محمد حماد : المرجع السابق ، ص ١٠٦ ـ ١٠٧ .

بعد ذلك لنا أن نتصور أهم المظاهر الإنسانية فى المدينةالإسلامية تلك التى تتمثل فى إنشاء دور الرعاية الاجتماعية من المارستانات " المستشفيات " ، وملاجى المكفوفين والأيتام والعجزة . وفى ضوء وصف المقريزى لأحوال السكان ، يذهب إلى أن الحكام المسلمين اهتموا بأحوال السكان ونظافتهم الصحية ، فكانت الحمامات بالمئات وكان الخلفاء والسلاطين والأمراء يقيمونها ويخصصون أوقافها للصرف على المبانى الدينية [1] . وبهذه المناسبة كان للنساء حمامات خاصة للاستحمام والتجميل ، كما كانت مجالاً لاختيار العروس للأبناء والأقارب . أما عن الأسواق فقد كانت أحد الملامح الأيكولوجية البارزة للمدينة تتم فيها المبادلات التجارية ، باختلاف حجم ووظيفة المدينة ، فغالباً ما كانت تحجبها أسقف لحماية البضائع ، كما كانت تجهز بأماكن لاستقبال القوافل [2] .

ومن مظاهر الأماكن العامة فى المدن الاسلامية المقاهى ، التى انتشرت فى المدن العثمانية ، والفارسية كبدائل عن غرف الاستقبال فى المنازل ، ثم انتشرت فى القرى ، وهكذا يبدو الانتقال من التجمعات الاجتماعية التقليدية إلى المقهى كمؤسسه حضرية .

والواقع أن المقاهى تحولت فيما بعد إلى مراكز للحرفيين وأصحاب الطوائف والسياسين والتجار والمثقفين ، والفنانين والعيارين ، وهى فى كل الأحوال تعبر عن اشكال الفئات الاجتماعية التى ترتادها [3] .

وهناك ملاحظة جديرة بالاهتمام بالنسبة لظاهرة الأسبلة التى انتشرت فى أحياء المدن الاسلامية ، وكانت لها رموزها القيمية عند المسلمين الذين يبتغون الخير للناس ، وطلب الرحمة بعد الوفاة .

---

(١) مختار القاضى : المرجع السابق ص ١٠٠ ـ ١٠٤ .

(٢) عبد الوهاب بكر : صفحات من تاريخ مصر الاجتماعى ، كلية الآداب ـ جامعه الزقازيق (١٩٨٨) ص ٨٤ ـ ٨٥ .

(٣) Costello . v.f.. OP. CIT., P.75 .

لقد عنى العثمانيون ببناء هذه الأسبلة فى معظم المدن التى عاشوا فيها ، وكان يلحق بهذه الأسبلة مساقى للدواب ، وفى فترة حكم المماليك بمصر والشام ازدهرت الأسبلة فشيدت لها مبانى مستقلة بذاتها ، والحقت بالمساجد والمدارس وحتى المنازل ، وغالباً ما ارتبط بناء السبيل باعداد مكتبة فوقه مباشرة ليتلقى فيه أيتام المسلمين دروسهم الأولية فى الكتابة والقراءة ، وتلاوة القرآن ، وفى هذه الحالة كان يطلق على مثل هذه المنشأة المزدوجة الأهداف ، السبيل الكتاب .

ولاشك أن انتشار بناء الأسبلة يرجع بالفضل لنظام الأوقاف الاسلامية الذى كان يضمن ريعا ثابتا ينفق منه على السبيل والعاملين به [١] .

الشئ الملاحظ أن الكثير من هذه الأسبلة مازالت قائمة فى تاريخنا المعاصر تتصدرها الأيات القرآنية وتحمل اسماء منشئيها على جدران من الرخام .

- **البناء الاجتماعى فى المدينة الإسلامية :**

كانت المدينة الإسلامية تؤلف مجتمعاً معقداً من مختلف الجنسيات ، إذا كان يضم أخلاطا بشرية وأجناساً متعددة تعربت ، ومع ذلك فيمكن إجمالاً أن نميز فى المجتمع الإسلامى الأول عنصرين أساسين هما العرب وأهل البلاد المفتوحة ، ومن هؤلاء تكون المجتمع من الناحية الدينية : من المسلمين وأهل الذمة .

أما عن البناء الاجتماعى للمدينة الإسلامية ، فإن اكتظاظها بالسكان وبالمرافق من جهة ، وبألوان النشاط البشرى من جهة أخرى ، جعل المدينة الإسلامية تجمع بين أسوارها فئات متباينة من الناس ، يشكلون طبقات متعددة ، تشكل كل منها لبنة فى البناء الاجتماعى للمدينة . وأولى هذه الطبقات هى طبقة الحكام ، وتضم أهم عناصر مجتمع الخاصة الذى بيدهم مقاليد الأمور من رجال

---

(١) أحمد الصاوى : الاسبلة ماء الحضارة ، مقال منشور مجلة مويس مصر للطيران ، وابريل ويونيو ١٩٩٥ ص ٥٩ .

الإدارة والحكم ، وكانوا يشكلون الطبقة العليا فى المجتمع الإسلامى ، ويدخل فيها الولاة والوزراء والكتاب والحجاب ، وكان قوام هذه الطبقة من العرب فى عصر الخلافة الراشدة والدولة الأموية ، ثم تبدل الأمر فى العصر العباسى فغلبت الأجناس التركية والفارسية .

ويمكن أن تنضم إلى هذه الطبقة جماعة من آل البيت تميزوا فى المدينة الإسلامية باسم الأشراف ، أو الشرفاء ، وكانت لهذه الجماعة نقابة تعرف بنقابة العباسيين أو الأشراف ، لهم ديوان يثبت فيه أنسابهم وشيخ له حق القضاء بينهم ، والتدخل فى زواجهم ، صيانة للنسب الشريف من الامتهان .

ومع بداية العصر الأموى أخذت الحياة في المدينة الإسلامية تتخلى تدريجياً عن بساطتها الأولى ، وهى البساطة التى أتصفت بها حياة المسلمين ، حكاماً ومحكومين فى المدينة ومكة ، وأخذت تتأثر فى بعض جوانبها بالطابع الرومانى والفارسي . فصارت فى دمشق القصور الفاخرة التى ازدانت جدرانها بالفسيفساء وأعمدتها بالرخام والذهب .

وعندما غدت بغداد حاضرة الخلافة العباسية تأثرت قصورها بالثقافة المعمارية الفارسية والتركية .

ولم يكن خلفاء بنى أمية بالأندلس أقل شغفاً فى الإسراف فى بناء القصور ، كما غدت القاهرة فى عصرهم على نفس القدر من الاهتمام ببناء القصور وحياة الحكام المترفه ، حتى وصف " ابن خلكان " أحد هذه القصور بأنه لا يوجد شبيه له فى الشرق ولا فى الغرب .

وإذا كانت الظروف التى أحاطت بالدول الأسلامية فى عصر الحروب الصليبية قد فرضت على الحكام من " بنى أيوب " قدراً من التقشف وعدم الإسراف، فإن سيطرة المماليك على الشريان الرئيسى للتجارة بين الشرق والغرب أمدهم بثروات طائلة أسهمت فى تشكيل الحياة الاجتماعية فى المدن التى عاشوا فيها ، بل

قد بلغ الترف أنهم نظموا طرق جلب الثلج من جبال الشام لتبريد الماء زمن الحر منها فى مصر ، لاكتمال الترفه فى قصورهم .

وهكذا يتضح أن الطبقة الحاكمة كان لها دور مسيطر فى الحياة الاجتماعية التى حفلت بها المدن الإسلامية ، ولا يخفى عنا أن مظاهر الترف بدأ بصورة كبيرة فى العواصم والمدن الكبرى امتد فى صورة أو أخرى إلى المدن الأقليمية كصنعاء ، وحلب ، والإسكندرية ، وفاس ، وغرناطة ، وكان يقود هذا الترف عدد من الأمراء وكبار الموظفين ، وهؤلاء كانوا فى حياتهم الخاصة والعامة صورة مصغرة لما عليه الخلفاء والسلاطين وكبار الأمراء فى العواصم .

فإذا تركنا طبقة الحكام من خلفاء وأمراء ووزراء وقادة إلى طبقة ثانية ، وجدنا المدينة الإسلامية وقد حفلت بطبقة رجال العلم وعلماء الدين معلمين ومتعلمين. وقد أضفى الحكام على هذه الطبقة مكانة اجتماعية خاصة .

وبعد ذلك نأتى لطبقة ثالثة وهى طبقة التجار ، وهنا ينبغى أن نفرق بين فئة كبار التجار الذين يمثلون ارستقراطية رأس المال ، وهذا الفريق ارتبط بقصور الخلافة والسلاطين والأمراء وكبار رجال الدولة ارتباطاً مباشراً ، وفئه صغار التجار والباعة الذين كان اتصالهم مباشراً بعامة الشعب . ويذكر " جوتتيان " أن المظاهر الطبقية للتجار انعكست على مستوى أحياء المدينة التى يعيشون فيها ، ومن أهم مدن التجارة الإسلامية فى تلك الفترة التى توضح هذه المستويات الطبقية ، كانت البصرة وعدن وقوص والفسطاط والإسكندرية وطرابلس ودمشق وبعلبك ، وفاس والمرية ومالقة ومرو وسمرقند .

ومع ذلك كانت المستويات الطبقية للتجار تخضع لاشراف الحكومات الإسلامية دون تمايز ، تراقبهم خشية التلاعب بالأسعار والتدليس فى المعاملات التجارية ، ولذلك أنشأت لهم طائفة مسؤولة عن التجار سمى رئيسها بشيخ التجار ، وكانت مهمته مراقبة الأسواق ومنع الغش والتدليس .

ومع إتساع المدينة الإسلامية وأزدهارها وكثرة سكانها ومرافقها ، اكتظت بعدد كبير من الصناع وأصحاب الحرف للنهوض بمتطلبات المجتمع ، وكان معظم المشتغلين بالصناعات من أهل الذمة ، ومع ذلك كانت هناك جماعات أخرى من غير المنتجين من الباعة الجائلين والسوقة والماكرين والفقراء المعدومين ، وهؤلاء أطلق عليهم اسم العامة أو العوام ، وكان من هؤلاء ما هو مصدر اضطرابات في المجتمع ، ومن هؤلاء جماعة العيارين والشطار الذين تميزت حركاتهم بطابع ثورى ضد الحكام فى مدن العراق ، والذين زاد من خطرهم أن صار لهم تنظيم مسلح يخضع لرئاسة موحدة ترعى أمورهم ، وسرعان ما تحول إرهابهم نحو السرقة والعدوان على نفوس وممتلكات الغير ، حتى غدوا مصدر القلق والفوضى وعدم الاستقرار .

أما فى مدن مصر فقد أطلق على هؤلاء المنحرفين والدهماء أسماء عديدة نصادفها فى المصادر المعاصرة ، مثل البلاصية والزعر ، والحرافيش وغيرها . وقد وصف الرحالة " ابن بطوطة " هؤلاء الحرافيش بأنهم طائفة كبيرة أهل صلابة وجور ورعاة [١] ، ومن أطرف ما ذكره " الجبرتى " عن العياريين فى حوادث سنة ١٢٣١ هـ قوله " لقد تعدوا على قهوة الباشا " محمد على " بشبرا ، وسرقوا جميع ما بالنصبة فثارت ثائرة الباشا ، وهدد بعض أرباب الدرك المسئولين بالنكال العظيم ، بعد أن أحس الباشا أن هيبته وهيمنته على أمور مصر رهن بالقضاء على هؤلاء العيارين وأشباههم من اللصوص ، فراح يتتبعهم ويقضى عليهم [٢] . ومع ذلك فقد دأب الحكام ـ من خلفاء وسلاطين ـ فى الدول الإسلامية على مد يد العون بقدر ما سمحت به الظروف إلى الفقراء والمحتاجين فى المدن وتوزيع الأموال والغذاء

---

(١) سارة متنية : التكوين الوظيفة للمدينة الإسلامية ،مقال منشور . الفكر العربى ، العدد التاسع والعشرون ، السنة الرابعة ، ١٩٨٧ ، ص ١٣٤ .

(٢) محمد رجب النجار : حكايات الشطار والعياريين فى التراث العربى . عالم المعرفة ، العدد ٤٥ (١٩٨١) ص ١٢٢ .

والكساء عليهم ، وخاصة فى أوقات الأزمات الاقتصادية وذلك لمنعهم من التسول والانحراف .

وإذا كانت الطبقات والطوائف السابقة تعبر فى مجموعها عن خصائص المجتمع فى المدينة ، فإن علينا أن نذكر وجود أقليات لها هيمنتها فى بناء المجتمع المدنى ، تفاوتت فى عددها ونوعيتها من مدينة إلى أخرى ، حسب طبيعة كل أقليم من الأقاليم أو مصر من الأمصار ، وفى جميع الحالات فإنه من الثابت أن تسامح الإسلام ساعد على إضفاء جو اجتماعى خاص على المدن الإسلامية ، تسوده روح الأخاء بين أهل المدينة على اختلاف طوائفهم ومللهم . وأن المطلع على كتاب تاريخ دمشق " لابن عساكر " أو كتاب المواعظ والاعتبار " للمقريزى " يسترعى نظرة ذلك العدد الكبير من الكنائس والأديرة والهياكل الخاصة بأهل الكتاب فى دمشق والقاهرة .

لقد حرص خلفاء وسلاطين الدول الإسلامية الحفاظ على حرية العقيدة الدينية لأهل الذمة ، فكفل المناشط الحياتية ، والدينية ، فمارسوا كافة الأنشطة الاقتصادية وجمعوا الثروات وتقلدوا أرقى المناصب فى الدولة ، وكان للنصارى بطرك فى عاصمة الدولة ، ولليهود رئيس أو حاخام يشرف كل منهما على أبناء طائفته ويتمتع بنفوذ ثقافى ودينى كبير عليهم ، فضلاً عن أنه يحظى باحترام الدولة ويُخلع عليه عند توليه منصبه .

لاشك أن تنوع مجتمع المدن الإسلامية وثباتها العقيدى والاقتصادى والعرقى مع كثرة السكان واختلاف جنسياتهم وثقافتهم ، كل ذلك جعل المدينة الإسلامية تحتفظ بالنشاط والحيوية (١)

وحينما ننظر إلى أيكولوجية القاهرة خلال العصر العثمانى نجد أن عدد سكانها قد يصل إلى حوالى ثلث مليون نسمة ، وجاء تقسيم العمل فى قوى الانتاج

---

(١) سارة منيمنة : االمرجع السابق ، ص ١٤٤ .

إلى طوائف مهنية ، قامت بدور الإشراف على أغلب النشاط الصناعى والتجارى ، وإدارة المدينة وحفظ النظام من تقاليد معترف بها ، وهذه التنظيمات وإن كانت لم تشكل جهازاً فى سلم التنظيم الإدارى العثمانى ، إلا أن الحاكم لجأ إليها ولشيوخها لانجاز بعض الأعمال التى كان من المفترض قيام إدارات المرافق فى العصور الحديثة بها ، كأعمال البناء أو النظافة أو إطفاء الحرائق .

وقد تركزت الطوائف المهيمنة أيكولوجيا على أحياء المدينة وأضفت عليها خصائصها المهنية ، فقد سكن صناع الخيام بالقرب من باب زويلة وأسميت منطقة سكناهم باسم الخيمية ، وسكن صناع وتجار النحاس فى منطقة وسط المدينة وسميت بالنحاسين ، وهكذا تجمع أفراد كل مهنة فى المدينة فىحى واحد أو شارع معين .

تأسيساً على ذلك فإن الأحياء شكلت الوحدة الأساسية للحياة المدنية فى القاهرة إلى جانب نظام الطوائف الذى شكل الوحدة التنظيمية الحرفية .

لقد دفعت كثرة حوادث العنف التى شهدتها سنوات القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين سكان القاهرى إلى التجمع أثنولوجيا Ethnologyically أو حرفياً أو دينياً فى حارات معينة وتزويدها بوسائل الدفاع الذاتى ، كما كان مشايخ الحارات الذين سيطروا على أمور الحارة ادارياً هم شيوخ الطائفة فى حواريهم الخاصة أيضاً ، بمعنى أن الحارة كانت تمثل بنية تقوم على السكن موازية لبنية الطائفة القائمة على الحرفة ، وأنه كان من الممكن أن تتوحد البنيات (السكنية والحرفية) فى بنية واحدة فى بعض الأحياء .

الواقع إننا لا نستطيع أن ننظر للحى كوحدة اجتماعية دون النظر إلى مكوناته من الحارات والأزقة والدروب التى تشكل وحدة سكانية متفاعله ، فالزقاق والعطفة والحارة والدرب هى شبكة الاتصال الجغرافى بين السكان داخل الحى .

ومازالت صورة من صور العلاقات الأولية التى تعكس التضامن الأجتماعى للسكان وتكافلهم فى المواقف القيمية .

وفى النهاية فإن الدرب يتصل بالشارع الكبير عن طريق البوابة التى تقف الحى كله ، وتجعل منه وحدة اجتماعية مغلقة (١) .

إذا حاولنا تخطى العصور الوسطى لنقترب من تعاقب الأحداث على مدينة القاهرة ، نجدها وقد تعرضت لمحاولة إخضاعها للنموذج العمرانى الأوربى أبان غزو الحملة الفرنسية لمصر عام (١٧٩٨م ـ ١٨٠١م) فقد عمد الفرنسيون إلى القيام بعمليات واسعة النطاق تشمل هدم المبانى وتوسيع الطرقات وبناء المبانى والجسور وإدخال نماذج من الإنشاءات لم تكن معروفة فى القاهرة من قبل .

ويقدم لنا المؤرخ عبد الرحمن الجبرتى ، فى كتابه تاريخ عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، صورة للواقع الاجتماعى لفعل هذه الحملة على سكان القاهرة ويذهب فى قوله إلى أن دخول الحملة الفرنسية القاهرة صفر ١٢١٤هـ تمور (يوليو) ١٧٩٨م بدأ بأعمال استهجنها أهالى القاهرة ، فقد شرعوا فى تكسير أبواب الدروب والبوابات النافذة ، وخرج عدة من عساكرهم يخلصون ويقلعون أبواب الدروب والعطف والحارات ، وعاد الفرنسيون إلى إزالة البوابات فى شهر أيلول /سبتمبر من السنة ذاتها . وفى الشهر نفسه أجلوا سكان القلعة ونصبوا فى القلعة مدافع فى عدة مواقع ، وبنيرانها هدموا أبنية كثيرة ، وشرعوا فى بناء حيطان وكرانك وهدموا أبنية عالية وأعلوا مواضع منخفضة . وبنوا على لدنات الغرب بالرميلة وغيروا معالمها وأبدلوا محاسنها ومحو ما كان بها من معالم السلاطين وآثار الحكماء والعظماء ، وهدموا قصر يوسف صلاح الدين (٢) .

والوصف الذى يقدمه " الجبرتى " بأسطر قليلة يقدم لنا فكرة الحاحهم فى التخلص من كل الحواجز التى تمنعهم من دخول الحارات والأحياء وهدم رموز وحدتهم من البوابات والحواجز .

---

(١) عبد الوهاب بكر : المرجع السابق : ٥٩ .

(٢) خالد زيادة : بدايات التغريب العمرانى . مقال منشور فى الفكر العربى . مرجع سابق ص ٢٥١ .

لقد استطاع الفرنسيون تغيير الشكل العمرانى فى بعض أحياء القاهرة بهدم بعض الدروب والحمامات والمساجد ومزارات وزويا ، وبالمقابل قاموا ببناء القلاع، والأبراج والحصون وشق الطرق وتوسيعها وإعداد تدابير للنظافة والإنارة . لقد خلفت الحملة الفرنسية آثاراً أخرى ، يمكن وصفها بأنها من الآثار الاجتماعية التى أدخلت عادات جديدة على القاهرة لسكانها من قبل ، والأثر البارز فى هذا المجال هو التبدل الذى طرأ بالدرجة الأولى على سكان القاهرة من الأقباط وقاطنيها من نصارى الشام واليونان ، وقد أفاد بعض هؤلاء من فرصة الغزو الفرنسى فى الشهر الأول من وصول الفرنسيين المدنيين إلى القاهرة على إنشاء مقاهى وخمارات ومطاعم مخصصة لخدمة الفرنسيين (١) .

والواقع أن تطور عمران المدن الإسلامية وإنحساره نجده قد ارتبط بتغيير الخريطة السياسية للعالم الإسلامى فى العصور المختلفة توحدا تحت راية خلافة إلامية واحدة ، ثم أنقسما إلى ثلاث خلافات ، ثم تفتتا إلى دول مشرقية ومغربية ، وما صاحب ذلك من أحداث تعرضت لها أقاليم الدولة الإسلامية شرقاً وغربا ممثلة فى هجمات الصلبيين ، ثم التتار ، ثم هجمات المسيحيين على الأندلس التى أنتهت بفقدها وضياع أرضها ، ومن ثم أصبحت مدنها أثراً بعد ، وقد أثرت هذه الأحداث المختلفة فى أفول نجم مدن وإنحسار العمران فى بعض الفترات ، فى الوقت الذى نشأت فيه وازدهرت بعض المدن الأخرى التى حالفتها ظروف سياسية واقتصادية ساعدت على ذلك ، ونظرة إلى بغداد ودمشق وحلب والقدس والقاهرة وفاس ومراكش والرباط وقرطبة والزهراء وغيرها من المدن الاسلامية فى ضوء هذه الأحداث ، تؤكد فعالية تغير الأحداث السياسية واختلاف شكل الخريطة السياسية

(١) خالد زيادة : المرجع السابق ، ص ٢٥٨ .

للعالم الإسلامى على المدن الإسلامية فى نشأتها أو تطور عمرانها فى الزمان والمكان [١] .

مجمل القول :

ان الكثير من المؤلفات التاريخية والجغرافية درجت على الحديث عن مدن العصور الوسطى ، وكذلك عن مدن النهضة والباروك * ، ولكن مؤلفات أخرى تفضل استخدام مصطلح آخر هو مدن ما قبل عصر التصنيع ، على أساس أن استخدام مصطلح العصور الوسطى يرتبط أساساً بمرحلة مضت من التاريخ قبل أن تدخل العصور الحديثة ، كما أن هذا التقسيم للتاريخ هو تقسيم أوربى ، ليس صالحاً تماماً لتطبيقه عالمياً ، وخاصة إذا كان عصر النهضة متمماً للعصور الوسطى ، وربما جاء تطور الشعوب الأوربية الحضارى والسياسى مع هذا التقسيم ، وفى تصورى أن بقية أجزاء العالم لم تمر به ، وعلى سبيل المثال ، فإن العصور الوسطى الأوربية بدأت بما يعرف بالعصور المظلمة ، والتى بدأت مع أنهيار الأمبراطورية الرومانية وأفول الغرب إلى فترة قرون طويلة من التدهور الحضارى

---

(١) محمد عبد الستار عثمان : المرجع السابق . ص ٨٥ .

* يمكن اعتبار عصر النهضة بداية الفنون التخطيطية التى ظهرت فى ايطاليا حتى القرن الثامن عشر بعد الميلاد . وكانت أغلب المدن الأوربية يحكمها النبلاء والأعيان من التجار ، وكان تنافس الحكام فى تجميل مبانيهم بطراز التراث الرومانى مما أدى إلى صبغ مباني النبلاء بروما وفلورنسا والبندقية ولمبارى بهذا الطابع .

وبالنسبة لعصر الباروك فقد خلع عليه طغاة هذا العصر طابعا متجانسا من المبانى الضخمة والشوارع العريضة والميادين التى تسمح باستعراض الجيوش ، وكان أهم ما يميز هذه الميادين الحدائق والنافورات والتماثيل العارية وتحت تأثير حياة القصور ازدهرت الفنون التشكيلية ، والمسرح والغناء الأوبرالى ويبلغ الذوق الباروكى أقصى تحديه للطبيعة فى زرع الأشجار لتشكل واجهات معمارية صوريه كما هو لحال فى فرساى .

انظر لويس ممفورد : المرجع السابق ص ٣٤٤ ـ ٣٤٥ .

ولكن هذه الفترة بذاتها كـانت شيئاً مختلفاً عـن العـالم الإسـلامى الـذى شـهد عصـر الازدهار وبناء الدولة الإسلامية ، وكان ذلك أثره فـى مجـال العمـران ، فعلـى حيـن تدهورت المدن الأوربيـة فـى تلـك الفـترة ، نجـد أن المـدن فـى العـالم الإسـلامى قـد تضاعفت فى أعدادها ، وتم إنشاء مـدن جديـدة وتطويـر كثـير مـن هـذه المـدن التـى كانت قائمة ، وقد استمر ذلك تقريباً حتى نهايـة القـرن الرابـع عشـر الميـلادى حيـن بدأت الأية تنعكس (١) .

لقد بدأ تطور المدن الأوربية فى أول الأمر فى أحضـان العصـر الرومـانى ـ والأغريقى ـ ونشأت مدن القرون الوسطى فى أغلب الأحيان ـ كما هو فى ألمانيا ـ بالقرب من الأسقفيات أو قصور القياصره ، وقد تغيرت صورة المـدن ذات التطـور التاريخى العريق من جراء الحروب وإعادة الإنشاء والبناء (٢) .

وفى هذا الصدد فإن العالم الحديث لا يختلف عن العالم القديم إلا مـن حيـث الدرجة فقط ، ففى الماضى كانت الأقـاليم منـاط بهـا أدوار معينـة مـن جـانب القـوى الاستعمارية كالامبراطوريات القديمة ، وكانت المدن الواقعة فى هذه الأقـاليم تعكـس هذه الأدوار ففى الامبراطوريـة الرومانيـة ، مثـلاً كـانت مراكـز الاتصـال الرئيسـية تتمثل فى الإسكندرية ، وكذلك المدن التى تسيطر على الأقاليم الزراعية الغنية ، مثل دمشق التى كانت تقوم بدور المراكز الإدارية للامبراطورية ، ومن ثم فقد تنامت فى حجمهـا ورخائهـا ، وعلـى قمـة الهيكـل الحضـرى كـانت المدينـة العاصمـة لإدارة الامبراطورية، ولم تكن مكانة روما فى قيادتها الاستعمارية إلا بحكـم فـائض المنتـج

---

(١) أحمد على اسماعيل : المرجع السابق ، ص ٦٥ .

(٢) Heina Dierer & Susanne Lucking ., Fact about Germany ., Published by Lexikon - institut m Bertesman . Federal Rebublic Germany, 1984 , P. 21 .

الاقتصادى ويؤيد هذا القول التطور التكنولوجى وكفاءته الانتاجية والكمية ، فكلما زادت هذه الكفاءة وعائد الانتاج انعكس على البناء الاجتماعى للمدينة (١) .

والواقع أن البناء الاجتماعى لمدينة الحضارات القديمة كان أشبه ما يكون إلى البناء الاجتماعى للقرية وحياة العائلة الممتدة وعلاقات المصاهرة ، والتشابه فى الصناعات الحرفية التى تعتمد على الانتاج اليدوى العائلى فى المنازل ، فقد كان الهدف الأساسى من الصناعة العائلية هو تحقيق مبدأ الكفاية الذاتية ، بمعنى أن الإنتاج فى تلك المرحلة كان يتم بقصد الاستهلاك المباشر أو المقايضة فى سوق القرية ، وبمرور الزمن تخصصت كل عائلة فى صناعة معينة كالنجارة والحدادة وصناعة الأحذية . وفى العادة كانت الأحياء مقسمة حسب نوعية الحرف ، ومازالت آثار هذه الأحياء قائمة مع شواهد الآثار . أما عن نظام الطوائف فقد ظهر فى أوربا خلال القرنين التاسع والعاشر ، وبلغ أوجه فى القرن الثالث عشر ، واستمر بعضه قائماً حتى القرن التاسع عشر كما أن بقاياه مايزال قائماً حتى وقتنا الحاضر ، وقد ارتبطا ظهورها بانتعاش المدن القديمة ، ونشأة المدن الجديدة التى توافد عليها كثير من التجار والحرفيين الهاربين من ضيعة الإشراف ، وقد اشتغل هؤلاء بالتجارة والصناعة ، وأصبحوا يزودون سكان المناطق الريفية بما يحتاجون إليه من مصنوعات ، ويحصلون منهم على المنتجات الغذائية ، والمواد الأولية اللازمة للصناعة (٢) .

وحينما ننظر إلى المدينة فى ضوء العقيدة الدينية نجد على سبيل المثال أن بناء الكاتدرائيات والكنائس جاء تعبيرا عن الحضارة المسيحية ، كما كانت الحضارة الاسلامية دائما حضارة مدن ، فقد ازدهرت النظم الاسلامية فى عدد كبير من أمهات المدن التى لعبت دوراً سياسياً هاماً عصور التاريخ الاسلامى كله ، وفيها

---

(١) Gilbert Alan & Gugler. Josef., Cities. Poverty and Development . Urbanization in Third World . Oxford Universty . 1982 . P. 12 .

(٢) Schnider . E. V. Indutrial Sociology New York . 1957 .

كانت قصور الحكم والأسوار والقلاع والمساجد والمدارس ، والمؤسسات الخيرية والصوفية ، وقد ظل هذا النظام قائماً حتى القرن التاسع عشر (١) .

ويذهب جدعون شوبيرج G. Sjobtrg في كتابه الذى يحمل اسم مدينة ما قبل الصناعة ، أن ثمة من أوجه التشابه الكثيرة بين مدن ما قبل الصناعة ومدن العصور الوسطى فى بنائها الحضرى والاجتماعى سواء أكانت هذه المدن فى أوربا أو الهند أو الصين أو أى مكان آخر ، على حين تختلف هذه المدن بوضوح عن المدن الصناعية الأخرى ، ومع ذلك فإنه ينبغى أن نلاحظ أن هذا التعميم قد ترتب عليه مفارقات فى الدراسات المقارنة لأن المجتمعات ليست نسخاً مكررة ، حتى وإن كانت تمر فى مرحلة حضارية متقاربة ، وعلى سبيل المثال فإن مدن أوربا فى العصور الوسطىُ تختلف فى صورتها العامة كثيراً عن مدن أفريقيا وأسيا التى لم تتأثر بالصناعة .

وبشكل عام نسطيع القول أن المدينة ظاهرة حضارية يصعب فصلها عن المستوى الحضارى العام الذى تمر به الشعوب ، وهى تكون فى العادة تعبيراً صادقاً عن المرحلة الحضارية إلا إذا استثنينا من ذلك المدن التى أنشأتها قوى أجنبية وافدة ، فهذه المدن ليست أكثر من شتلة منقولة من بيئة أخرى وليست نتاجاً محلياً . وفى مدن العصور الوسطى الأوربية ، نجد أن مرحلة الاقطاع التى سادت معظم أوربا تركت بصماتها واضحة على المدن ، فقد كان النبلاء سادة الاقطاع يحكمون أقليمهم ويسيطرون عليها ويديرونها من القلاع والحصون التى أنشأوها ، والتى تطورت لتصبح مدناً بعد إتساع العمران حولها . ولكن أجزاء العالم الأخرى التى لم تمر بمرحلة الاقطاع أو بمعنى أدق فإن الدول التى شهدت قيام حكم مركزى بها منذ عصر بعيد ، لم تشهد تطوراً حضارياً مماثلاً ، وقد عرفت مصر الحكومة المركزية فى نهاية الألف الرابع قبل الميلاد حين توحدت عام ٣٢٠٠ قبل الميلاد

---

(١) سارة منيمنة : المرجع السابق ص ١٣٤ .

ولعلها لم تتعرض لمرحلة شبيه بالاقطاع إلا فى العهد المملوكى ، ومع ذلك فإن المماليك لم ينشئوا مدناً جديدة ، وإنما أقاموا فى المدن القائمة فعلاً حتى أنتهت دولتهم وعادت لمصر حكومتها المركزية فى عهد محمد على ، وربما يكون عدم تأثر مصر بالاقطاع المملوكى نابعاً من أن المماليك كانوا أقلية وافدة ، وكانوا أفراداً لا يشكلون أسراً إقطاعية كما هو الحال فى أوربا ، ومعنى ذلك أن الحكم المركزى وسلطة الدولة الموحدة تؤدى إلى نمو العاصمة بدرجة واضحة بينما تبقى غيرها من المدن أقل مرتبة ، أما فى ظل الاقطاع ، فإن كل مدينة يتخذها النبيل أو السيد الاقطاعى تعتبر منافسة لغيرها أو مناظر لها . وأمام كل منها فرصة للنمو مع غيرها من مدن الاقطاع .

وحينما خرجت أوربا من عصر الأقطاع ، وظهرت فئة جديدة إلى جانب النبلاء من ملاك الأراضى ، وهى فئة التجار الذين حققوا لأنفسهم ثروات كبيرة من التجارة الخارجية ، وبدأت نتائج الاحتكاك الحضارى بين الشرق والغرب تظهر نتائجها فى النهضة الأوربية التى صاحبها تحول تكنولوجى يعتمد على مصارد جديدة للطاقة المحركة بدلاً من الجهد البشرى أو الحيوانى .

ومن أمثلة ذلك قوة الرياح والمياه ، والوقود فى صورة أخشاب ثم الفحم بعد ذلك ، وفى تلك الفترة أدت الحروب الصليبية إلى احتكاك أوربا بالشرق ثم تلى ذلك كشف طريق رأس الرجاء الصالح وانهيار تجارة كثيرة من الأقطار العربية والإسلامية التى كانت ثروتها تعتمد على الوساطة التجارية بين عالم المحيط الهندى وعالم البحر المتوسط وأوربا وحل تجار المدن الإيطالية وبخاصة جنوة والبندقية وفلورنسا ثم التجار الأسبان والبرتغاليون محل التجار المسلمين ، ثم تكونت الشركات الاحتكارية الكبرى التى كونها الأوربيون للتجارة مع الهند وأندونيسيا .

بدأت مرحلة الاستعمار الغربى للعالم القديم ثم الهجرات الأوربية إلى العالم الجديد بعد كشفه ونقل بذرة المدن إليه ، وكان استنزاف ثروات آسيا وأفريقيا لصالح

الشعوب الأوربية من أكبر عوامل ازدهار المدن الأوربية ثم الأمريكية ، بينما بـدأت المدن العربية والإسلامية فى التدهور ومعها المدن الأفريقية والأسيوية عموماً (١) .

---

(١) احمد على اسماعيل : المرجع السابق ، ص ٦٨ .

الفصل الثالث

النمو الحضرى

* النمو الحضرى فى الدول الصناعية .
* التحضر فى الدول النامية .
* التخطيط الاجتماعى للمدن .

المبحث الأول

النمو الحضرى فى الدول الصناعية

أيا كان شكل نمو المجتمع الحضرى فى الدول المتقدمة أو النامية فما زالت صورته هى المدينة . وحينما ننظر إلى عوامل نمو المدن فى دول أوربا عبر الزمان والمكان نجدها قد ارتبطت بالسيطرة على المناطق الريفية بحكم تفوقها السياسى والدينى والاقتصادى والسكان ، وكانت مهمة هذه السيطرة استغلال مصادر الانتاج وظلت أهداف هذه السيطرة حتى نهاية القرن التاسع عشر مع ازدهار التنمية الصناعية والحضارية . وإذا كانت التنمية الصناعية قد أرتبطت بالثورة الصناعية ، فإن التنمية الحضرية قد وصفت ايضا بالثورة الثانية .

ويرجع علماء الاجتماع الحضرى تاريخ إزدهار المدن ونموها فى أوربا إلى عدد من العوامل الأساسية هى النمو السكانى ومركزية رأس المال ، ونفوذ الرأسمالية ، والتقدم التكنولوجى .

فبالنسبة للنمو السكانى فى بعض دول أوربا نجد على سبيل المثال ، أن سكان انجلترا وبلجيكا وصل عام ١٩٠٠م بزيادة ثلاثه أرباع عدد السكان بالمقارنة الىعام ١٨٥٠م وفى المانيا سجلت لحصائيات عام ١٨٧١م ثمان مدن كبرى فقط كان عدد سكانها يزيدون على مائه الف نسمة أصبحت عام ١٩٠٠م ثلاثة وثلاثين مدينة ، وفى عام ١٩١٠م أصبحت ثمانية وأربعين مدينة .

وقبل نهاية عام ١٩٠٠م أصبح واحد من كل خمسة وعشرين فرنسيا يسكن باريس كما كان يسكن برلين واحدا من بين كل عشرين مواطنا المانيا . وفى انجلترا وويلز بلغت نسبة الذين اجتذبتهم مدينة لندن عشر السكان ، حتى فى الولايات المتحدة الأمريكية حيث كان بمقدور الناس الانتشار فى ثلاثة ملايين من الأميال المربعة تجمع نصفهم تقريبا على جزء من مائة من مجموع مساحة البلاد التى كانت

المدن العشر الكبرى تضم $\frac{1}{8}$ المجتمع ، وجاء نموهذه المدن واتساعها مرتبطا بنمو الرأسمالية الصناعية (١) .

الواقع أن الفترة ما بين ١٨٥٠م ــ ١٩٠٠م تميزت بحدوث نمو سكانى مرتفع فى دول أوربا . وطبقا لتقديرات " ويلكوكس " " وكار سوندرز " قفز عدد سكان أوربا بما فيما روسيا ــ من ٢٧٤ مليون نسمة عام ١٨٥٠ الى حوالى ٤٢٣ مليون نسمة عام ١٩٠٠م .

يعنى هذا أن سكان هذه الدول قد تزايدت بنسبة ٥٤٪ خلال نصف قرن، وقد ساعد على هذا النمو السكانى المرتفع تقدم الطب الوقائى من خلال التطعيم ضد الامراض المعدية وبالذات الجدرى وتحسين وسائل النظافة العامة بحيث أمكن السيطرة على معدل الوفيات المرتفع .

ومن ناحية أخرى أدت هذه العوامل إلى تضخم سكانى وزيادة الطلب خاصة على المواد الغذائية ، وتفاقم ظاهرة البطالة فى فترات الأزمات الدورية ، ومن هنا بدأت الدول الأوربية توجه هذا الفائض السكانى الى الهجرة نحو المستعمرات ، فرفعت انجلترا القيود التى كانت مفروضة على هجرة الصناع والعمال الفنيين الى الخارج وتبعتها دول أوربية أخرى كمخرج لحل مشكلة فائض السكان (٢) . وتعد هذه الهجرات بمثابة البذور الثقافية لبناء الأحياء الأوربية فى مدن دول العالم الثالث .

والواقع أن تاريخ نمو المدن واتساع أرجائها جاء نتيجة عاملين ، أولا : الزيادة الطبيعية للسكان ، الناشئة عن ارتفاع معدلات المواليد وانخفاض معدلات الوفيات ، ثانيا : حركة الهجرة بنوعيها الداخلى والخارجى ، ويعتبر العامل الثانى

---

(١) Geoffrey Bruun., Nineteenth Century European Civilization. 1815 - 1911 N.Y. 1960 p 158- 159 .

(٢) رمزى زكى : المشكلة السكانية وخرافة المالتوسيه الجديدة ، عالم المعرفة . العدد ٨٤ عام ١٩٨٤ ص ٧٥ .

أكثر أهمية من العامل الأول فى نمو المدن واتساع أطرافهـا وذلـك نظـرا لأن زيـادة الحجم السكان المدن كثيرا ما يتأثر بالزيادة الناشئة عن الهجرة ، بينما يتأثر إلى حـد ما بالزيادة الطبيعية ، كما أن معدلات الخصوبة بين المهاجرين إلى المـدن عـادة مـا تكون أعلى بكثير من معدلات الخصوبة بين سكان المدن الاصليين (١) .

وهناك نقطة أخـرى ترتبـط بنمـو المـدن وهـى تتصـل بنفـوذ مركزيـة رأس المال فى الدول الصناعية وتأثريها فى نمو المناطق الحضريـة النشـطة فـى عمليـات التصديـر وعـائده الاقتصـادى . والشـواهد علـى ذلـك مـا تؤكـده اسـتثمارات البنـوك وبيوت المال فى لندن فترة ثورتها الصناعيـة ، ونتيجـة لانتعـاش هـذه الاسـتثمارات كان الفائض منها يصب فى خزائن بريطانيا . مما أدى إلى نمـو مـدن المصـانع فـى برنمجهام ومانشسيتر والموانى فى ليفربول وسـادث هـامتون وكـانت هـذه المصـانع تسعى لاستثماراتها فى دول المستعمرات التى انعكست فوائدها على رفاهية المجتمع البريطانى نفسه .

وإذا ما تأملنا المناطق الحضرية غير الصناعية نجد أنها بالمقارنة أصبحـت كيانات طفيلية على حساب عملية الانتاج فى مناطق الصادرات الأولية . فالمدن فـى كثير من دول العالم مازالت تعيش على فـائض الانتـاج الزراعـى ، أو عـائد مـوارد الانتاج الطبيعى أو مناجم التعدين ، أو آبار البترول . وفى الوقت نفسـه تقـوم المـدن الصناعية بما لديها من مقومات تكنولوجية فى اعـادة انتـاج هـذه المـواد الأوليـة بمـا يحقق استراتيجيتها فى نطاق الاقتصاد المحلى العالمى (٢) .

---

(١) عبد الله الخليفه : أثر العوامل الاجتماعية فى توزيـع السكان على أحيـاء مدينـة الريـاض ، الريـاض ١٤١١ ، ص ٢٧ ـ ٢٨ .

ليكتور تياغو ننكو وأخرون : مدن دول العالم الثالث .. أكاديميه العلوم السوفيتية موسكو ١٩٧٢ . ص ٣٦ ـ ٣٧

(٢) Gilbert Alan & Gugler Josef., o P.C.t. PP. 12 - 13 .

تأتى بعد ذلك إلى نفوذ المصالح الرأسمالية وعلاقتها بنمو المدن . فبالرغم أن كثيرا من المدن الصناعية العالمية جاء ظهورها السياسى قبل الثورة الصناعية إلا أن الرأسمالية دعمت من سرعة نمو المدن وتفاوت سكانها الطبيعى . وقد دعم هذا التفاوت المبادئ الاقتصادية التى شاعت فى مطلع القرن التاسع عشر ، تلك التى أثارها " هربرت سبنسر " ١٩٢٠ ـ ١٩٠٣ فى فكرة أن لكل فرد الحق فى أن يحاول الابقاء على ذاته ، ولكن ما دام الذى يبقى هو الأصلح فقط وأن الأقل صلاحية محكوم عليه بالفناء ، فإن الناس يجب أن يكونوا أحرارا فى التنافس فى ظل من دع كل يعمل ما يريد : ولقد أكد روخ هذا الذهب هو التشيع الدينى للمذهب البروتستنى الذى دعم الاقتصاد الحر وأنكر روح المجتمع .

لقد وجد أصحاب رؤوس الأموال فى هذا المذهب مبررا لمصالحهم فتوسعت الشركات الكبيرة فى الانتاج الكمى المرتبط بالحصول على الخامات الطبيعية وتوافر مخزونها ، وفتح أسواق للاستهلاك والانتاج . ومن أجل تحقيق الاحتكار اتجهت إلى دول الخامات لاستنزاف مواردها وتسويق منتجاتها . وكان زعماء هذه الدول يتطلعون إلى تنمية بلادهم من خلال معونات الدول الصناعية اقتصاديا وفنيا ، فكانوا يواجهون الأسعار الباهظة للمعدات الصناعية بالاستدانة من بنوك لندن ، وباريس وبرلين .

وكانت النتيجة أن أسفرت عدم خبرتهم فى تشغيل التكنولوجيا المتقدمة إلى الوقوع فى دائرة التبعية ، نتيجة عجزهم عن سداد الديون مما أدى إلى استيلاء الدول الدائنة على هذه الدول وتحويلها الى محميات : ويؤكد كارلتون أن الربع الأخير من القرن التاسع عشر كان فترة استعمار جامحة بعد أن سعت بعض الدول الصناعية وراء فتوحات جديدة لتوسيع ممتلكاتها فى القارات الأخرى ، وما أن جاءت سنة ١٩٠٠ حتى كان تسع أعشار بلدان أفريقيا تحت النفوذ الأوربى .

لقد كانت قوة المصالح لهذه الشركات الرأسمالية بقدر سيطرتها على مساحات شاسعة من الأراضى بحجة البحث عن الموارد الخام وتهيئة الأراضى للاستصلاح الزراعى .وليس من المدهش أن حضور هذه المؤسسات على مساحات الأراضى الزراعية زرع شتلات عمرانية جديدة ، كان لها أثرها على حياة السكان المحليين الذين حوّلوا أنشطتهم الزراعية إلى اقتصاديات نقدية ، مما سمح لهم ببيع أراضيهم وبيع قوة عملهم للشركات مقابل أجور ، وانعكس كل ذلك على تحويل القرى إلى مدن صغيرة (١) .

يبقى لنا بعد ذلك النقطة الأخيرة وهى التى تتناول علاقة التطور التكنولوجى بالتحضر ، ومع التسليم بأن التحضر أسبق على الثورة الصناعية إلا أنّ التطور التكنولوجى للانتاج الكمى وتراكم رأس المال فى عمليات التصنيع ، أدى إلى تكثيف قوى العمل مما أدى إلى زحف العمال من قراهم إلى المدن الصناعية النامية ، ونتيجة لعامل الندرة الفنية فى التصنيع ، انخفضت الظروف المعيشية لمعظم هؤلاء العمال غير الفنيين وأصبحوا يعيشون فى أماكن مكتظة مليئة بالقذاره والمرض ، هذا بجانب عدم تكيفهم مع بيئة لم يألفوها ، ومع كل هذه الظروف فهم مجبرون على قبول العمل فى المناجم الاستخراجية ، وفى الصناعات الثقيلة ، التى لم يكن يتوافر فيها أساليب الامن الصناعى أو نظام ساعات العمل والراحة (٢) .

وفى وصف " كلارك كير " وزملاءه للمدن الجديدة التى نشأت فى بريطانيا فى مطلع القرن التاسع عشر بالشكل التالى . لم تكن مدن بل تكفات ، لم تكن ملجأ لبشر متحضرين بل عنابر للصناعة ، لقد كانت عباره عن غابر لأعداد كبيرة من

(١) Carlton J. Hayes. Political History of Modern Europe. Vol. 11. Mac millan canda 1963. 93.

(٢) Gilbert Alan . & Gugler Josef., Op. Cit., pp. 12 - 13 .

الناس الذين لم يجتمعوا فى مكان واحد إلا لأن أصابعهم أو عضلاتهم كانت لازمة للعمل على ضفة جدول ما أو على فوهه فرن ما (١) .

يبدو أن التطور التكنولوجي للتصنيع كان من أبرز العوامل الضاغطة التى أدت الى الهجرة الريفية الحضرية المبكرة فى الدول الأوربية . لقد تحولت الأرض فى ظل المجتمع الصناعى الجنينى من مصدر واحد ووحيد للحياة المعيشية إلى مجرد موقع يضم اعدادا كبيرة من العمال الصناعيين

لذلك فإن الطلب على المنتجات الزراعية قد أصبح بمرور الوقت أقل مرونة من الطلب على الخدمات والصناعات الحضرية ، وبارتفاع الانتاجية بدأت الخدمات والصناعات الحضرية تستوعب مزيدا من العاملين الذين مالبثو أن حصلوا على أجور لم يكونوا يتوقعونها من قبل ، ولما كانت النشاطات غير الزراعية وعلى الأخص الصناعات التجارية تميل إلى تأكيد أهمية الموقع بدأ التنافس على حيازة المناطق التى تتمتع بمزايا اقتصادية خاصة ، والنتيجة الطبيعية المترتبة على ذلك ظهور تقارب جغرافى أو مكانى بين المشروعات الصناعية والتجارية المختلفة ، ذلك التقارب الذى شكل البداية الحقيقية للنويات الحضرية الصناعية ، وفى نفس الوقت بدأت التكنولوجيا الزراعية تحقق تقدما ملموسا ، مما أدى الى رفع الانتاجية الزراعية وبالتالى تقليل عدد العمال الزراعين الذين مالبثو أن اتجهوا للعمل فى قطاعات أخرى .

وفى ضوء هذه الاعتبارات يمكننا فهم المنطق الكامن وراء الهجرة الريفية - الحضرية فى معظم الدول الأوربية . وماترتب على ذلك من تغير فى نمط التوازن الريفى الحضرى الذى ظل قائما لقرون عديدة ، ففى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين انخفضت نسبة السكان الريفيين انخفاضا ملحوظا فى

---

(١) Clark Kerr, J. others. industrialism and industrial man., Leineman Educational Book. Ltd. Landon. 1960. P 202.

دول كانجلترا والسويد وبلجيكا . على أن معدلات زيادة التحضر لاترتبط ارتباطا لانهائيا بمعدلات النمو الاقتصادى ، إذ أن مثل هذا الارتباط قد يشتد قوة فى المراحل الأولى من التصنيع، ثم ما يلبث أن يتعرض للثبات في المراحل التالية .

وفى كل الأحوال ، فإن معدلات التحضر فى الدول الصناعية قد انخفضت انخفاضاً كبيرا بفضل التقدم التكنولوجى والنمو الاقتصادى الهائلين اللذين تحققا خلال القرن العشرين ، وعند هذا الحد يتوقف الارتباط بين معدل التحضر ومعدل النمو الاقتصادى عن الاستمرار فى الارتفاع ، أما تفسير ذلك فمتاح ويسير لان المناطق الريفية فى الدول الغربية لم يعد لديها فائضا سكانيا تصدره إلى المدن ، كما أن النمو السكانى الهائل الذى طرأ على ضواحى هذه المدن قد جعل من الهجرة الريفية ـ الحضرية امرا صعب التحقيق ، وهكذا بدأت المدن الغربية تشهد توازنا دقيقا بين اعتبارات النمو الحضرى ومتطلبات التنمية الاقتصادية ، وهو التوازن الذى طالما افتقدته هذه المدن خلال القرن التاسع عشر (١)

الشئ الملاحظ تزايد سرعة نمو المدن الكبرى جاء نتيجة لنمو الصناعات الكبرى وزيادة عدد العمال بالاضافة إلى التحسن المستمر فى وسائل النقل وطرق المواصلات قد مكن المدينة من الاتساع نحو مصادر المواد الخام طلبا لها من ناحية وتصريفا لمنتجاتها من ناحية . وقد ذكر " برد" (pred) فى دراسته عن التصنيع فى مدينة جوتبرج (Gatoborg) بالسويد أن التجديدات والابتكارات التكنولوجية أدت إلى زيادة عمليات الانتاج الضخمة المرتبطة بالثورة الصناعية وأنخفاض الأسعاروزيادة الحاجة لتصريف هذا الانتاج بتوسيع أسواق التوزيع ومناطق الطلب، كما أن سهولة ومد السكك الحديدية أدى الى الانتشار الجغرافى للسلع والميل المتخصص الاقليمى فى الانتاج .

---

(١) السيد الحسينى : المدينة دراسة فى علم الاجتماع الحضرى . ص ١٤٨ ـ ١٤٩ .

وبناء على ما حدث للمدينة من تغيرات اجتماعية ظهرت بظهور المدينة الصناعية ـ أنساق عائلية ، وطبقية ، واقتصادية ودينية وترفيهية وتعليمية جديدة تختلف اختلافا ملحوظا عما يقابلها فى مدينة ما قبل الصناعة ، فالأسرة الزواجية على سبيل المثال ـ هى النموذج المثالى فى المدينة الصناعية وليست الأسرة الممتدة، ولقد أصبحت الأسرة الزواجية (النووية) هى النمط الشائع فى مدن الدول الصناعية [١] ، وهى تتمشى مع فلسفة الحرية ، كما أصبحت هذه الحرية تنعكس على اجيال الشباب فى توجهاتهم الدينية ، والتراجع عن ضوابط الكنيسة ، حتى أصبحت ممارسة الطقوس الدينية اختيارية ، مما حرر الكثير الالتزام الشديد نحو الولاء رجالها [٢] .

ويعتقد فريق من المفكرين الاجتماعيين إلى أن المدينة بظواهرها ونظمها وأنساقها تنمو فى اتجاه صاعد إلى الامام ، وهذا النمو فى نظرهم جزء من عملية طبيعية تحدث فى المجتمع ، وتشتمل على حركة تتجه من البسيط إلى المركب ، ومن المتجانس إلى غير المتجانس ، فالتغير الذى يحدث فى المدينة الصناعية يتمثل فى إتساع المدينة وإزدياد عدد السكان ، وارتفاع الكثافة السكانية ، وازدياد التمايز الاجتماعى بين الأفراد والجماعات ، وانتشار ظاهرة التخصص وتقسيم العمل على نطاق واسع ، ونمو التنظيمات والهيئات والمؤسسات التى تتألف منها المدينة .

ويرى هؤلاء أن المدينة الصناعيية كلما زاد نموها نمت بدرجة أكبر من التكامل والتنسيق ، بمعنى أن الأجزاء المكونة للمدينة تؤلف كلاً واحداً أو نسقاً متماسكاً رغم ما يوجد بها من تنافر واختلاف . ويذهب فريق آخر إلى أن المدينة لا تنمو فى اتجاه صاعد على الدوام وإنما تتعرض ظواهرها لبعض عوامل التأخر

---

[١] فهمى هويدى : مخاطبة الله بالفاكس مقال منشور بجريدة الاهرام ١٢ يوليو ١٩٩٤ .

[٢] Clak Kerr.J..Op. Cit., P.202.

والتفكك والانحلال ، كما تطرأ عليها ظروف قد تؤدى إلى تأخر أوضاعها الاجتماعية .

وإذا كانت اتجاهات النمو تزيد باستمرار مع زيادة الحركة الصناعية داخل المدينة فان هذا لا يعنى ارتباط التحضر بالتصنيع ، إلا أن المشاهد أن عمليات التصنيع فى المدن تجذب عدداً كبيراً من السكان للعمل فيها عن الأعمال الأخرى ، وهذا مما يشجع الأفراد قبول الازدحام فى المدن الصناعية ، وهذا ما يحدث فى المدن الجديدة من خلال التركيز السكنى حول المناطق الصناعية .

وعلى أى حال فإن التحضر يرتبط بالتصنيع فى كثير من النواحى ، ففى بعض البلاد سار التصنيع مع التحضر جنباً إلى جنب وتطورا معا ، وفى بعض البلاد الأخرى مازال التحضر والتصنيع يتطوران وينموان معاً ، وقد يزداد نمو أحدهما عن نمو الآخر ، ومن ناحية أخرى قد يوجد التحضر فى بعض البلاد دون أن يوجد التصنيع كما كان الحال فى الصين مثلاً ، إذ ظهرت المدن الكبيرة دون أن تقوم فيها أية صناعة ، كذلك قد يوجد التصنيع دون أن توجد درجة عالية من التحضر ومن ثم يتميز التصنيع عن التحضر ومن ثم لا يمكن استخدام أحد المصطلحين محل الآخر .

والواضح أيضاً أنه لا يوجد معامل ارتباط حتى بين التصنيع والتحضر ، ولو أنهما يحدثان كثيراً فى آن واحد ، ويوجد الكثير من الشواهد والأدلة عن وجود معامل ارتباط مباشر بين تطور التحضر وتطور التصنيع ، حتى قد يبدو أن أحدهما سبب للآخر ، رغم أنه لا يوجد غالباً تلازم واتفاق بين التصنيع والتحضر ، إلا أن العلاقة السببية بينهما ليست واضحة تماماً . أن العلاقة بين التحضر والتصنيع علاقة غير واضحة نوعاً ما ، لأن بعض خصائص التصنيع مثل تقسيم العمل الدقيق قد توجد فى كل البلاد الصناعية نسبياً ، وقد لا يكون من السهل وجود نظام لتقسيم العمل أكثر تفصيلاً وتركيزاً وشمولاً من ذلك النظام الذى يتطلبه نظام الطوائف الذى

استمر في الوجود عدة آلاف من السنين دون أن توجد منه أية درجة هامة من التحضر والتصنيع .

ومن ناحية أخرى توجد الأدلة والبيانات على تأثير التصنيع فى كثير من نواحى التحضر ، ويبدو أن التصنيع يؤثر تأثيراً هاماً للغاية ليس فى نسبة نمو المناطق الحضرية فحسب بل وأيضاً فى نمط النمو الحضرى ، وهذا يبدوا بشكل واضح من نسب ارتفاع مستوى التعليم وتنوع المهارات والمهن بين السكان ، الأمر الذى يشجع رجال الصناعة على إقامة مصانعهم فى المدن ولا يشجعهم على إقامتها فى القرى ، فضلاً عن الخدمات الأخرى المتوافرة فى المدن التى تحتاج إليها الصناعة والتى يحتاج إليها السكان أيضاً ، كما ترجع الرابطة القوية بين الصناعة والمدينة إلى أن الخصائص الاجتماعية للمصنع الصغير تشبه الخصائص الاجتماعية للمدينة من ناحة العلاقات الثانوية .

ومن كل ما تقدم يتضح أن ظاهرة التحضر السريع يرتبط بإنشاء المصانع فى مناطق التجمعات السكانية كما أن إنشاء المصانع يؤدى بطبيعة الحال إلى تكوين تجمعات السكنية وتكوين الشتلات الحضرية نتيجة قوى العمل والخدمات التى تفد إلى المناطق الصناعية ، وهذا ما يؤدى بدوره إلى التحضر السريع ، ولهذه الأسباب حاولت بعض البلاد الحد من تدفق الريفيين إلى المدن بإنشاء المصانع فى مناطق جغرافية متعددة . وبتعدد هذه المناطق تتعدد المناطق تكون نواة المدن الحضرية .

وخلاصة القول ، فإن التحضر فى الوقت الحالى يسبق التصنيع غالباً إلا فى بعض الحالات إذ تنشأ مدنا جديدة من أجل إقامة مصانع استراتيجية فى عمليات التصنيع وما يرتبط بها من مؤسسات متنوعة، ومن المشاكل الهامة التى تواجه البلاد النامية فى مدى قدرة التصنيع ـ على إيجاد فرص العمل وإمكانية التحضر ؟ ومتى

يستطيع ذلك ؟ ولذلك ينشغل المسئولون عن تخطيط التنمية الاقتصادية بتضييق الفجوة بين التصنيع والتحضر .

الواقع أن بعض المدن الكبيرة تطورت فى كثير من البلاد ـ كمراكز ثقافية وإدارية وحكومية ومن مراكز إدارية لملاك الأراضى الزراعية دون أن يكون لها علاقة ببناء المصانع .

وعموما فقد أدى التصنيع إلى ظهور فجوة كبيرة بين المدن الفقيرة والغنية، وذلك لأنه ساعد على ارتفاع مستوى المعيشة داخل المدينة الصناعية الحضرية والتى أدت إلى تخلف المدينة المجاورة التى ينزح (يهاجر) منها الأفراد إلى العمل الجديد الذى يعطى أجراً أكبر ومميزات أكثر حيث الضمان الاجتماعى وارتفاع الدخل القومى مما أدى إلى هجرة الأعمال الزراعية إلى الأعمال الجديدة .. الخ ، كذلك فإن التصنيع ساعد على فرض وظائف جديدة داخل المدينة ، ومنها وظائف النساء داخل المصانع المنتشرة فى المدينة ، وبناء على ذلك انتشرت ظاهرة ارتفاع الكثافة السكانية داخل المدن الصناعية عن غيرها من المدن غير الصناعية (١) .

ومع كل ذلك لا نستطيع أن نغفل ما أسفر عنه نمو المدن بشكل عام من مشكلات أخرى ترتبط بنقطتين جوهرتين ، **الأولى** ، وتتمثل فى أبسط حقوقه وهى الايواء السكنى فى المدينة ، والثانية ، تأثير التلوث البيئى على حياته داخل بناء المدينة . النقطة الأولى وتبدو فى تقرير صريح لمركز الأمم المتحدة للمستوطنات البشرية (١٩٩٥) يشير إلى أن نصف مليار شخص يعيشون فى مختلف مدن العالم المتقدم والنامى على حد سواء دون مأوى أو فى مساكن وضيعة ، وهى مشكلة متزايدة تهدد البنيان الاقتصادى والاجتماعى لدول كثيرة .

---

(١) Margan Sant., Industrial Movement and Regional Development, The British Case, London Pergaman, Press , 1975 , P. 190 .

وأضاف التقرير أن نقص المساكن وسوء أحوال السكان ، وهما من نتائج التوسع الهائل للمدن ، يهددان حياة الناس . بالاضافة لذلك فإن المساكن التى لا تفى بالمعايير المطلوبة والحياة الامنة للسكان . أما مشكلات الصرف الصحى فى المدن الكثيفة السكان فهى مسئولة عن وفاة عشرة ملايين شخص فى مختلف أنحاء العالم كله ، وحدد التقرير المدن التى تعانى من مشكلات سكانية وهى بومباى بالهند ٢٧,٤ مليون ، ولاجوس فى نيجيريا ٢٤,٤ مليون وشنجهاى فى الصين ٢٣,٤ مليون نسمة ، دجاكرتا باندونيسيا ٢١,٢ مليون ، وساوباولو بالبرازيل ٢٠,٨ مليون، وكراتش فى باكستان ٢٠,٦ مليون ، وبكين فى الصين ١٩ مليون وفى بنجلاديش ١٩ مليونا ، ومكسيكو فى المكسيك ١٨,٨ مليون (١) .

وعند **النقطة الثانية** ، نجد أن مظاهر التلوث الناتج عن احتراق الوقود من عشرات الالاف من محركات السيارات ومداخن المصانع فى المدن الصناعية قد تحول إلى غازات سامة تنتشر فى أجواء المدينة ، وحينما تتفاعل كيمائياً مع الأشعة فوق البنفسجية يبتكون الضباب الدخانى ، وتظهر مثل هذا الضباب فى أجواء المدن الكبيرة المزدحمة بالسكان مثل نيويورك ، والقاهرة ، وسيدنى ، ومن أهم تأثير هذا التلوث احتقان الأغشية المخاطية ودمع العيون ، والسعال ، والاختناق فى بعض الأحيان ومن أمثلة حالات التلوث الحاد ما حدث فى مدينة لندن عام ١٩٥٥ ، فقد تغطت المدينة بسحب كثيفه من الضباب الدخانى عده أيام ، أسفر عن وفاة ما يقرب من ٤٠٠ شخص من سكان المدينة ، بالاضافة إلى تعرض نسبة كبيرة من السكان لأضرار الجهاز التنفسى ، وما حدث فى لندن من تلوث بيئى تعرضت له مدينة طوكيو عام ١٩٧٠ ، وتنتج عنه إصابة ٨٠٠٠ شخص من سكان المدينة بالتهابات شديدة فى العين والأنف والحنجرة ، وأصيب غيرهم بمتاعب فى صدورهم وأجهزتهم التنفسية ، كما سبق وأن شهدت احدى المدن الصناعية بولاية بنسلفانيا

---

(١) الأهرام : ٧ نوفمبر ١٩٩٥ ، العدد ٣٩٧٨٢ .

بالولايات المتحدة نفس الظاهرة التى أدت إلى اصابة نحو ٦٠٠٠ شخص بمتاعب فى أجهزتهم التنفسية من مجموع سكان المدينة البالغ عددهم ١٤,٠٠٠ الف مواطن توفى منهم عشرون شخصا .

ومن الملاحظ أن تأثير الهواء الملوث ، يتفاوت بين شخص وأخر ، حسب حجم التلوث وفترته الزمنية .

والواضح من القضيتين السابقتين أن المشكلة ليست فى قراءة البيانات ، والتفرعات الأكاديمية حول المدينة وعمليات التحضر ، وإنما المشكلة أصبحت محدده فى سؤال ، وماذا نفعل من أجل حياة سكان المدينة (١) .

وهو سؤال مفتوح يبحث عن إجابة الباحثين !

---

(١) أحمد مدحت اسلام : التلوث مشكلة العصر ، عالم المعرفة ، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والأدب ، الكويت ، العدد ١٥٢ (١٩٩٠) ص ٣٧ .

المبحث الثانى

التحضر فى الدول النامية

بدأ الاهتمام بقضايا التحضر فى الدول النامية يأخذ شكلاً أكثر تبلوراً خلال الستينيات من هذا القرن بعد أن ظل موضوعاً مهملاً سوسيولوجياً قبل ذلك الوقت ، وكان اهتمام علماء الاجتماع منحصراً فى دراسة وتحليل الفروق بين المجتمعات الريفية الحضرية بصورة مطلقة ابتداء من كتابات الرواد الأوائل خلال القرن التاسع عشر وحتى منتصف هذا القرن ، حيث شهد القرن التاسع عشر العديد من المحاولات السوسيولوجية والتى تناولت مفاهيم التغير الاجتماعى والنمو والتقدم وذلك من خلال كتابات بعض رواد علم الاجتماع الذين حاولوا من خلالها تحليل أنماط حياة المجتمعات فى ثنائيات تظهر الفروق بين الريف والحضر وبين المجتمعات البسيطة والمجتمعات المعقدة ، ومن أشهر هذه الكتابات ثنائية " تونيز " عن المجتمع البسيط الذى تسوده علاقات أولية قرابية والذى يسميه Gemeinschaft مقابل المجتمع الذى تسوده علاقات ثانوية تعاقدية فيه والذى يسميه Gesellschaft وثنائية أميل دور كايم التى تفرق بين مجتمع يقوم على التضامن الآلى Mechanical Solidarity وآخر يقوم على التضامن العضوى Organic Solidarity (١) .

كذلك يقارن " ماكس فيبر " بين نماذج من المجتمعات التى تسودها العلاقات التقليدية Translational Type والنماذج العقلانية ، ولعل من أشهر الثنائيات ثنائية ردفيلد عن المجتمع الشعبى الصغير Folk والمجتمع الحضرى المتمثل فى شكل المدينة التى تسودها الحضارة ، حيث يسود الأول العلاقات الأولية والمشاعر الحميمة المترابطة فى مقابل العلاقات الضرورية التى تميز المجتمع الآخر .

---

(١) انظر : مقال محمود عودة فى كتاب ميادين علم الاجتماع ، محمد الجوهرى وآخرون ، دار المعارف بمصر، ط أولى ، ١٩٧٠ ، ص ١١٣ .

وقد ظل هذا الاتجاه سائداً فى أفكار علماء الاجتماع حتى الأربعينيات من هذا القرن ، حيث بدأ الاهتمام يتوارى تدريجياً ليحل محله اهتمامات علماء الاجتماع بمشاكل المدن الحديثة فى ظل التطور الصناعى والتكنولوجى السريع الذى شمل العالم الغربى بعد الحرب العالمية الثانية ، والذى طغى خلاله نمط الحياة الحضرية على الحياة الريفية وخاصة فى الدول المتقدمة فى أوروبا وأمريكا .

أما المقابلة بين أنماط المجتمعات فقد أخذ شكلاً مغايراً للثنائيات الكلاسيكية حيث ظهر الكثير من الأفكار التى تحاول تحليل ووصف أنماط المجتمعات النامية مقابل مجتمعات غرب أوروبا .

ففى الخمسينيات من هذا القرن ظهرت نظريات تذكرنا بالنظريات التطورية والثنائية الكلاسيكية التى شهدها القرن التاسع عشر ، حيث تتناول تلك النظريات بالدراسة والتحليل عوامل ومراحل التطور والنمو الذى سارت فيه دول العالم المتقدم فى غرب أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية والتى تحولت فيها المجتمعات من أنماط تقليدية أو شعبية إلى أنماط حضرية أكثر تقدماً وأكثر تعقيداً ، مقابل أنماط دول العالم الثالث وأغلبها من دول المستعمرات والتى بدأت فى التحرر السياسى وبدأت تستعد لمرحة جديدة من تاريخها [١] . ولذلك نجد " رستو " مثلاً يصف مرحلة الانطلاق Take Off والتى ينبغى أن تصل إليها دول العالم الثالث كشرط مسبق للتحول من مجتمعات تقليدية بسيطة إلى أخرى متحضرة ومتقدمة . كذلك ظهرت نظريات سيوسيولوجية تصف التطور الاجتماعى والاقتصادى الذى تشهده الدول النامية فى ضوء متغيرات التطور المكانى [٢] وكان لـ " فريد مان " Fried mann ١٩٦٠ الفضل فى جمع العديد من الأفكار التى صاغ منها نموذجاً تطورياً

---

(١) Desai, A. R.. Essays on Modernization of Underdeveloped Societies (ed). Volume one. Hummunities Press. New York 1976 , P. 404 .

(٢) Rostow W.. The Stages of Economic Growth Anon Communist., Manifesto Cambridge. 1960 . P. 16 .

للتنمية الاقتصادية والتغير المكانى ، فقد قام بدمج أفكار ميردال (١٩٥٧) وهيرشمان (١٩٥٨) والتى تناولت العلاقة بين قوى السوق والتباين الاقليمى وكذلك النماذج العامة للتنمية الاقتصادية عند رستو (١٩٦٠) وبربيش Prebisch (١٩٥٠) وأيضاً استراتيجيات التخطيط الاقليمى عند إيزارد Isard ١٩٦٠ ورودين Rodwin ١٩٧٣ .

والواقع إن إسهامات هذه النماذج استطاعت أن تشكل نظريات معيارية بسيطة للتنمية المكانية فى الدول النامية ، إلا أنه يكون من المفيد دراسة هذا النموذج لاشتماله على الكثير من الأفكار السائدة حول التنمية المكانية والاقتصادية التى تبناها الكثير من علماء الاجتماع والتنمية ، فى الستينيات من هذا القرن حتى اليوم . لذلك فإن انتقاء هذا النموذج سوف يساعدنا على أن نفهم بشكل أفضل بعض التعميمات التى أدت إلى ظهور النمو الحضرى ومظاهر التباين الأقليمى فى كثير من بلدان دول العالم الثالث .

إذا تأملنا هذا النموذج نجده يشتمل على أربعة مراحل تسير تبعاً لتطور النسق المكانى بدءاً من التوزيع العشوائى للسكان فى مناطق الدول المستعمره وحتى النسق الحضرى والأقليمى المتكامل فى الدول المتقدمة ، ولتوضيح ذلك يكفى أن نشير إلى كل مرحلة على حدة .

فالمرحلة الأولى من المراحل الأربعة تقدم تصوراً تاريخياً للمناطق السكانية المهملة فى ظل استعمار اقتصادى يستخدم هذه المناطق فى الانتاج الزراعى والاستخراج التعدينى . وفى ضوء هذا الانتاج تنمو المراكز الحضرية التى تقوم بإدارة الانتاج وتصديره فى إطار سياستها الخارجية .أما المرحلة الثانية فتتميز ببداية عملية التصنيع وتكثيف الانتاج المتنامى للاستثمار فى مدينة أو مدينتين ، وبهذا تتزايد مظاهر التباين الحضرى بين مناطق الانتاج الصناعية ومناطق الانتاج

الزراعية ، وفى ضوء عملية التصنيع تشهد مراكز الانتاج نمو حضرياً يرتبط اقتصادياً مع هذه المراكز ، والمحصلة النهائية هو نمو مدن الانتاج .

تأتى بعد ذلك المرحلة الثالثة ، التى تتميز بالنمو الصناعى والوعى السياسى وهما يتلازمان بيم المحيط ومركز الثروة ، وبقدر الوعى السياسى تتجه الحكومات الوطنية إلى برامج التنمية فى المناطق الصناعية ، وهى برامج تتمشى مع الميكانيزمات الاقتصادية فى هذه المناطق . والواقع أن تأثير التنمية فى هذه المناطق يبدو فى ارتفاع الدخل القومى واقتصاديات السوق المتنوعة التى تنعكس على النشاط الزراعى فى المناطق المحيطة بمدن الصناعة ، وفى النهاية يتضاءل التباين بين مناطق المدن الصناعية ، ومناطق المراكز الزراعية .

وفى المرحلة الرابعة والأخيرة ، يتضح نمو اقتصاد المناطق فى شكل يتكامل فى جهود المجتمع مع سياسة الدولة ، وفى ضوء هذا التكامل ينحصر الخلل الاقتصادى بين المناطق ، وينشأ توزيع حضرى متوازن بين المناطق التى تتنامى بفعالية مع رأس المال الوطنى ودعم الاقتصاد الحكومى .

وهكذا يتبين من نموذج " فريد مان " أنه نموذج تصورى ومعيارى فى وقت واحد ، فهو يعجز عن تناول اطروحات التفاوت بين مناطق دول العالم الثالث وعلل تخلفها من ناحية المحيط السكانى ، وأساليب الانتاج وسياسة التعليم للمشاركة السياسية (١) . ومن هنا تبدو جوانب الضعف فى هذا النموذج سواء من حيث كونه وضعاً للماضى أو من حيث كونه دليلاً على الايديولوجية السياسة .

الواقع أنه ليس من الصعب علينا تفسير النمو الحضرى الذى تشهده دول العالم النامى منذ مطلع القرن التاسع عشر إذا ما أدركنا أن هناك عوامل عديدة أسهمت فى نمو هذه المدن ومن أهم هذه العوامل علاقة المكان بالسكان ، وتجدر الإشارة أن أهمية المكان هنا ترتبط بالنشاط الاقتصادى وجاذبيته لقوى العمل .

---

(١) Alan Gilbert & Vosef Gugler, op Cit., PP. 31 - 35 .

والواقع أن الجوهر الحقيقى للبناء الاقتصادى للمكان يرتبط بالتركيب السكانى لقوى العمل .

ومنذ مطلع القرن السابق والعالم يشهد نمواً سكانياً فى مدن الحضر ، ومعنى ذلك أن العالم قد بدأ يشهد ثورة حضرية ، وتبدو ملامحها بشكل واضح فى مدن دول العالم الثالث .

الواضح أن عملية التمركز فى المدن قد تسارعت بصورة خاصة بعد الحرب العالمية الثانية ، اليوم يعيش فى مدن آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية أكثر من ٥٠٪ من مجموع سكان مدن العالم ، وهناك اعتقاد سائد بأن عملية هذا النمو ارتبطت بنمو التجارة العالمية ، فنجد مدينة " ساوباولو " قد نمت على أساس تجارة البن ، وسنغافورة على تجارة المطاط ، وكالكوتا على تجارة الجوت والقطن والغزل والنسيج ، ومدينة بونيس أيرس على تجارة لحوم الضان ، والصوف ، والحبوب الغذائية ، أما كون ارتباط المدن العاصمة مرتبطة بالتصدير فهذا أمر نسبى يختلف بقدرة هذه المدن كمراكز سيطرة فى حركة التجارة العالمية ، وفى حالات قليلة كان نمو المدن يرتبط بسيطرة الانتاج ، والنقل ، وكان عائد الأرباح يتوزع ما بين مراكز هذه المدن وبمعنى أوضح يوزع على فئات المستفيدين (١) .

وليس من قبيل المصادفة أن عددا كبيرا من مدن الصادرات الأولية فى المدن الساحلية المستفيدة عادة من النمو الحضرى على زعم أنها تقع قريباً من مراكز الانتاج الأولية ، أو لأنها تحكم القنوات الرئيسية للتجارة . وفى أمريكا اللاتينية وأفريقيا لا تعتبر مجارى الأنهار ـــ غالباً ـــ من قنوات ملاحة التصدير الرئيسية ، لذلك اتجهت بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة إلى بناء الخطوط الحديدية فى هذه الدول لنقل صادراتها ، هذا بخلاف الأهداف الاستراتيجية التى أتبعتها بريطانيا فى الهند فى شبكة السكك الحديدية إلى أطرافها لتحقيق هدفين الأول

---

(١) Ibid., Op. Cit., P. P. 31 - 35 .

نقل الصادرات من مناطق الانتاج إلى الموانى الكبرى ، والهدف الثانى هو الهيمنة الاستعمارية على شبه القارة الهندية .

والواقع أن ظهور الموانى الكبرى كان أحد أسباب السيطرة الاقتصادية لهذه الموانى فى مجال التجارة العالمية ، إلا أن الشئ الملاحظ أن بعض الموانى لم تكن أهميتها مرتبطة بقربها من مصادر الانتاج الأولى بقدر ماكانت منفذاً لهذه الصادرات، وعلى سبيل المثال أمريكا اللاتينية ، التى تبدو فيها العديد من العواصم تقع فى مناطق منفصلة عن مناطق الانتاج وطرق التصدير الرئيسية كفنزويلا ، التى يتم فيها إنتاج البترول وشحنه من مناطق تقع على بعد مئات الأميال من العاصمة كاركاس ، وفى شيلى معظم انتاج النحاس يتم فى إقصى شمال البلاد ، وذكر هذه الأوضاع المتناقضة ليس الهدف منه سوى تأكيد النقطة التى أوردناها سابقاً وهى أن المسألة الحاسمة فى الهيمنه هو السيطرة على فائض الأرباح الناجم من التجارة العالمية ، ولو نظرنا إلى فنزويلا ، سنجد أن عائداتها من بيع البترول كانت تصب فى خزائن الدولة ، مما أدى إلى تضخم البيروقراطيةفى العاصمة الوطنية ، وقد أدى تدفق الأموال إلى تركز الجماعات ذات الدخل المرتفع فى المدينة وإلى إزدهار تجارة الواردات . كذلك الأمر فى بيرو قبل ذلك بقرن تقريباً ، حيث أدت التجارة فى الأسمدة الطبيعية إلى حدوث توسع سريع فى مدينة ليما ، ففى غضون بضع سنوات قليلة كان قد تم إنشاء سوق كاملة للبيع وبناء مجزر ، كذلك تم إنشاء نظام جديد للمياه وافتتاح نظام للاتصالات البرقية ، وهكذا بدأت الشوارع والميادين الجديدة ظهر ، وازدادت المنطقة الجغرافية للمدينة إتساعاً وإزدحاماً بالسكان وفى بيرو كما هو الحال فى كل مكان كانت سيطرة بيروقراطية الدولة والمصالح الخاصة التى تتركز فى العاصمة الوطنية ، على فائض التجارة العالمية ، هو العامل الحاسم فى هيمنة المدينة الأولية على المدن الأقليمية (١) .

(١) Ibid. . Op. Cit . P 27

وهذا يقودنا إلى إبراز أهمية هيمنة مدينة رئيسية على باقى المدن فى الدولة الواحدة ، وفى هذه المدينة المهيمنة تبدو مظاهر قوتها فى مركزيه البنية الأساسية للعمران والمؤسسات الاقتصادية والمراكز التعاونية ، والسياسية ، وصناع القرار ، ومن الطبيعى أن تنعكس هذه المركزية على نمو المدينة .

وحينما ننظر إلى نماذج من دول العالم الثالث لهذه المدن نجد على سبيل المثال فى السنغال ، ما يقرب من ٨٠٪ من المشروعات الصناعية ، ٦٠٪ من عدد الموظفين ، ٨٠٪ من الأطباء يتركزون فى مدينة " داكار " مقابل ١٦٪ من جميع السكان ،. وفى باكستان نجد أن كراتش تستأثر وحدها على ٤٢٪ من أنشطة الصناعة ، كما تستفيد من ٥٠٪ من الايداعات المصرافية للبلاد ، وفى عام ١٩٧٥ كانت المكسيك العاصمة تتعامل فى حدود ٤٦٪ من جميع المبيعات التجارية ، ٥٥٪ من الأنشطة الخدمية ، ٥٢٪ من الانتاج الصناعى مقابل ٢٤٪ من إجمالى السكان .

وفى ضوء هذه النماذج يمكن القول أن المدن المهيمنة تضفى مركزاً اجتماعياً نامياً على بعض الفئات السكانية باستمرار كما يتيح لها فرص أكثر إتساعاً فى النمو الاجتماعى والاقتصادى والتعليمى والصحى ،بالمقارنة للمدن الأخرى التى لم يلمس سكانها نصيبهم من هذا النمو . وهذا ما يؤدى بالضرورة إلى إتساع الهوة بين اقتصاد الصناعة والزراعة ، واشتداد الفروق بين المدينة المهيمنة والمدن الأخرى التابعة .

إن الشروط الاجتماعية لدراسة النمو الحضرى بين المدن فى الدولة الواحدة قد لا يكشف عن حقيقة العوامل المؤدية إلى التضخم السكانى ، ونسبة الدخل القومى والهجرة الريفية الحضرية والتسرب التعليمى والأمية ، والأوضاع الصحية بالنسبة للسكان ، طالما أن مدينة واحدة تستأثر برعاية الدولة لسكانها دون باقى المدن (١) .

---

(١) Ibid., P 28

المشكلة السكانية :

ثمة حقائق دافعة ، وفى نفس الوقت مذهلة ، ولا يمكن تجاهلها عن فهم المشكلة السكانية فى عالم اليوم ، وحينما نسترشد بمؤشرات تقرير البنك الدولى (١٩٩٤) نجد أن سكان المدن يتزايدون بشكل سريع يزيد بمعدل مليون شخص كل أسبوع ، ويؤكد " لويس بريستون " رئيس البنك الدولى أن سكان المناطق الحضرية فى العالم أصبحوا يماثلون عدد سكان المناطق الريفية ، وأن سكان الحضر فى الدول النامية يتزايدون بنسبة ٣٨٪ ويفترض وصول عددهم إلى ٣,٦ مليار نسمة عام ٢٠٢٠ . وفى نفس الوقت يشير التقرير الذى أعدته وكالة التمويل الدولى للتنمية الزراعية التابعة للأمم المتحدة عام ١٩٩٢ إلى أن عدد فقراء الدول النامية قد زاد بنسبة ٤٠٪ خلال العشرين عاماً الماضية ، وأن أكثر من نصف سكان ١٤١١ دولة يبلغ عددها ٤ مليارات نسمة يعيشون فى مناطق ريفية ـ والباقى فى المدن ـ وأن مليارا يعيشون تحت خط الفقر وأن ما بين ١٥ ـ ٢٠ مليون نسمة يموتون كل عام بسبب المجاعة وسوء التغذية . وطبقاً لنفس التقرير فقد جاءت سرى لانكا وزامبيا ومالى والبرازيل وكينيا والصومال والسودان وبوركينيا فاسو فى المرتبة الأولى من الدول التى تزيد فيها نسبة الفقر (١) .

وإذا أمعنا النظر فى ملامح الصورة الراهنة لسكان هذه المدن فسوف تتكشف لنا سريعاً تلك الظلال القاتمة التى يتم فى طياتها هذا النمو السكانى المرتفع من ناحية حالة الفقر والأعداد الهائلة من العاطلين عن العمل ، والهجرة النازحة من الريف فيضيفون إلى رصيد العاطلين رصيدا آخر من المشاكل التى تبدو فى أحزمة الفقر فى ضواحى المدن ، ونمو الأحياء المتخلفة .

---

(١) الأهرام ، ١٩ سبتمبر ١٩٩٤ .

*** التركيب الاجتماعى للسكان :**

يتميز التركيب الاجتماعى لسكان بلدان آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية بتنوعه ويزداد تعقيد هذه التركيبة فى التباين العمرانى والدينى والطبقى للمجتمع وانعكاسه على حياة المدن ، والواقع أن أغلب هذه البدان تقودها السيطرة العرقية التى يتزعمها زعماء وشيوخ القبائل ، وهؤلاء كانت سلطتهم محددة فى الماضى ومستمدة من مكانتهم الشخصية والبناء الثقافى للقبيلة ، وفى ظروف الاحتلال تحول هؤلاء الزعماء إلى أنصاف اقطاعيين وأنصاف موظفين حكوميين يستمدون سلطتهم من الدولة ، أى يسعون إلى السيطرة على سياستها . ولهذا نجد تأثيراً بالغاً لهؤلاء فى الحياة الاجتماعية والسياسية لمجتمعاتهم .

وفى ظروف ضعف تطور العلاقات الاجتماعية غالباً ما يكون الانتماء العرقى أقوى من الانتماء الدينى والوطنى ، فهو من الموروثات الثقافية ـــ أى الانتماء العرقى ـ التى يتعاقب بين الأجيال ، وتتفاعل رواسبه مع الأحداث .

ومن الظواهر التى فرضت نفسها على حياة المدن فى هذه البلدان هو الصراع العرقى ، وهو صراع مازال يحمل فى طياته الانتماء القبلى الذى يلعب دوراً حاسماً فى تطور الحركات الاجتماعية التى تحاول السيطرة على مقاليد السلطة. وتؤكد الشواهد الحالية أن معظم هذه الصراعات تنصب على حياة المدينة فى أشكال الاغتيالات والمعارك العسكرية التى تصيب سكان المدن وفى نفس الوقت تحطم بنيتها العمرانية ، وهذه الشواهد تبدو لنا حتى عام ١٩٩٦ فى كابول فى أفغانستان ، والصومال وبوجمبورا فى بورندى وكيجالى فى رواندا ، وبالمناسبة فإن الصراع فى كيجالى بين قبائل الهوتو ٩٠٪ والتوتسى ٩٪ أدى إلى هجرى حوالى مليون من رواندا إلى جوما فى زائير ، مما أدى إلى مشاكل معقدة لهذه المدينة من ناحية زيادة سكانها وانتشار الأمراض وتلوث البيئة ومظاهر العنف والإجراء

* التباين الاقتصادى :

وتؤكد شواهد الاحصائيات الدولية (١) أن غالبية بلدان آسيا وأفريقيا هى بلدان زراعية متخلفة ويعمل سكانها بصورة رئيسية فى الزراعة التى تشكل أهم قطاع اقتصادى وأكثرها تخلفاً وبدائية ، وبمقارنـة قوى العمل الزراعى فى الدول النامية إلى نسبة قوى العمل فى أوربا الغربية باستثناء أسبانيا والبرتغال ، نجدها تصل إلى ٢٦٪ من المجموع الكلى للعاملين في هذه الدول ، وفى الولايات المتحدة الأمريكية نجدها تصل إلى ٧٪ وفى كندا تصل إلى ١١٪ ، أما فى بلدان أسيا وأفريقيا فتزيد عن ٦٦٪ من القوى العاملة ، أن الأرقام التى توافرت فى التقرير السابق تؤكد أن زراعة بلدان آسيا وشمال أفريقيا تستوعب ٥٠ ـ ٨٠٪ من مجموع السكان العاملين فى حين أن المشتغلين فى ميادين الصناعة لا تزيد عن ١٠٪ فى معظم هذه البلدان ، وأما فى بلدان أفريقيا الاستوائية فإن نسبة العاملين فى الصناعة ضئيلة جداً .

ويختلف الوضع قليلاً فى بعض بلدان أمريكا اللاتينية ، ففى أفريقيا كانت دخول المستوطنين الأوروبيين حتى وقت قريب تزيد عشرات المرات عن دخول السكان الأصليين ، وفى كثير من الحالات لاتزال هذه الظاهرة موجودة حتى الآن ، أن متوسط الدخل السنوى للسكان غير الأفريقيين كان أكثر من متوسط الدخل السنوى للسكان الأفريقيين فى كينيا بثلاثين ضعف (١٩٥٧) وفى أنحاء أفريقيا الوسطى بأربعين ضعفاً (١٩٥٦) وفى الكونغو البلجيكى بسبعين ضعفاً (١٩٥٧) وهناك فروقاً هائلة فى مستويات دخول فئات السكان المختلفة لاتزال قائمة حتى الآن فى معظم البلدان الأفريقية ، وجدير بالذكر أنه تبعاً للتطور الرأسمالى ونمو نخبة أفريقية رأسمالية تبدأ هذه الفروق الاجتماعية بتجسيد عدم المساواة أكثر فأكثر بين السكان الأفريقيين أنفسهم .

(١)Year Book of Labour Statistics. Geneva 1966 , P. 56

وهناك فروقاً واضحة جداً بين الفئات الاجتماعية العليا والدنيا في بلدان أمريكا اللاتينية ، ولهذا الفروق هنا طابع طبقي معين .

فإحصائيات اللجنة الاقتصادية التابعة للأمم المتحدة تشير إلى الفئة العليا الغنية التي لا تشكل أكثر من ٢٪ من سكان هذه البلدان تستأثر به ١٩٪ من الدخل القومي ، في حين لا يصيب الغالبية الفقيرة (حوالي نصف السكان) أكثر من ١٦٪ ، ولهذا التفاوت أبعاد أكبر في بعض هذه البلدان .

ففي سنة ١٩٥٤ كانت حصة ٣٪ من سكان شيلي تعادل ربع دخول جميع السكان وبالمقابل فلم يحظ ٥٥٪ من السكان بأكثر من ١٦٪ من مجموع هذه الدخول وفي الأكوادور كان ١٧٪ من الدخل القومي من نصيب ١٪ من السكان في حين لم ينل ٧٨٪ منهم أكثر من ٥٥٪ من هذا الدخل .

وفي البلدان المتخلفة الأخرى من العالم الرأسمالي تكونت أيضاً فئة صغيرة من أصحاب الامتيازات تجمع في أيديها الثروة والسلطة، ففي لبنان يستولي ١٨٪ من الأسر على ٦٠٪ من الدخل القومي ، في حين لا يصل نصيب الأسر الفقيرة جداً التي تعادل ٥٠٪ فأكثر نسبة لا تزيد عن ١٨٪ من الدخل ، وفي الهند يسيطر ١٠٪ من السكان على ثلث الدخل القومي ، أما الفقراء الذين يتجاوز عددهم نصف السكان فلا يحصلون علىأكثر من نسبة ٢٦٪ .

الواقع أن الفئات العليا الغنية التي تستأثر بأعلى حصة من الدخل القومي ليست متجانسة من حيث تركيبها الطبقي ، فالنخبة المسيطرة في هذه البلدان تتكون من طبقات وجماعات مختلفة مرتبطة ببعضها بشكل وثيق ، ومن المفهوم أن تركيبها ليس واحداً في مجموع البلدان . وفي معظم هذه البلدان تتمثل الطبقات السائدة بكبار الملاك والمرابين وبكبار التجار وما يسمى بالبروجوازية البيروقراطية كما تتمثل في بعض الحالات بالبرجوازية الصناعية والمالية الكبيرة (١) .

---

(١) فيكتور تياغو ننكو وآخرون : المرجع السابق ، ص ٤٧.

إن فئة الموظفين الثرية وصاحبة الامتيازات التى أصبحت تعرف باسم البيروقراطية أو البرجوزاية الكبيرة، أكتسبت سلطات ضخمة ، فقد احتلت المواقع التى كانت سائدة فى السابق احتكاراً للأوربيين وحافظت على الامتيازات السابقة ، بما فى ذلك الرواتب المرتفعة التى تفوق عشرات المرات دخول الموظفين من أبناء المجتمع .

من المتوقع ان تؤدى دراسة البيروقراطية فى اطار المركب الايكولوجى للسكان إلى نتائج مثمرة ، خاصة إذا وضع فى الاعتبار الصفات الجوهرية والكامنة للتنظيم كالحجم والتمايز والهيراركية ، وكلها تمثل صفات لنسق تنظيمى من بين السكان يقوم بنشاطات كعينة ، مع ذلك يحاول أن يكتسب تمايز خاص فى اطار وظيفته . إن عددا من العلماء يعتبرون مثل هذه البرجوزاية البيروقراطية بمثابة أعشاب ضارة فى نسيج المجتمع ، ذلك لأنها لا تمارس الوظائف البيروقراطية فى إطارها التنظيمى الرسمى ، فنشاطها يشوبه الرشوة والعمولات والكسب غير المشروع والمضاربات ، بيد أن هذه المظاهر ليست فى الدول النامية وحدها ، فقد سبق ممارستها فى النظم الرأسمالية الصناعية ، كما ترتبط أحياناً بالوظائف الحكومية التى كانت دائماً مصدراً هاماً من مصادر تراكم الثروات . ويمكن أن تتجسد السمات الخاصة هنا فى أن الوظيفة الحكومية والنشاط الاجتماعى فى البرلمان والأحزاب يكفلان الحماية الدستورية لهذه الفئات الطفيلية ، والواقع أن هذه الامتيازات تعكس وجودها على مستوى المنطاق السكانية والخدمات فى الأحياء التى يعيشون فيها مثل هذه الصفوات .

واضح من التركيب الاجتماعى والتباين الاقتصادى لسكان مدن العالم الثالث أنهما ينعكسا على أيكولوجية المدينة ، إلا أن هناك متغيرات أخرى تفرض نفسها داخل بناء هذه المدن كالخدمات الصحية والتعليمية والاقتصادية وهى خدمات مازالت تعانى من القصور والتخلف فى معظم المدن المهيمنة لهذه الدول لحساب

المدينة المهيمنة أو العاصمة . وعلى سبيل المثال نجد فى السنغال ما يقرب من ٨٠٪ من المشروعات الصناعية ، ٦٠٪ من الموظفين ، ٨٠٪ من جميع الأطباء يتركزون فى داكار مقابل ١٦٪ فقط لباقى السكان ، وفى باكستان نجد أن كراتش وحدها تحقق ٤٢٪ من القيمة المضافة الصناعية ، وتستحوذ على ٥٠٪ من جميع الايداعات المصرفية مقابل ٦٪ فقط لباقى السكان ، وفى عام ١٩٧٥ كانت المكسيك العاصمة تحتوى ٤٦٪ من قيمة المبيعات التجارية ، ٥٥٪ من الأنشطة الخدمية، ٥٢٪ من الانتاج الصناعى مقابل ٢٤٪ لباقى السكان (١) .

وفى مصر نستطيع أن نحدد ملامح الفجوة بين سكان الريف والحضر فى ضوء مؤشرات تقرير التنمية البشرية الذى أعده معهد التخطيط القومى عام ١٩٩٤، فالواضح منه أن نسبة سكان المدن الحضرية من إجمالى السكان يمثل ٤٤٪ ، وحينما ننظر إلى توزيع القوى البشرية بين الريف والحضر حتى عام ١٩٨٦ نجد أن نصيب الحضر من قوى العمل الزراعى ١٠,٣ بينما نجده فى الحضر يصل إلى ٥٨,٦٪، وبالنسبة للصناعة نجد أن قوى العمل فى الحضر تصل إلى ٢٦,٨٪ ، وفى الريف ٣٠,٩٪ . وبمقارنة المهن التعليمية والفنية نجدها فى المناطق الحضرية ١٧,٧٪ مقابل ٦,١٪ فى المناطق الريفية . والمتأمل فى بناء قوى العمل بين الذكور والإناث نجد نسبة الإناث فى الحضر تمثل ١٨,٦٪ وفى الريف ٦,١٪ ، النقطة الهامة فى التفاوت بين الحضر والريف ما يتصل بالفقر والبطالة .

الملاحظ من مؤشرات تقرير التنمية البشرية أن نسبة فقراء الحضر ٣٩,٧٪ وأن نسبة فقراء الريف ٣١,٦٪ ، كما أن معدل البطالة بين سكان الحضر تمثل نسبة ١٢,٤٪ بينما تصل لسكان الريف بنسبة ٩,٢٪ .

الواضح من مؤشرات التفاوت السابقة أنها نتيجة عوامل سياسية جاءت من خلال مجالات تعاقب الحكومات المستمرة التركيز لخلق مزيد من فرص العمل

---

(١) المرجع السابق ، ص ص ٢٣ – ٢٤ .

والاستثمارات والخدمات فى الحضر ، وهو ما أدى باستمرار إلى تدفق المهاجرين من الريف إلى الحضر للبحث عن فرص عمل ، واستطيان المدن ، لقد أدى عدم التخطيط العلمى بالتالى إلى مشكلات معقدة من ناحية الإسكان والمرافق ، وأنواع الخدمات [١] وانتشار العمالة الهامشية فى أحياء المدينة .

* العمالة الهامشية :

بالرغم من الأهمية العلمية لهذه الظاهرة وعلاقتها بنمو الأحياء المتخلفة فى المدن فما زال التعريف بها موضع جدل بين مختلف العلماء المهتمين بدراستها ، فالبعض يعرفها بالعمالة الرثة ، وأخرون يطبقون عليها العمالة المتسولة وفريق أخر يطلق عليها بالعمالة الجائلة ، والتعريف الأخير هو أقرب التعريفات فى الدراسات الأيكولوجية الحضرية . ومع أن هذه العمالة ينظر إليها فى الاحصاءات الرسمية على أنها غير مصنفة ، ولا ترتبط بفروع النشاط الاقتصادى المنظم ، ولا تشترك فى بناء قوى الانتاج الا أن خطورتها الاجتماعية تكمن ليس فى وجودها بل أساسا فى عجز القطاعات المنتجة عن استيعاب تلك الأعداد الكبيرة التى تتدفق سنوياً على سوق العمل ، ومن ثم لم يصبح أمام هؤلاء سوى الالتحاق بقطاع الخدمات الهامشية، ليشكلوا ما يمكن تسميته جيش البطالة الاحتياطى فى المدن [٢] : وهذا يعنى أن نشاطاً انسانيا غير منظم لا يخضع لأى شكل من أشكال التنظيم الرسمى . ويقصد بالرسمية هنا ذلك الشئ المكتوب والذى صدق عليه واضعو السياسة ، ولهذا

---

(١) معهد التخطيط القومى : تقرير التنمية البشرية ، الوحدة ، ١٩٩٦ .

(٢) محمود عبد الفضيل : تأملات فى المسألة الاقتصادية المصرية : دار المستقبل العربى . القاهرة . (١٩٨٣) ص ٤٧ .

نقر بوجود ما يسمى بغير الرسمية التى تتكون من كل أنواع السلوك الذى يخالف ما تنص عليه الصكوك الرسمية (١) .

وبطبيعة الحال فان فئة العمالة غير الرسمية والتى يصعب تصنيفها وفقا لمهن محددة تنتمى الى قطاع الخدمات الهامشية أو ما يسمى أحيانا بالبروليتاريا الرثة (Lumpen Proletariat) أو ما يطلق عليها بالعمالة الجائلة وهؤلاء ويتوزعون بين ماسحى الأحذية ، وجامعة النفايات والقمامة ، والحمالون والعتالون غير المنتظمين ، كذلك الأنشطة غير الواضحة وغير القانونية التى ترتبط باللصوصية وارتكاب الجرائم البسيطة أو الجسمية ، أو الأفراد المساهمين فى شبكة توزيع المخدرات وأعمال الدعارة والانحراف والبلطجة(٢) .

والواقع أن دراسة العمالة الجائلة كنموذج للعمالة غير الرسمية وجدت اهتماماً فى التراث السوسيولوجى للظواهر الاجتماعية ، وعلى وجه الخصوص فى اطار اهتمامات علم الاجتماع الحضرى والايكولوجيا الانسانية ، فاهتم " روبرت بارك " واتباعه بدراسة ظاهرة الانفصال الايكولوجى والاجتماعى بين جماعات مهنية مختلفة فى المدينة وأجروا دراسات عن مهنة العامل المتجول (The Hobo) والبائعة المتجولة والبواب والمقامر والراقصة ، وتمثل هذه الدراسات نماذج من الحياة المهنية فى صورتها السوية وصورتها غير السوية ، والذى يحدد صور المهن السوية وغير السوية هو ثقافة المجتمع وقيمه المتوارثة والمتعارف عليها (٣) .

هذا وقد أبدى علماء الاجتماع الحضرى والانثروبولوجيا اهتماما فائقا بدراسة العمالة الجائلة فى سياق العناصر الثقافية للعمالة الهامشية والأحياء المتخلفة

---

(١) Pfiffner. J. M. & Sherwood. F. P., Administrative, organization, Englewood Cliffs., N.J., 1960. p.226.

(٢) محمود عبد الفضيل : المرجع السابق . ص ٣٧ .

(٣) كمال الزيات : علم الاجتماع المهنى . مدخل نظرى . مكتبة نهضة الشرق . القاهرة . (١٩٨٠) ، ص ص ٣٠ ، ٣١ .

وثقافة الفقر ، ومن أبرز العلماء الاجتماعيين اهتماما بالأحياء المتخلفة وثقافة الفقر "أوسكار لويس Lewis " الذى ارتبط اسمه بمصطلح ثقافة الفقر (Culture of Poverty) . وتتألف هذه الثقافة من مجموعة من العناصر الشائعة فى الأحياء المتخلفة والفقيرة ، وأهم هذه العناصر : ارتفاع معدلات الوفيات ، وانخفاض متوسطات الأعمار ، وانتشار الأمية ، والمشاركة الاجتماعية والسياسة الضعيفة ، والحرمان من الخدمات الحضرية ، وقلة الانتفاع بالتسهيلات والمرافق التى تقدمها المدينة ، وانخفاض مستوى المهارة ، وعدم وجود مدخرات وكثرة الاقتراض ، وعدم توافر مخزون منزلى من المواد الغذائية ، والافتقار الى الخصوصية داخل المسكن ، وكثرة اللجوء الى العنف بما فى ذلك ضرب الأطفال وكثرة هجرة الزوجة والأطفال ، وتمركز الأسرة حول الأم ، والشعور بالاستسلام والقدرية ، وانتشار عقدة الاعتزاز بالذكور عند الرجال ، وعقدة التضحية عند النساء ، ولقد توصل "لويس " الى هذه العناصر بعد عدة دراسات حقلية أجراها على مجموعة من أسر الأحياء المتخلفة فى بورتوريكو ، ثم توصل بعد ذلك الى حقيقة أساسية هى : أن الفقر يخلق ثقافة خاصة به . بمعنى وجود عناصر مشتركة بين الفقراء أينما وجدوا[١] .

وفى ضوء دراسة " أوسكار لويس " نجد دراسة " الغامرى " تتناول نموذجين من العمالة الجائلة فى مجتمع متخلف أولهما يمارس عمليات بيع البضائع الرخيصة ، وثانيهما يعرف باسم الحرفيين المتجولين .

لقد كشفت نتائج هذه الدراسة عن طبيعة الروابط الاجتماعية وطريقة حياة هؤلاء فى أشكال الثقافة الفرعية التى تعطى لهذه المنطقة صفتها الهامشية داخل

---

(١) السيد الحسيلى : المدينة . المرجع السابق ، ص ١٨٤ .

البناء الحضرى . وتعمل هذه الثقافة على تعويق التكامل الاجتماعى بين الأسر الفقيرة المكون معظمها من هؤلاء وبناء المجتمع الكلى (١) .

ومن الصعوبات التى تواجه الباحثين فى دراسة أشكال هذه العمالة ما يتصل بتقدير حجمها ، لأن نشوئها وتطورها مرتبطان باختلال التناسب بين وتيرة سكان المدينة من جهة ، ووتيرة نمو الاقتصاد من جهة أخرى ، وأيضا نمو الصناعة بشكل خاص . ومن جهة أخرى يذهب علماء الاجتماع الحضرى الى أن تفسير ظاهرة ازدحام المدن بالعمالة الجائلة يرجع بشكل خاص الى الفيض النسبى للسكان . وهو ما يشير الى زيادة تدفق العاطلين عن العمل من الريف الى مدن الحضر للبحث عن فرص العمل ، خاصة وأن هؤلاء يعيشون على الدخل المؤقت على الصدفة ، ولهذا تتسم حياتهم بالبؤس والغموض وعدم الاستقرار .ولهذا السبب نجد أن نمو سكان المدن فى آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية مصحوب عادة بنمو فئة عمال اليومية والبائعين المتجولين (٢) . الذين يشكلون قطاعا عريضا لسوق العمل غير الرسمى ، وبصفة عامة يمكن القول بأن العمالة الريفية الوافدة الى المناطق الحضرية تشكل ضغوطا مكثفة على سوق العمل غير الرسمى .

فجاذبية حياة المدينة لسكان الريف فى معظم الأحوال جاذبية خادعة ، وفى معظم الأحوال يتحول سكان الريف الفقراء الى سكان مدن فقراء . ومن الطبيعى أن ينعكس ذلك على تضخم قطاع الأنشطة الهامشية والعمالة الرثة فى المناطق الحضرية . اذ أن جانبا هاما من قوة العمل فى هذه المناطق لا يرتبط بفروع النشاط الاقتصادى المنظم ، ولا يشترك فى تسيير عجلات الجهاز الانتاجى . وطالما أن قطاعى الزراعة والصناعة لا ينموان بالقدر الذى يسمح باستيعاب هذه العمالة

---

(١) محمد حسن الغامرى : ثقافة الفقر . درسة فى انثروبولوجيا التنمية الحضرية المركز العربى للنشر والتوزيع . الاسكندرية (١٩٨٠) ص ٨ ، ٩

(٢) فيكتور تياغونتكو . وآخرون . المرجع السابق . ص (١٩٧٤)

الريفية الحضرية . فان قطاع الخدمات يبدد أملها الوحيد . ومن ثم فان معظم الوافدين يقنعون بممارسة أى عمل يمكن الحصول عليه مهما كان مؤقتا أو تافها .

والملاحظ أيضا ، أن اعدادا كبيرة من العمالة غير الرسمية يمارسون أعمالا اخترعوها هم بأنفسهم ولأنفسهم وعينوا أنفسهم بها ، كما هو الحال مثلا بالنسبة لملاحظى السيارات فى مواقف الانتظار ، أو الذين يقدمون خدماتهم للناس دون أن يطلب أحد منهم هذه الخدمات ، أو مثل الباعة الجائلين الذين يحاولون أن يفرضوا على الناس سلعهم التافهة التى لا تتعدى فى كثير من الأحيان بعض أقلام الكتابة أو علب الكبريت والتى يتخذون منها أحيانا ستارا يمارسون من ورائه التسول(١) .

ويشير " كوستللو " الى هجرة العمالة الريفية الى المدن فى منطقة الشرق الأوسط على أنها تشكل شريحة للاقتصاد المنخفض وتقع فى أدنى السلم الأجتماعى، وفى نفس الوقت يستبعد امكان تسمية هؤلاء بالبلوريتاريا كما فى الغرب ذلك أن حركة الهجرة الى المدن فى الشرق الأوسط يغاير فى اتجاهه وأشكاله بناء البلوريتاريا فى أوروبا (٢) .

كما أن هذه العمالة التى تفتقر الى المؤهلات الفنية اللازمة للأعمال الصناعية ، والتى ترد فى بيانات التعدادات السكانية تحت ما يسمى بمهن " غير مصنفة " أو غير معينة " على أنها تمارس أنشطة تنتمى الى قطاع الخدمات الهامشية وتضم هذه الشريحة أولئك الأشخاص الذين يمارسون أعمالا هامشية ومتقلبة .

---

(١) محمد حافظ . مصر ومشكلاتها . دراسات فى الهجرة والتحضر والعدالة الأجتماعية دار سعيد رأفت للطبع والنشر . القاهرة (١٩٨٧) ص ٧٤ .

(٢)Costello. V.F., op.Cit., p. 89

واعتمادا على بيانات تعداد السكان لعام ١٩٧٦ ، نحاول هنا أن نعطي تقديرا للأوزان النسبية ، ولأوضاع مختلف المجموعات المهنية داخل " قطاع الخدمات الهامشية " ويوضح الجدول رقم (١) تركيب قوة العمل المرتبطة بهذا القطاع ، مصنفة حسب النشاط والمهنة التي يعتمد عليها الأفراد في اكتساب قوتهم اليومي :

جدول رقم (١)

يوضح حجم وتركيب العمالة في قطاع الخدمات الهامشية

في مصر " حسب تعداد ١٩٧٦ " (*)

(قوة العمل : ١٥ سنة فأكثر)

نوع النشاط أو المهنة	الأعداد بالألف	التوزيع النسبى	المرتبة
الباعة الجائلون وبائعو الصحف	١٤٨,٣	٪٤٤,٥	١
الطهاة والجرسونات والسقاه	١٠,٥	٪٣,١	٦
القائمون بالخدمات الشخصية والخدمات المنزلية للأسرة والأفراد (بما في ذلك عمال الجراجات) وخدم المنازل ومنظفوها :	٨٥,٢	٪١٧,٤	٣
العاملون في غسيل وكي الملابس	٩,١	٪٢,٧	٧
الحلاقون ومصففو الشعر	١٧,٩	٪٥,٤	٤
سائقو مركبات النقل ، والحمالون والعتالون	٧٣,٢	٢١,٩	٢
الخدمات الهامشية الأخرى الغير مصنفة	١٦,٧	٪٥,٠	٥
المجموع	٣٣٣,٩	٪١٠٠	-

ورغم عدم شمول بيانات التعداد لكافة فئات العمالة الهامشية ، فهناك دليل واضح على أن قوة العمل المرتبطة بقطاع الخدمات الهامشية ذات حجم يعتد به كما

(*) الجهاز المركزى للتعبئة والإحصاء : الكتاب الإحصائي السنوى . تعداد السكان لعام ١٩٧٦

هو واضح فى الجدول رقم (٢) وخصوصاً اذا أضفنا الى أعدادهم السابقة أسرهم ومن يعولوهم .

جدول رقم (٢)

يوضح الأعداد التقديرية لفئات العماله الهامشية

فى المدن المصرية حسب تعداد ١٩٧٦

فئات العمالة الهامشية والرثة	الأعدادالكلية على مستوى الجمهورية " بالألف "	نسبة المشتغلين بالمناطق الحضرية	الأعداد التقريبية بالمناطق الحضرية " بالآلاف "
١ ـ فئات العمالة الرثة	٢٥٩	٦٠٪	١٥٥
٢ ـ الباعة الجائلون والمتنقلون فيما بين الأسواق	١٤٨	٧٥٪	١١١
٣ ـ الأشخاص الذين يقومون بمختلف أنواع الخدمات الشخصية المنزلية للعائلات والأفراد .	٥٨	٧٥٪	٤٤
٤ ـ الأشخاص الذين يقودون وسائل النقل والحمالون .	٧٣	٧٧٪	٥٦
٥ ـ الخدمات الهامشية وغير المصنفة الأخرى .	١٧	٧٥٪	١٣
المجموع	٥٥٥	٦٨٪	٣٧٩

وتوضح بيانات الجدول السابق مزيدا من الضوء على هيكل العمالة فـ قطاع الخدمات غير الرسمية (الهامشية) فى المدن المصرية . اذ تبين أن أهـ مجموعة هى الباعة الجائلون والمتنقلون فى الأسواق ، والتى تمثل حوالى ٤٥٪ مـ جملة العمالة فى قطاع الخدمات الهامشية : أما المجموعة الثانية فهى تلك المتعلـ

بسائقى المركبات التى يجرها الحيوان ـ "سائقو العربات الكارو وما اليهم" ، ويمثلون حوالى ٢٢٪ من جملة عمالة الخدمات الهامشية التى تم حصرها فى مصر كلها .

ومن ناحية أخرى ، يمثل أولئك الذين يقومون بتقديم مختلف أنواع الخدمات الشخصية والمنزلية للأسر والأفراد .. نسبة ١٧٪ من جملة العمالة فى قطاع الخدمات الهامشية . وأخيراً فان أولئك الذين يؤدون مختلف أنواع الخدمات الشخصية مثل الجرسونات والسقاة ومنظفى الثياب .. الخ قد شكلوا نسبة ١١٪ فقط من جملة العمالة فى قطاع الخدمات الهامشية التى تم حصرها فى المجتمع المصرى ككل (١) .

وتشير دراسة " بنت هانسن وسمير رضوان " حول أشكال العمالة الهامشية فى سياق دراسهما عن سوق العمل فى مصر الى أن العمالة الجائلة تعد أحد أشكال الهامشية ، وقد نظر الباحثان الى الأعمال الهامشية بتلك الأعمال التى يقوم بها المشتغلون فى نشاطات ومهن غير مصنفة وهى فى العادة ذات انتاجية منخفضة ، ويترتب عليها دخولا منخفضة (٢) .

وربما كانت أنشطة هؤلاء تضم ماسحى الأحذية وجمع النفايات والقمامة والحواة وممارسو التسلية فى الشوارع والحمالون والعتالون غير المنظمين ، وكذلك الأنشطة غير الواضحة وغير القانونية التى ترتبط باللصوصية وارتكاب الجرائم البسيطة .

ووفقا لنتائج الاستقصاء الذى أجرى فى مصر عام ١٩٧٢ يتضح أن حوالى ربع مليون شخص كانوا بلا مهن واضحة أو غير مصنفين تحت أى مهنة محددة

---

(١) محمد حافظ : المرجع السابق . ص ٤٤ ، ٤٧ .

(٢) Bent Hansen & Samir Radwan Employment opportunities & equity in Egypt i.l.o. Geneva - 1982 p 134

حتى منتصف عام ١٩٧٢ . وبالرجوع لبيانات هذا الاستقصاء أمكن حصر ثلاث شرائح رئيسية ضمن هذه المجموعة وذلك على النحو التالى :

أ ـ المشتغلون فى تقطيع الأحجار والفعلة والعتالون غير المنظمين (١٣٢٠٠شخصا) .

ب ـ الأشخاص الذين لم يصنفوا تحت أى وظيفة أو الذين يمارسون وظائف غير مبينة وأنشطة غير محدودة (٦٤٠٠ شخصا) .

جـ ـ الأشخاص الذين لم يفصحوا تماما عن طبيعة مهنتهم والأنشطة التى يقومون بها (١٨٠٠٠ شخصا) [١] .

الملاحظ من البيانات السابقة عن سوق العمل غير الرسمىأن الفئتين (ب) ، (جـ) لم يصنفا تحت أى وظيفة أو مهنة ، وفى تصورى أنهما بهذا الوضع يمكن وضعهما تحت فئات الجائلين من الحرفيين والباعة والفئات التى تمارس أعمالا غير مشروعة . وعموما فان الأهمية التى احتلهت مفهوم الهامشية تنبع من حقيقة أخفاق أعداد كبيرة من قوى العمل فى الالتحاق بأعمال الانتاج ثم لجوئهم الى أعمال حرفية رثة . ان الصورة التى بين أيدينا عن حجم هذه العمالة أجدها قاصرة فى عدم اشارتها لنوع عمال الاناث الى حد أنها توحى بأن هذه العمالة الهامشية لا تتدرج الا على الذكور . ان فهمنا الكامل للمعروض من العمالة الجائلة فى سوق العمل غير الرسمى يحتاج بطبيعة الأمر الى الاهتمام بنماذج من عمالة الاناث .

والواقع أن لدينا نماذج منها جاءت فى سياق دراسة اريزب (Arizps) للماريا (Marias) فوجدت أن النساء الهنديات اللاتى يبعن السلع فى شوارع مدينة المكسيك مثلا ترتبط أعمالهن بعوامل الهجرة وعلاقات معقدة بين أسرهن . وتوجد معلومات أخرى محدودة عن التوزيع المهنى بالنسبة لبعض مدن أمريكا اللاتينية مما يعطى أساسا لمزيد من التحليلات المفصلة عن نوعية الحرف التى تشغلها النساء

---

[١] محمود عبد الفضيل : المرجع السابق . ص ٣٧ .

فيذهب ميرك (Meruik) الى ان نسبة ٩٠٣ من الذكور في مدينة (belo Horizonte) بالبرازيل يعملون في القطاع غير الرسمي يقابلهم نسبة ٥٣,٩٪ من النساء يعملن بذلك القطاع . بما في ذلك الخدمة بالمنازل

وهذه الاحصاءات تشبه الى حد كبير الاحصاءات المدونة في سلفادور (Salvador) وباهيا (Bahia) بشمال شرق البرازيل حيث يعمل ٢١,١٪ و ٥٦,٤٪ من الاناث في اعمال انتاجية صغيرة أو في الخدمة بالمنازل

أما بالنسبة لمدينة المكسيك فتقول " أريرب " أنه بينما نجد ١٨,١٪ من الذكور النشيطين يكسبون أقل من الحد الأدنى للأجور ، نجد أن الرقم المقابل بالنسبة للاناث هو ٣٥,٦٪ أما من حيث الفئات الحرفية فتقول " أريرب " أن النساء يشكلن نسبة ٧٢٪ من العمال غير المهرة بما في ذلك خدم المنازل و ٤٠٪ من جميع الباعة الجائلين بالشوارع .

وفي دراسة أجريت عن مدينة قرطبة (Cordoba) بالأرجنتين نجد أن النساء يشكلن ٦٣٪ من عمال القطاع غير الرسمي وعلاوة على هذه المعلومات عن نسبة النساء في بعض المهن فما زالت البيانات عنها قليلة (١) .

نأتي بعد ذلك الى النموذج الآخر الذى تمثله عمالة الأطفال الذى وجد اهتماما دوليا من اليونيسيف ومنظمة العمل الدولية . التى قامت بالاشراف على تنفيذ عدة مسوح للوقوف على العوامل الاجتماعية لظروف هذه العمالة . ولقد تناولت هذه المسوح عينة من الأرجنتين وبيرو والمكسيك وايطاليا والهند وباكستان وتايلاند . ولقد كشفت الدراسة عن أن معظم أشكال المهن التى يمارسها الأطفال في عواصم هذه الدول هي تنظيف الأحذية ، وبيع السلع البسيطة ، وفتح أبواب السيارات والعمل في المنشآت التى تستوعب أعدادا كبيرة من الأطفال ، والعمل أيضا في

---

(١) ريتشارد انكر : المرأة والمشكلة السكانية في العالم الثالث ترجمة علياء شكري وآخرون ، دار الثقافة للنشر والتوزيع القاهرة (١٩٨٥) ص ١٨

.عمال لنطـفه ـلمـدمى ؛ والحاجات ـ ـب عـن دافعيه العمـل لهـؤلاء الأطفـال فيمكـن
ترتيبها على النحو التالى

- الحاجه الى مساعدة الوالدين فى النشاط الاقتصادى للأسرة .
- الفقر
- رغبة الوالدين فى تشغيل أولادهم .
- شغل أوقات الفراغ (١) .

ومن الشواهد التى تذكر فى هذا السياق أن أغلب الأسـر الفقيرة فـى أغلـب الدول النامية تلجأ الى تشغيل الأطفال كمصدر للدخل . وقد أعطى العـدد القليـل مـن الأبحاث التى أجريت فى مصر عدة شواهد على هذه الحقيقة . منها دراسـة أجريـت على ٩٤١ أسرة تتلقى مساعدات اجتماعيـة ، كمـا اتضـح أن ٦٩٪ مـن هـذه الأسـر تعتمد على مساعدات الأبناء والأقارب فى مواجهة تكاليف المعيشة (٢) .

وفـى دراسـة أخرى قـام بهـا المجلـس القومـى للتعليـم والبحـث العلمـى والتكنولوجيا فى مصر كشـفت عـن الأسباب الرئيسية للتسـرب مـن مرحلـة التعليـم الأساسية ، أرجعتـه الـى انخفـاض المستوى التعليمـى (٦,١٪) والرغبـة فـى العمـل لتحسين دخل الأسرة (٣١٪) .

كما تشير أيضا دراسة أجريت على خمسين منشأة لدبغ الجلود تبين منها أن ٩٠٪ من أرباب الأسر قـالوا بـأن دخـل الأسـرة غـير مضمـون ، كمـا أن ٣٠٪ مـن أرباب العمل كانوا عـاطلين . والواقـع أن الدراسـتين تشـير الـى عـامل أساسـى فـى دافعية الأطفال للعمل وهو العامل الاقتصادى لدعم الحياة الاجتماعية لأسرهم .

وفى دراسة أجريت بقصد التحليلات الاقتصادية للعمالة الجائلة بصفة عامة كشفت عن نشاط هؤلاء بأنه لا يمثل اسهاما فى النسق الاقتصادى العام . ولا يكـون

---

(١) Elias Mendelievich.. Children at work 110., Geneva 1980 . P 125

(٢) ندوة عمالة الطفل فى مصر المركز القومى للبحوث الاجتماعية ـ التقرير العام يوليو ١٩٨٦ .

لهم أى تقدير فى المقاييس الاقتصادية بالانتاج القومى أو الدخل القومى ، وذلك لأن معدلات أرباحهم لا تسمح بفرض ضرائب يمكن أن تساهم فى النسق الاقتصادى ويعد الباعة المتجولون فائضا فى قوة العمل بل مؤشرا الى البطالة المقنعة ، فى الوقت الذى لا يدركون أنهم متعطلين . بل يرى الكثير منهم أن عملهم مناسب وأفضل من أى عمل آخر لأنهم يتحكمون فيه ويعملون وفق ظروفهم ومناخهم النفسى وحالتهم الصحية ، ويعتبر مصدرا للحصول على النقد الفورى فى أى وقت دون الانتظار الى توقيتات محددة يحصلون فيها على النقد الفورى من أعمال أخرى يمارسونها سواء فى مؤسسات أو قطاع آخر (١) .

ويشير مكتب العمل الدولى الى ظاهرة العمالة الجائلة وعلاقتها بالبطالة الى أن هذه العمالة تتركز أساسا فى الدول النامية وبصفة خاصة فى المناطق الحضرية. وعلى سبيل المثال فان معدل البطالة فى المناطق الحضرية فى الهند وسيلان ٧٪ ، ١٤٪ على التعاقب وتسود هذه المعدلات فى مدن أمريكا اللاتينية وأفريقيا ، على أن البطالة فى المناطق الحضرية تغذى بتيار متدفق على بعض المدن من المعوزين أو الذين يعملون عمالة جزئية فى المناطق الريفية . وفى كثير من الدول النامية يكون أغلبية المتعطلين فى المدن من الشباب ومعدل البطالة بين الشباب أعلى عادة . ففى الهند نجد أن ١٧٪ من قوة العمل ما بين ١٦ ــ ٢١ سنة فى المناطق الحضرية متعطلة ، فى حين أن نسبة العاطلين من مجموع السكان (٢٧ ــ ٥٦ سنة) هى ٥٪(٢) .

وفى مصر نجد من بين الأشخاص المتعطلين والباحثين عن عمل للفئة الأولى ٣٥٧٠٠ شخص ومن هذا العدد نجد أن ١٤٤٣٨ شخص هم من الفئة

---

(١) محمد الغمرى : المرجع السابق . ص ٢٥١

(٢) مكتب العمل الدولى : العمالة والتنمية الاقتصادية ترجمة جمال البنا ، جنيف بدون تاريخ نشر ص ١٦٦ .

العمرية من ١٥ الى أقل من ٢٠ سنة ، و٢٠٤٥٥٤ شخص داخل الفئة العمرية من ٢٠ _ ٢٥ سنة .

ويوضح تعداد (١٩٧٦) الملامح العمرية لفئات العمالة الجائلة أو ما يطلق عليها العمالة الرثة فى ثلاث نماذج :

أولا : المشتغلون بتقطيع الأحجار والفعلة والعتالون ويتركزون فى فئة عمرية من ١٥ _ ٢٥ ويمثلون نسبة ٤٤٪ ويشير هذا بدوره ، الى أن حوالى نصف قوة العمل فى هذه لمجموعة مكونة من أولئك الداخلين حديثا الى سوق العمل ، نتيجة عدم توافر فرص العمل فى قطاعات النشاط الرسمى .

ثانيا : الأشخاص غير المصنفين تحت أى وظيفة أو مهنة محددة ، ومعظمهم يتركزون فى فئة عمرية أعلى حيث تقع نسبة ٤٥٪ منهم فى الفئة العمرية ٥٠٪ فأكثر . وطبيعى فان هؤلاء يمثلون الأعضاء القدامى فى قوة العمل والذين تركوا المهن الرثة لفترة طويلة من عمرهم .

ثالثا : أشخاص لم يفصحوا عن الأنشطة الحقيقية التى يمارسونها ، وهؤلاء ينتمون لفئة الشباب الذين تضمهم الفئة العمرية من ١٥ سنة الى أقل من ٢٠ سنة . والأكثر أهمية من ذلك هو أن نسبة ٥٦٪ من هؤلاء الأشخاص يقعون ضمن الفئة العمرية أقل من ٣٠ سنة . وهكذا فإن معظم هؤلاء الأفراد يميلون نسبيا لأن يكونوا من بين الأعضاء الجدد فى قوة العمل (١) .

بعد ذلك يمكن القول أن ظاهرة العمالة الجائلة تعد من الظواهر الاجتماعية التى يمكن رصدها فى نطاق الشواهد العابرة ، الا أن ما يستأهل التسجيل هنا هو دراستها المتأنية فى اطار البحث العلمى .

---

(١) محمود عبد الفضيل : المرجع السابق ص ٣٩ .

المبحث الثالث

التخطيط الاجتماعى للمدن

على الرغم من أخذ المهتمين بالمجتمعات الحضرية بأساليب التخطيط الاجتماعى فى المدن ، فمازالت إسهامات علماء الاجتماع فى هذا المجال محدودة إلى حد كبير . ومن جهة أخرى فإن مؤرخى التخطيط الحضرى ينظرون إلى المدينة على أنها مجال لعملية تطوريه مستمرة خلال فترات يميزها عن بعضها أساليب معمارية متعاقبة لكل منها تصورها الخاص عن التطور ، وطريقتها فى ممارسة الانتاج وتفسير ازدهار النمو الحضرى وتخلفه .

صحيح أن تخطيط المدن يعد بمثابة عملية تصورية لما يجب أن يكون عليه شكل المدينة المتوافقة مع حياة الإنسان وبيئته ، إلا أن الواقع العملى هو أن عملية التخطيط تعد أحد أشكال التعاون العلمى والفنى بين مخططى المدن وعلماء الاجتماع والبيئة ، ويعتقد أوليج يانتسكى Oleg Yanitsky أن تخطيط المدن ظاهرة اجتماعية ثقافية تنتج تأثيراً على صانعى القرار كما تؤثر أيضاً على الرأى العام . وكثيرا ما يقع صناع القرار فى مآزق أمام الرأى العام خاصة فى المواقف التى تتصل بإعادة تخطيط المدن الآهلة بالسكان مما يكون الضرورة مرتبطة بانشاء مرافق عامة ، على حساب الأماكن السكنية ، أو هدم الضواحى العشوائية ونقل سكانها إلى أماكن أخرى أو تعويضهم عن الأضرار (١) .

إن فكرة إعادة تخطيط المدن بدأتها الولايات المتحدة ببرنامج منذ عام ١٩٤٩ وانتقل هذا البرنامج إلى بعض دول أوروبا النامية ، وتستند استراتيجية هذا البرنامج على إستيلاء الحكومة على مساحات كبيرة من الأراضى وتعيد تخطيط المنطقة وتستخدم جزءا منها فى مشاريع عامة كبناء المدارس والطرق ، ثم تبيع أو

---

(١) أوليج يانتسكى : من أجل مدينة متوافقه مع البيئة ، مقال منشور . المجلة الدولية اليونسكو . العدد ٥٢ السنة الثالثة عشرة ، يوليو / سبتمبر ١٩٨٣ ص ١١٠ .

تؤجر المساحات الباقية لشركات القطاع الخاص ، وهذه الشركات بدورها إما أن تعيد بناء المنطقة أو تحسن من وضعها ، وعندما بدأ العمل بهذا البرنامج مع الولايات المتحدة كان الهدف الرئيسي منه تطهير المدن من الأحياء الفقيرة ، إلا أن إعادة بناء الأجزاء الرئيسية المتآكلة من المدن اعتبر ـ مؤخراً ـ في غاية الأهمية وإزداد الاقبال على الأراضي ذات الموقع المتميز بسبب الحاجة لطرقات أوسع وبناء عمارات السكن والمكاتب والمتاجر ومؤسسات الصناعه وأماكن وقوف السيارات .

على أية حال فإن إعادة تخطيط المدن ليست فكرة جديدة فقد سعت لها باريس في القرن التاسع عشر وجلاسجو وبيرمجهام في انجلترا "وبرلين وبوفارست"، إلا أن اعادة تخطيط المدينتين السابقتين تعرض الى متغير أخر يخرج عن سماتهما المعمارية ويرجع بهما إلا الوراء نتيجة سيطرة القوى السياسية لهتلروشاوشيسكو على قرارات التخطيط (١) ، معنى ذلك إن بعض أشكال التخطيط العمراني أصبح يرتبط بالأيدلوجيا السياسية .

وإذا نظرنا إلى الوضع الراهن لاعادة التخطيط فى البلاد النامية نجد هوة واسعة بين الأهداف والممارسات ، نتيجة عوامل أيديولوجية أو ا صادية ، أو عدم وفرة في كفاءة المتخصصين ، أو نتيجة لبيروقراطية الادارة فى التنظيم .

وهناك نقطة أخرى ترتبط بالمشاكل التي تواجه هذه الدول منها زيادة معدلات عدد السكان مع قلة الموارد ومصادر الانتاج ، وضعف استثمارات الأفراد في عمليات البناء والتمويل ، ومع ذلك فإن بعض الدول النامية تميل إلى إعادة تخطيط المدن لتطويرها ، وعلى سبيل امثال ، لجأت سنغافورة عام ١٩٦٣ إلى الأمم المتحدة لمساعدتها فى برنامج إعادة تخطيط المدن خاصة وأن ١,٧٣٠,٠٠٠ مليون نسمة يعيشون فى مدينة سنغافورة نفسها ، يواجه الكثير منهم نقص شديد في

---

(١) نفس المرجع السابق ص ٩

الاسكان بالرغم من بناء أكبر ١٢٠٠٠ الف وحدة سكنية كل عام ، ومع ذلك تبدو ظاهرة امتلاك أملاك الغير بالقوة وهى نتيجة لتعقد ظاهرة الاسكان منذ عام ١٩٢١، وفى نفس الوقت يتضاعف عدد سكان سنغافورة إلى الضعفين كل ٢٠ عام حتى أصبح قلب المدينة يعج بالسكان الذين ازدحموا فى غرف صغيرة ، أفرزت العديد من المشكلات الاجتماعية حاولت سنغافورة حل بعض مشاكل السكن فى قلب المدينة بفرض قيود على الإيجار ومنع اخلاء السكان عن منازلهم ، ولقد أدى هذا القرار إلى تعقد المشكلة وهى تحكم المستأجرين بأملاك غيرهم ، مما أدى إلى انسحاب رأس المال الشعبى من الاستثمار العقارى ، وتحول موضوع الإسكان إلى أزمة تواجهها الحكومه منفردة وأمام هذه المشكلة بدأت مشاريع تخطيط المدن باستيلاء مجلس الاسكان والتنمية على مساحات كبيرة من الأراضى وإعادة تنظيمها وتحسين الطرق فيها ، ثم بيعها من أجل بناء المساكن والمكاتب والمتاجر التى ستقام وفق الخطط الجديدة .

ومع ذلك واجه التخطيط العمرانى فى منطقة " تشاينا تاون " Chinatown القريبة من الحى التجارى فى سنغافورة معوقات تنظيمية ، فهى تحتوى على أسوء الأحياء الفقيرة ، وهى مكتظة بالسكان ومساكن لا تتوافر فيها الخصوصية ، ومع ذلك فهى منطقة تتمتع بعدة مميزات ، من ناحية الموقع التى تتوافر فيه المطاعم والمتاجر والمعابد الجذابة كما أن الحياة فى شوراعها جذابة ، لذلك فليس فى وسع أى مشروع جديد أن يوفر هذه المميزات بالنسبة إلى السكان والسياح على السواء ، رغم أن المساكن فيها مكتظة ومتداعية (١) .

الواقع أن موقف التخطيط الحذر لمنطقة " تشانيا تاون " بسنغافوره يجعلنا نتصور فى تماثله إلى حد ما مع منطقة خان الخليلى الأثرية بحى الجمالة بالقاهرة

---

(١) Chales Abrams., Mans Struggle For Schelter in An urbanizing World, The M.I.T. Press, London., 1966, pp. 131 - 132 .

التى تحتل أهمية أثرية وسياحية ، وتشكل كيانا سكانياً عالى الكثافة ، بالاضافة إلى مجاورتها للمساجد الأثرية والمطاعم والمقاهى ومحلات العاديات والمكتبات . وفى ضوء هذه الأهمية صدر قرار وزير الثقافة رقم ٢٥٠ لسنة ١٩٩٠ بشأن المحافظة على كيان هذه المنطقة حفاظاً على آثارها والطابع الحضارى للقاهرة ، وعدم إدخال أى تغيرات جوهرية تخطيطية أو معمارية إلا بحرص شديد لا يؤثر على النسيج العمرانى ، ومن ثم بدأ المجلس الأعلى للآثار فى ترميم الآثار الإسلامية بتكلفة تصل إلى أكثر من ١٠٠ مليون جنيه مصرى لمنطقة خان الخليلى وحدها . وفى نفس الوقت تجرى الترتيبات لاخلاء شارع المعز لدين الله من شاغلى الأماكن الأثرية بعد صرف التعويضات لهم (١) .

وفى دراسة لتخطيط القـهرة الكبرى قام الجهاز التخطيطى والتنفيذى للقاهرة الكبرى بعدد من الدراسات تمهيداً لاعداد تخطيط عام للقاهرة الكبرى حتى عام ١٩٩٠ ، وقد استغرقت هذه الدراسات الفترة ما بين عامى ١٩٦٦ و ١٩٦٩ ، ثم استمرت مناقشة المشروع الذى تم إعداده حتى منتصف عام ١٩٧١ وكانت أهم الدراسات التى أسفرت عنها جهود الجهاز هى التى تناولت تحديد أقليم القاهرة الكبرى ومناطق النمو العمرانى الحالية والمستقبلة واستخدامات الأراضى وشبكة الطرق الرئيسية داخل الاقليم وخرجه ، والمناطق ذات القيمة الحضارية التى يوصى باعادة تخطيطها ، وتقدير حجم الخدمات وبخاصة المدارس والمستشفيات والمناطق المفتوحة ، والتخطيط العم المقترح لشبكة مترو الانفاق واتصاله بشبكة النقل السطحية (٢) .

---

(١) الأهرام ٢ / ٥ / ١٩٩٤

(٢) اللجنة العليا لتخطيط القاهرة الكبر ى التخطيط الابتدائى العام لاقليم القاهرة الكبرى مارس ١٩٧٠ الهيئة العامه لشئون المطابع الاميريه القاهرة ، (١٩٧١)

يبد. ر الجدل حول إعادة تخطيط المدن فى مصر قد أو صلة إلى قضية جوهرية صر حب فى المؤتمر السنوى الأول لتخطيط المدن والأقاليم فى يناير عام ١٩٨٦ حول النمو العشوائى للتجمعات السكانية فى مصر (الذى وصل عددها ٤٣٤ منطقة موزعة على أحد عشر محافظة) و لقد حاول الباحثون ، تشخيص العوامل التى أدت إلى هذه المشكلة ومعالجتها ، وكان فى مقدمه هذه العوامل مخالفة قوانين تقسيم الأراضى وقوانين البناء التى تمنع تحويل الأراضى الزراعية إلى أراضى مبانى دون الرجوع إلى السلطات المحلية ، أما أساليب العلاج فقد جاءت فى شكل مقترحات حول المعايير المحدده لمساحات قطع الأراضى وعروض الشوراع ، وتحديد أساليب البناء وارتفاعات المبانى وأحجامها ؟

لكن هل تنشأ حقاً التجمعات العشوائية بشكل عفوى تام ؟ أى بدون أى تخطيط مسبق ، ؟ أم أن هناك ظروفاً موضوعية كانت أحد عواملالتحضر العشوائى؟

لاشك أن لكل ظاهرة عوامل تكوينها ، أو تنشيط نموها على سبيل المثال ، فان التحولات الاقتصادية خلال فترة السبعينات أحدثت تحولات داخل قطاع الانتاج العقارى فى مصر تبلورت فى الآتى .

أ ـ انسحاب الدولة بشكل تام من قطاع انتاج المساكن المدعمة لذوى الدخول المحدودة وبعض شرائح الطبقة الوسطى

ب ـ إعادة هيكلة القطاع الخاص الرأسمالى الذى تحول من الانتاج السلعى الصغير فى الاسكان (عمارة أو فيلات) إلى الانتاج الرأسمالى الموسع (أحياء متكاملة وعمارات برجية تحتوى على إسكان إدارى) .

جـ ـ انتقال أشكال الانتاج السلعى الصغير من المراكز إلى الأطراف (١) .

وحينما ننظر الى هـذه القضيـة بشـكل خـاص فـى مدينـة القـاهرة ، نجـد أن التجمعات العشوائية تركز فى مدينة القاهرة على الأراضـى الزراعيـة المحيطـة فـى الشـمال والشـمال الشـرقى (شـبرا الخيمـة ، عيـن شـمس ، المطريـة) وعلـى الضفـة الغربية للمدينــة (امبابـة ، بـولاق الدكـرور ، الأهـرام) وفـى الجنـوب (دار السـلام ، البساتين) ، وفى الشرق على الأراضى شبه الصحراويـة مثـل منشـأة نـاصر أو فـى أقصـى الجنـوب حيث تتمركـز التجمعـات العشـوائية حـول المنـاطق الصناعيـة فـى حلوان والتبين .

وتنمو تلك المناطق بمعدل متوسط سنوى ٨٪ فى مقابل ٣,٥٪ للقـاهرة فـى مجملها . هذا وقد نمت الكتلـة العمرانيـة لمدينـة القـاهرة بـاضطـراد لا مثيـل لـه فـى الفترة الواقعة بين عامى ١٩٧٧ و١٩٨٢ بنسبة نمـو سنوياً ٤,٢٪ ، وقـد تـم الجـزء الأكبر من هذه الزيادة على الأراضى الزراعية بنسبة ٦١٪ والباقى علـى الأراضـى الصحراوية .

وإذا تتبعنا حركة السكان فى الفترة الواقعة بين ١٩٦٦ و ١٩٧٦ ، نجـد أن هناك عملية طرد من المراكز إلى الأطراف ، فقد سجلت أحياء القاهرة القديمة مثـل بولاق والسيدة زينب والدرب الأحمر وباب الشعرية معدلات نمو سالبة على التوالى – ١,٣٪ ، – ٠,٠٪ ، – ٠,٨٪ ، – ١,٢٪ بينما كـانت نسـبة نمـو الأحيـاء الواقعـة على الأراضى الزراعيـة فـى محـافظتى الجيزة والقليوبيـة تـتراوح بيـن ٣,٥٪ فـى امبابه إلى ١١,٤٪ و ٨,٢٪ ، ٩٪ فى بولاق الدكرور وشبرا الخيمة على التوالى .

(١) جليلة القاضى ، تحضر عشوائى أم نسق جديد من التخطيط فى مدن العالم النامى ، بحث من أعمال المؤتمر السنوى الأول لتخطيط المدن والأقاليم ، النمو العشوائى حول التجمعات السكنية فى مصر ، جمعية المهندسين المصرية ٢ يناير سنة ١٩٨٦ ص ص ٢ ـ ٤ .

الواقع أن المشكلة ليست فى حركة السكان بقدر ما هى فى العوامل التى أدت إلى دوافعها ، وبنظرة متأنية للكثافة السكانية فى القاهرة وحدها ، نجدها قد بلغت فى احصاء ١٩٨٦ حوالى ٢٥٢,٨٥ للفرد فى الكيلو متر المربع . وبمقارنتها بتعداد (١٩٧٦) نجدها ٢٣,٦٨٨ فردا فى الكيلو المربع ، ومن ثم فالكثافه السكانية فى القاهرة وحدها تساوى ٢٢ ضعف الكثافة السكانية الكلية على مستوى الجمهورية ١٣٥٠ فرداً فى الكيلو المربع . وينخفض معدل الكثافة داخل القاهرة فى أقسام قصر النيل والزمالك إلى ٦٤٨٧ فرداً فى الكيلو المربع ، بينما يتضاعف معدل الكثافة فى أقسام مصر الجديدة ومدينة نصر والنزهة حيث يصل إلى ١٢٩٤٠ فرداً فى الكيلو أما الشرابية وشبرا والزواية الحمراء فقد ارتفع معدل الكثافة الى (٩٠٨٠٥) فردا فى الكيلو المربع وتتسابه إلى حدكبير هذه المعدلات فى أقسام الساحل ومصر القديمة وروض الفرج وبولاق والسيدة زينب والخليفة والدرب الأحمر والوايلى . وبالنسبة لمتوسط عدد الأفراد فى الغرفة الواحدة لسكان القاهرة نجد أن متوسط العدد للغرفة الواحده ١,٥٠ فرد (احصاء ١٩٨٦) وهذا المتوسط يتساوى مع متوسط عدد الأفراد فى الغرفة على مستوى الجمهورية ، مع أنه من المفترض أن يقل هذا المتوسط فى المدن الحضرية بالمقارنه للذين يسكنون حجرة . واحده فى القرى لأسباب اقتصادية واجتماعيه . الا أن الملاحظ أن سكان مدينة القاهرة يقيمون بمعدل فرد ونصف فى الحجرة ، بما فى ذلك المطبخ والصالون وحجرة المعيشة .

وبحساب متوسط عدد الأفراد فى غرف النوم فقط على مستوى القاهرة ، نجد المتوسط السكانى للغرفة الواحدة خمسة أفراد (١) .

معنى هذا إن احتقانا سكانيا أدى إلى الإنفجار والنمو العشوائى ، باحثا عن شرايين جديده لمأواه السكنى فى غياب تخطيط الدولة لمواجهة هذه المشكلة وربما يرجع عوامل هذه المشكلة إلى مسئوليه الدولة فى تبنيها للأيديولوجيا الاشتراكية

(١) الجهاز المركزى للتعبئة العامة والإحصاء (١٩٨٦) .

وادعائها المسئولية توفير السكن لكل مواطـن ، وإصدار القوانين المتلاحقة لحماية المستأجر من المالك ، مما أدى بعزوف رأس المال الأهلى المشاركة فى استثمارات الإسكان ، وتعقد المشكلة بتعقد الكثافة السكانية وتعاقب الأجيال ، ومن ناحية أخرى لقد أدت الحروب المتوالية بين مصر وإسرائيل إلى اعاده توجيـه استثمارات الدولة نحو البنيـة الأساسية لمؤسساتها وعدم ملحاقتها لاحتياجات السكان مـن مساكن ملائمة، مما أدى إلى ظهور الأحياء العشوائية غير المخططة التى فرضت نفسها على الأراضى الزراعه وأراضى الدولة .

والواقع أن هذا الشعور عبر عنه " تشارلز أبرامز "Charles Abrams فى معالجته لتعبئة التخطيط والاسكان وعلاقتها بالتنمية ، وفى هذه المعالجة يتعرض لسياسة الحكومات التى تنادى بحق التدخل فى الشئون الاقتصادية للدولـة ، ومن ثم تجد نفسها أمام متطلبات ضاغطة من أجل ايجاد فرص العمل وتوفير المود الغذائية والملبس والمسكن لمواطنيها للذين يـتزايدون بمعدلات سريعه ومع زيادة معدلات السكان ، تبدو مشكلات المساكن العشوائية وتتلاحق التشريعات الضابطة لمنظومه المجتمع .

والواقع أن المشاكل المعقدة لدولة ما ، هى من نتائج فلسفتها نحو التنمية الشاملة ، ولذلك فقد أنشئ ميدان دراسى جديد للمساهمة فى حل مشاكل التنمية اطلق عليها اسم التخطيط الإنمائى Devele Pment Planning حيث يسعى الخبراء إلى تحديد الأساليب الملائمة للنشاطات الاقتصادية العامة .

ان الاختيارات الاقتصادية للتنمية ليست نمطية فتجارب الدول المتقدمة التى عاشتها مئات السنين لا يمكن نقلها إلى دولة أخرى لكى تحقيقها فى عشرات السنين، وفى ضوء هذه المعانى اختلفت النظريات حول الأساليب الاقتصادية فى التنمية ، ومع هذا الاختلاف فإن هناك اعتقاد بأن الحاجه إلى الاسكان هو أحد محاور التنمية، وإن كان بعض من المخططين الاقتصاديين يتجاهلونه ، فالواقع أن الإسكان وتخطيط

المدن هما جزء هام من برامج التخطيط العام . ويضع " إيرامز " عشر نقاط تسترشد بها الحكومات فى السيطرة على مشكلات الإسكان .

١ ـ الامتناع : عدم تدخل الحكومات فى شئون صناعة البناء .

٢ ـ الاقناع : تشجيع رجال الأعمال ورجال الصناعه بالمساهمه فى البناء دون ربح أو بها مش ربح محدود .

٣ ـ التنظيم : تضع الحكومة الضوابط التى تحمى الصحة والسلامه والمنافع العامه .

٤ ـ الاغراء : اعطاء التيسيرات للبناء بالمساعدات المالية والضمانات والقروض ودفع ضرائب مقبولة لتشجيع الاستثمار .

٥ ـ العمليات المباشرة : وهى ترتبط بالبنية الأساسية من بناء الطرق والمدارس، والمستشفيات ، ومراكز الخدمات العامه .

٦ ـ التحول عن الاشتراكية : ويعنى ذلك انتقال النشاط الاقتصادى من الدولة إلى القطاع الخاص ، واقدام الدولة على بيع بعض أراضيها لتشجيع الاستيطان فى الأماكن التى تحددها .

٧ ـ المشاركة : طرح مشاريع مشتركة بين القطاع العام والقطاع الخاص .

٨ ـ الاحتكارات المنتظمة : تشجيع الحكومة للقطاع الخاص لاستثمار وإدارة احدى المنافع العامة تحت رقابة الدولة .

٩ ـ التنمية المخططة : تقوم الحكومة بتخطيط مشاريع الخدمات والمنافع العامه لجذب تشاريع التنميو الصناعية والاسكان وغيرها .

١٠ـ المشاريع التعاونية : تستطيع الحكومات من خلال التعاوينات تشجيع المشاريع التى لا تسعى إلى الربح خاصة فى مجال الاسكان والصناعات .

الواضح من اتجاهات " شارلز ابرامز " أنه حاول ربط تخطيط المدن ومشكلة الإسكان بالجانب الايديولوجي والاقتصادى الدولة ، وهو يميل فى هذا الجانب إلى الاقتصاد الحر الذى يمكن من خلاله تشجيع الاستثمارات للأفراد والمؤسسات فى ضوء سياسة تخطيطية للدولة .

نعود إلى قضية التخطيط العمرانى التى تبدو أكثر الحاحا بالنسبة لسكان المدينة ويمكن تلخيص أهميتها معادلتين ، الأولى ، الكثافة الحضرية = سوء الأحوال الصحية . الثانية ، الشمس + الخضرة = الصحة .

فى ضوء العبارة السابقة ، نستطيع أن نحدد أهمية التخطيط العمرانى فى نقطتين الصحة العامة للسكان ، مساحة الحرية الفراغية ، من حدائق ، وملاعب ، ومساحات متعددة الأغراض .

والشئ الملموس فى بعض الدول النامية . أى التخطيط العمرانى ، نضع فى اعتباره تطبيق نماذج معياريه فى البناء طبعاً لضوابط التكاليف بصرف النظر عن المساحات الفراغية سواء داخل بناء المساكن أو محيطها .

لقد ترتب على ذلك من ظهور العديد من المشكلات الإنسانية نتيجة تكدس وازدحام السكان فى المناطق الشعبية المخططة ، وعدم توافر الخدمات الحضرية الملائمة .

ولقد توصل " Roger Perrinjaquet " إلى أن جوهر التخطيط العمرانى هو السكان . فما يمكن أن يوفره من سكن ملائم يتناسب مع حجم كل أسرة مع الحفاظ على خصوصيتها وقد يكتسب التخطيط أهمية الحقيقية حينما يضع فى الاعتبار المساحة الفراغية المحيطة بالأبنية السكنية ، التى توفر لها المناخ الصحى ،

كما توفر للسكان ممارسة أنشطتهم الإجتماعية وهو تعبير عن تخطيط أماكن التفاعلات الاجتماعية للسكان داخل أحياء المدينة (١)

---

(١) Roger Perrinjaquet., The habitat as a universe of Child Socialization in industrial Societies., in international Social Science Journal, Volume xxx1, N.3. 1979 p. 476 .

الفصل الرابع

الأيكولوجيا الحضرية

* أيكولوجية المدينة .
* الضواحى والأحياء .

المبحث الأول
أيكولوجية المدينة

ظهر مصطلح الايكولوجيا لأول مرة سنة ١٨٦٩ حينما استخدمه عالم الأحياء الألمانى ايرنست هايكل Haeckel حيث عرف الأيكولوجيا البيولوجية بأنها ذلك العلم الذى يدرس التساند التبادل بين النباتات والحيوانات التى تعيش معا فى منطقة طبيعية .

أما المفاهيم الأساسية التى طورها هذا العلم فأهمها الموطن ، والتدرج والتكافل أو المعيشة معا ، والمنافسة والغزو ، والتتابع .

لقد ظهرت فكرة تطبيق الاتجاه الأيكولوجى ومفاهيمه هذه على العلاقات الانسانية لاول مرة فى أوائل القرن العشرين ، وخاصة فى مؤلف "تشارلز جالبن Galpin " المعنون " التشريح الاجتماعى لمجتمع محلى ريفى Social Anatomy of an Agrarian Comunity (١٩١٥) .

وبالرغم من أن " جالبن " لم يستخدم مصطلح الأيكولوجيا ، ألا أنه جمع بيانات عن أسر تعيش فى مقاطعة ريفية فى ولاية ويسكنسين Wisconsin ، تناول الأماكن التى يبتاع منها أفراد هذه الأسر سلعهم التى يحتاجونها ، والبنوك التى يدعون فيها أموالهم ، والكنائس التى يؤدون فيها فرائضهم ، والمدارس التى يتوجه اليها الأبناء لتلقى دروسهم . ثم عرض " جالبن " النتائج التى توصل اليها فى شكل خريطه .

ومن الجدير بالذكر هنا أن استخدام الخرائط كوسيلة توضيحية قد أصبح أمرا شائعا مألوفا فى الأيكولوجيا ، ومع أن مناطق النشاط المختلفة التى درسها جالبن لم تكتشف عن وجود تطابق مكانى دقيق .

الا أن شواهده قد أكدت الاعتقاد الذى يذهب الى أن المجتمع يتضمن " مناطق طبيعية " تلعب دورا أساسيا فى تحديد النشاطات الانسانية .

وخلال العام ذاته (١٩١٥) أى العام الذى نشر فيه " جالبن " بحثه ، نجد "روبرت بارك Park " (١٨٦٤ ــ ١٩٤٤) وهو أحد علماء الاجتماع بجامعة شيكاغو التى أصبحت فيما بعد مركزا للبحوث الايكولوجية بنشر مقالا عن المدينة . دون أن يستخدم اصطلاح الايكولوجيا . ولقد ذهب فى مقاله هذا الى أن المدينة تمثل ظاهرة طبيعية ، ونتاجا لقوى غير محددة وغير مضبوطة فى أن واحدة ، فضلا عن أنها تنقسم الى مناطق صناعية وتجارية وسكنية . ويذهب " بارك " بعد ذلك الى أن السكان الذين يتماثلون في خصائصهم الاقتصادية والثقافية يميلون الى التجمع فى مناطق معينة من المدينة ، كما أن الخصائص الاجتماعية والثقافية المميزة لكل منطقة تؤثر بدورها على حياة قاطنيها .

ولقد أصبحت كتابات " بارك " ـ بعد ذلك ـ أساسا هاما من أسس الاتجاه الحتمي الجديد ، الذى اتخذ بدوره طابعا ايكولوجيا خالصا .

وفى الفترة من سنة ١٩٢١ حتى سنة ١٩٢٣ ، قام " ماكينزى ــ Mackenzie " بالاشتراك مع " روبرت بارك " " وارنست بيرجس Burgess" وهو المؤسس الثالث للأيكولوجيا الحديثة ، باجراء بحث عن مناطق المدينة بنفس الطريقة التى اتبعها " جالبن " . وبذلك يكون " ماكينزى " من أوائل علماء الاجتماع الذين استعانوا بمفاهيم الايكولوجية البشرية فى بحث أمبريقى منظم ، أما اصطلاح الايكولوجيا البشرية فقد استخدمه كل من " بارك وبيرجس " زميله فى جامعة شسكاغو) فى كتابهما الأساسى مقدمه فى علم الاجتماع (١٩٢١) .

An introduction to the science of sociology .

وفى سنة ١٩٢٣ نشر " بيرجس " مقاله الكلاسيكى المعنون " فى نمو المدينة " حيث قدم فيه الفرض الأساسى الذى ترتكز عليه الايكولوجيا الحضرية . ويؤدى هذا الفرض أن المدينة تنمو فى شكل دوائر مركزية تدور حول قلب المدينة Core Zone الذى يمثل المنطقة التجارية . وحينما ننتقل من قلب المدينة نجد مناطق التحول Zones of Transition ، وهى مناطق يسودها التخلف

الاجتماعى. تليها مساكن الطبقة العاملة ، ثم المنطقة السكنية الخاصة بالطبقة الوسطى ، وأخيرا أطراف المدينة ، ولقد أجريت دراسات واقعية عديدة بهدف التحقق من صدق ما ذهب اليه " بيرجس "، فانتهت الى أن النموذج أو النمط المثالى الذى قدمه يمكن أن يخضع لكثير من التعديلات التى يفرضها التوزيع الجغرافى ، ونظام النقل والمواصلات ، وبعض الظروف الأخرى . والملاحظ أن تفسير وجود منطقة التحول قد اعتمد فى المحل الأول على التوسع فى منطقة قلب المدينة ، ومع ادراكنا لطبيعة هذا التوسع . فان ملاك المبانى الذين يقطنون الدائرة المركزية التالية وهى منطقة التحول سوف لا يبقون على مبانيهم فى حالة جيدة ، ومن ثم يمكن أن يشملها التخلف ، ثم تظل بعد ذلك من المناطق السكنية المتخلفة التى يدهمها بعد ذلك أفراد المستويات الاقتصادية والاجتماعية الدنيا فى المجتمع ، ومن المحتمل أن يكون هذا البناء الاجتماعى الايكولوجى للمدينة قد عاق ـ الى حد ما ـ نمو كثير من المناطق الحضرية الكبيرة فى الولايات المتحدة . وهذا ما أكده عدد كبير من البحوث الايكولوجية . يضاف الى ذلك ، أن مفهوم المنطقة المركزية الذى استخدمه كثير من علماء الايكولوجيا الحضرية لم يعد ينطبق على كثير من المدن . ومعنى ذلك أنه يفتقد الى الصدق .

وفى الربع الثانى من القرن العشرين ، اتخذت دراسات الايكولوجيا الحضرية اتجاهات مختلفة ، وأصبحت على درجة من التنوع ، تمكننا من القول بأنها قد أصبحت تشكل بالفعل مدرسة ايكولوجية .

ففى سنة ١٩٣٠ تأكد التمييز بين التفاعل الايكولوجى بمعناه المحدود ، والتفاعل الاجتماعى بوجه عام . وفى الوقت الذى لم يعد فيه مجرد وصف الظواهر الانسانية فى ضوء التوزيع السكانى كافيا لاعتباره موضوعا ايكولوجيا حقيقيا ، فلقد أوضح " جيمس كوين Quinn " وهو من أبرز رواد هذه المدرسة ، أن التفاعل الايكولوجى يتم من خلال الاعتماد على موارد بيئية محددة بحيث يصبح كل كائن

عضوى قادر على التأثير فى الآخرين من خلال قدراته على زيادة الموارد البيئية أو نقصانها ، تلك التى يعتمد عليها الآخرين (١) .

لقد حاول " كوين " بلورة مادته العلمية فى عدد من المفاهيم تحتوى على عناصر ثقافية واقتصادية واجتماعية ، وسيكولوجية وفى نفس الوقت عن عنى بتطبيق الأسس الايكولوجية على المجتمع الحضرى ومجتمع المنزوبوليتان (٢) .

لقد ظهرت فى الربع الثانى من القرن العشرين اتجاهات نظرية مختلفة أصبحت على درجة من التنوع تمكننا من القول بأنها شكلت مدرسة فكرية متميزة .

لقد جاءت البداية الأولى لهذه المدرسة الفكرية مع أفكار وكتابات " ولتر فيرى Wolter Firey " الذى قسم النظريات الايكولوجية الى تقليدية وغير تقليدية ووضعها فى ثلاث فئات . الفئة الأولى ، وتهتم بمنهج الوصف المثالى " Idealized descriptive Schemes "

مثل نظرية " بيرجس " للمنطقة المتمركزة للنمو الحضرى أو نظرية القطاع لهوايت Hoyt عن الامتداد العمرانى .

والفئة الثانية ، تهتم بالنظريات الامبريقية الرشيده emprically rationalistic theories التى وضعت الاقتراح بأنه من خلال المنافسة والانتقاء فان كل شخص أو جماعة تنجذب الى الوضع السكانى الذى يعد ملائما لها من الناحية الاقتصادية .

أما الفئة الثالثة ، فتهتم بالنظريات العقلانية المنهجية methodologically nationalistic theories والتى تفترض الاستخدام الأمثل أو الرشيد للأرض .

---

(١) نيقولا تيماشيف : نظرية علم الاجتماع . المرجع السابق ص ٣١٩ ـ ٣٢٣ .

(٢) Gittler., op. cit., p. 164

وأيا كانت محصلة التصور النظرى الذى يعرضـه " فيرى " فانـه يذكـر أن هناك شئ مشترك ، وهو النزعة الى المكان كظـاهرة اقتصاديـة ، علـى أن العوامـل السيكولوجية أو الثقافية تأتى بالنسبة له موضوعا ثانويا (١) .

وليس من ثم شك أن " فـيرى " قد بـالغ فـى وجهة نظـره كمـا بـالغ بعض الأيكولوجيين فى وجهات نظرهم المحدودة حول وصف الظواهر الانسانية فى ضوء التوزيع السكانى الذى لم يعد كافيا من وجهة نظـر علم الاجتمـاع . علـى أن دخـول مصطلح الايكولوجيا الى مجال علم الاجتماع وتطبيق هذا المصطلح على الظواهر الاجتماعية من شأنه تجـاهل أو اغفـال أهميـة العوامل الاقتصاديـة والاجتماعيـة فـى تشكيل المجتمعات . ورغم هذه التحفظات الا أن مصطلح الايكولوجية قد لفت انتبـاه علماء الاجتماع الى الحقيقة التى مؤداها ، أن أفراد المجتمع يعيشون فـى اطـار بيئـة مكانية . ومع أن هناك عوامل اجتماعية تؤثر فى هذه البيئة ، الا أنها تبـدو وكأنهـا " طبيعية " بمعنى أن الأفراد يعتمدون عليها ـ بينما هى تمارس عليهـم تـأثيرا كبـيرا ، وعلـى الأخـص فيمـا يتعلق بمعتقداتهم ، ومـن بيـن عنـاصر الحيـاة الحضريـة نجد عنصرى السكن وظروف العمل يتخذان شكلا طبيعيا الى حد كبير ، بمعنى أنهمـا لا يتحددان بقرار ادارى بقدر ما يتطوران بطريقـة تلقائيـة ، وإذا كـانت هـذه العنـاصر تؤثر على السلوك والاتجاهات فانها تتأثر بدور بأسلوب حياة النـاس . وانطلاقـا مـن هذه النقطة يبدأ عالم الاجتماع بدراسة أكبر عدد ممكن من عناصر الحياة الحضريـة كالشـوارع والمسـاكن وخصـائص الأحيـاء ، وأمـاكن العملوالمؤسسـات السياسـية والثقافيـة والخدميـة والدينيـة والرياضيـة والترويحيـة ، ولقـد حـاولت دراسـات سوسيولوجية عديدة ربط الظواهر الاجتماعيـة والثقافية بالمنـاطق الطبيعيـة فـى المدينة. ومن أشـهر هـذه الدراسـات تلـك التـى تنـاولت الجريمـة والانتحـار والتفكك الأسرى فى أحياء المدينة المختلفة وعلى الأخص الفقيرة منها . ويبدو أن الدراسـات

---

(١) Ibid. P. 164

الايكولوجية الحديثة قد بدأت تنظر الى الايكولوجيا من منظور واسع نسبيا . فلقد ذهب " هاولى Hewley " الذى يعد من أشهر علماء الايكولوجيا الحضرية الى أن المحدد الأساسى للتنظيم الاجتماعى والسلوك هو التأثير الذى يحدثه المجتمع الحضرى ، ذلك المجتمع الذى يتميز بكبر الحجم ، وشدة الكثافة وزيادة التباين ، وتعدد الأدوار الاجتماعية وشدة الحراك الاجتماعى .

وتعد نظرية " لويس ويرث Wirth " من أشهر النظريات السوسيولوجية التى تنطلق من مفاهيم ايكولوجية معتدلة .

ففى مقال شهير بعنوان الحضرية كأسلوب فى الحياة (١٩٣٨) ذهب "ويرث " الى أن نمو المدينة وتنوعها يؤديان الى اضعاف العلاقات الاجتماعية بين سكانها ، وأن أساليب الضبط الرسمى فى المدينة ما تلبث أن تحل محل أساليب الضبط غير الرسمى القائمة على العرف والتقاليد .ويتصل ذلك بظهور الجماعات والثقافات الفرعية المتعددة المتباعدة مكانيا ، وبنمو حجم المدينة تقل فرص العلاقات الشخصية بين سكانها ، اذ ما تلبث هذه العلاقات أن تتصف (باللاشخصية) و (السطحية) و (الانتقالية) و (لانقسامية) .

ومعنى ذلك أن العلاقات الاجتماعية فى نظر الحضريين هى مجرد وسائل لتحقيق غايات خاصة .

هذا وقد تعرضت نظرية " ويرث " لانتقادات عديدة استنادا الى اعتبارات نظرية وواقعية . وأول هذه الانتقادات التعميمات التى تضمنتها هذه النظرية لا تنطبق على كل المدن العاصرة ، اذ تبدو أكثر انطباقا على المدن الصناعية وحدها ، كما يتصل هذا النقد بالجزء الأخير من مقال " ويرث " الذى تناول فيه تأثير التحضر على الأسرة ، والواقع أن من الصعب فهم تعميمات ويرث دون الاشارة الى الظروف الاقتصادية التى كانت تمر بها الولايات المتحدة خلال ثلاثينيات هذا القرن والتى أهمها الكساد العظيم وتدفق موجات الهجرة من مختلف دول العالم ،

فخلال تلك الفترة أبدى كثير من المثقفين الأمريكيين قلقهم البالغ على ظروف التفكك الاجتماعي والتباين الثقافي والكساد الاقتصادى التى تعرضت لها الولايات المتحدة(١) .

لقد اهتم علماء الايكولوجيا الحضرية بدراسة العمليات البيئية أو الأيكولوجية التى يحدث عن طريقها تغيرات فى توزيع السكان وأنشطتهم الاجتماعية ، فى محاولة لصياغة نظريات مفسرة لديناميات المدينة ولقد أطلق علماء الايكولوجيا على هذه العمليات التركز Concentration والتشتت Deconcentration والمركزية Centeralization اللامركزية Decenteralization والغزو Invasion والتتابع Successtion .

أولا : التركز والتشتت : يشير هذا المفهومان الى عملية تركز السكان داخل المدن، واحد مظاهر هذا التركز ما يشاهد الآن فى نيويورك التى تضم ١٦ مليونا يليها مكسيكوسيتى وطوكيو وتضم كل منهما ما يزيد عن ١٢ مليون نسمة .

وفى مدن الولايات المتحدة بشهد نشاطا كبيرا فى عمليات تشتت السكان نحو الضواحى وهو يعنى انخفاض نسبة السكان الذى يعيشون فى قلب المدينة (٢) .

لقد أشار هاولى Howley الى أن الاتجاه نحو التشتت قد ظهر فى المدن الأمريكية خلال عشرينيات هذا القرن ، ثم ما لبث أن شهدت بعد ذلك نمو هائلا فى حجم الضواحى . ويبدو الازدحام السكانى فى المناطق الداخلية من المدينة كان أحد العوامل الطاردة التي ساعدت على الاقامة فى الضواحى أو الأطراف ، كما أن

---

(١) أنظر السيد الحسينى : المرجع السابق . ص ١٢٦ ـــ ١٢٨ . وأيضا تيماشيف المرجع السابق ص ٣٢٣ ـ ٣٢٤ .

(٢) Popenoe, op. cit., p. 510.

معدل التشتت يزداد فى المدن الكبرى ، إذا ما قورنت بالمدن الصغرى بسبب الازدحام السكانى الضاغط . وفى كل الأحوال فان التاجاه نحو التشتت يرتبط بوجود شبكة متطورة من المواصلات ، ووجود هياكل أساسية تمكن الضواحى من التطور المستغل ، ونمو طبقة وسطى حضرية تجد فى الضواحى مزايا يصعب الحصول عليها داخل المدينة (١) .

ثانياً : المركزية واللامركزية :

ينطلق هذين المصطلحين من قضية محورية حول مدى تركيز أو عدم تركيز المشروعات الاقتصادية الحكومية والوظائف العامة داخل المدينة أو خارجها. منها أعمال البنوك ، والصناعة ، والمؤسسات التربوية ، والترفيهية ، ويعد قطاع الأعمال المركزية هو المثل الأكثر وضوحاً لهذا الاتجاه .

والواقع أن مناطق هذه الأعمال تشكل أنشطة النقل والمواصلات والحركة من جانب التجار والعمال ، وبالتالى تتمثل فيها أعلى كثافة سكانية بمقارنتها بالمناطق الأخرى ، وتصبح فيها قيمة الأرض عالية السعر ، وقد يترتب على ذلك انتقال بعض المشروعات الاقتصادية إلى خارج نطاق كردون المدينة ، وهذا يؤدى إلى شكل من أشكال عدم التمركز نتيجة انتقال هذه المشروعات إلى الضواحى النائية وانتقال العمالة وخدمات المرافق والخدمات الاجتماعية والاقتصادية التى تتلاءم وظروف العمل وظروف المكان ، ولقد لاحظ علماء الايكولوجيا الحضرية أن الخدمات التى تتم فى مثل هذه المراحل تقترب من بعضها البعض . فالمحاكم بجانب السجون ، ومحلات التجارة الصغيرة ــ التجزئة ــ تقام بالقرب من المساكن الرئيسية، وفى أماكن الترفيه كالمسارح والسينما تقترب منها المطاعم ، وبجانب كل هذا تظهر بعض " مناطق طبيعية " وفى مناطق لم تخضع للتخطيط مقابل المناطق

---

(١) السيد الحسينى : المرجع السابق ، ص ١٣٢

الإدارية أو السياسة التى خطط لها سلفاً (١) . بيد أن تحسن وسائل النقل وأساليب الاتصال ، وتطور فنون نقل المعلومات من خلال الحاسبات الآلية قد أديا إلى الحد من الاتجاه نحو المركزية ، وإذا ما تأملنا موقف الدول النامية من المركزية واللامركزية نجد أن مشروعاتها الصناعية الصغيرة مركزة فى المناطق الحضرية الداخلية . وفى كل الأحوال فان الدول النامية بسبب قلة مواردها المالية ، تحاول الافادة من الهياكل الأساسية للمدن الكبرى بإقامة مشروعات صناعية ضخمة تستفيد من خدمات الكهرباء والماء والمواصلات التى تتيحها هذه المدن (٢) .

ثالثاً : الغزو والتتابع : يعنى هذا المصطلح نفاذ جماعة اجتماعية عبر منطقة أو أقليم آخر كانت تؤدى فيه وظيفة مختلفة وادخال نمط فى استخدام الأرض بشكل مغاير .

أما عملية التتابع فتعنى أن احدى الجماعات الاجتماعية تحل محل جماعة أخرى كجماعة مسيطرة فى استخدام الأرض (٣) ، ويمكن القول أن عملية الغزو هو تحول منطقة حضرية راقية إلى منطقة حضرية شعبية بسبب انتقال أفراد الطبقة الدنيا بالاقامة فيها ، على أن عملية الغزو ماهى إلا مرحلة أولى فى دورة التتابع ، أما أهم العوامل التى تؤدى إلى عملية الغزو فهى : تحركات السكان ، والتوسع من أحد أجزاء منطقة إلى جزء آخر والتغيرات التى تطرأ على شكل وخطوط المواصلات ، وتهدف المساكن أو تعرضها للسقوط بسبب تدهور حالتها أو تغيير استخدامها ، وإنشاء مبان عامة أو خاصة ذات خصائص جاذبة أو طاردة ، وادخال أنواع جديدة من الصناعات ، وظهور تغييرات اقتصادية من شأنها إعادة توزيع

---

(١) Popenoe, op. cit., p. 510.

(٢) نفس المرجع السابق ، ص ١٣٣ .

(٣) Popenoe, op. cit., p. 510.

الدخل القومى . والملاحظ أن غزو جماعة سكانية لمنطقة جماعة سكانية أخرى لا يتم بطريقة فورية وخلال فترة زمنية قصيرة ، فقد يسبق الغزو ضغوط عديدة تمارسها الجماعة الغازية على سكان الجماعة المقهورة . وخلال عملية الغزو تنشأ مقاومة من جانب هؤلاء السكان قد تتمثل فى الامتناع عن بيع أراضى البناء وعدم قبول السكان الجدد بسهولة ويسر .

ولقد اهتم بعض علماء الأيكولوجيا الحضرية بدراسة عمليتى الغزو والتتابع فى المدن الغربية بعامة والأمريكية على وجه الخصوص [١] ، ويمكن أن نرى الغزو والتتابع فى تاريخ منطقة كليفلاند داونتون هوف Cleveland's downtown Hough area التى كانت قبل الفترة الاستعمارية أراضى صيد لجماعات الهنود ثم تحولت إلاى منطقة زراعية خلال الفترة الاستعمارية ، ثم عرفت هذه المنطقة المنازل الصغيرة المتناثرة . ومع نمو السكان وتحركاتها تجاورت المساكن ، وظهرت الضواحى للأغنياء مقابل الاسكان الشعبى وبمرور الزمن هجر الأغنياء هذه الأحياء مما أدى إلى هبوط أسعار المنازل وزحف الفقراء إليها نتيجة هذه الأسعار ، والاقامة فى كثير من أماكنها . ويمكننا أن نشير إلى جيمس كوين Quinn الى أوضح فيها غزو الزنوج لاحياء البيض والمقاومة المستميتة التى صاحبت هذا الغزو . وفى دراسة أخرى عن تأثير غزو الزنوج على أسعار المنازل ، اتضح أن البيض قد اعتبروا الزنوج سبباً فى انخفاض مستوى السلع فى أحياء ورخص أسعارها ، بينما عبر الزنوج عن استيائهم من ارتفاع أسعار هذه السلع بما لا يناسب مع قدراتهم الشرائية ، وفى مدن الدول النامية تتخذ عملية الغزو صوراً عديدة من بينها نمو أحياء واضعى اليد وعلى الأخص فى

---

(١) نفس المرجع السابق ، ص ١٣٤ .

أطراف المدينة ، وتحول بعض الأحياء السكنية إلى أحياء تجارية بسبب ضغوط المكان (١) .

اذا ما أنتقلنا الى مناقشة اهتمامات علماء الأيكولوجيا بالبناء الاجتماعى للمدينة نجدهم يميلون إلى ربط الظواهر الاجتماعية والثقافية ، بالمناطق الطبيعية فى المدينة، واهتموا على وجه الخصوص بدراسة مناطق التحول ، والأحياء المتخلفة باعتبارها تسهم فى ظهور وانتشار الجريمة والرذيلة ، والأمراض والانتحار ، والتفكك الأسرى ، وأنماط أخرى من السلوك المنحرف ، وبالاضافة إلى ذلك اهتمت بعض بحوثهم بدراسة دور المجتمع المحلى فى تنمية المدينة ، بل وبالغت بعضها فى الدور الذى يلعبه هذا المجتمع ، إلى المدى الذى اعتبرته المحدد الأساسى للسلوك الانسانى فى المجتمع الكبير ، وحينما يؤكد بعض الباحثين أن سكان منطقة متخلفة معينة لديهم اتجاهات انحرافية كالجناح والجريمة وذلك مع تثبيت عملية الغزو ـ التتابع التى يمكن أن تؤثر على التكوين العنصرى للسكان ، مثل هذا التأكيد قد يوحى للقارئ أن هؤلاء الباحثين يقصدون بذلك أن المبانى المتهدمة والشوارع الضيقة والقذرة ، هى التى تلعب الدور الأساسى فى تشكيل أنماط السلوك . والواقع أن هذا التفسير البيئى المبدئى قد شاع فى كثير من أعمال علماء الاجتماع ، سواء من أفادوا منهم بالاتجاه الايكولوجى فى بحوثهم أو أية اتجاهات أخرى ، ومع ذلك فهناك بحوث تؤكد بشكل متطرف الدور الذى يلعبه الوضع الأيكولوجى ، وأن كانت قد تعرضت خلال السنوات الأخيرة لانتقادات كثيرة ، منها تجاهلها للدور الذى تلعبه العوامل الثقافية ، أو التقليل من شأن هذه العوامل فى تشكيل السلوك الانسانى . وبالرغم من الانتقادات التى وجهت للنظرية الايكولوجية ، إلا أنها قد قدمت اسهامات هامة فى فهم البناء الاجتماعى والايكولوجى للمدن الأمريكية الحديثة ، وعمليات النمو والحركة التى تميز الحياة الحضرية عموماً وإلى حد ما الحياة

---

(١) Popenoe. op. cit., p. 510.

الريفية ، فضلاً عن توضيحها للدور الذى تلعبه هذه الظواهر فى فهم السلوك المنحرف ، ويكفينا فى هذا المجال أن نشير إلى بعض الدراسات مثل دراسة ارنست مورو Mowrer عن التفكك الأسرى Family Disorganization .

ودراسة " تراشر Trasher " عن العصابة The Gang اللتان نشرتا فى سنة ١٩٢٧ ، ودراسة كليفورد شو Shaw عن مناطق الجناح Delinquency ودراسة فيرث Faris ودانهام Dunham عن الاضطرابات العقلية فى مناطق حضرية Mental Disorders in Urban Areas والتى نشرت فى سنة ١٩٣٩ . فكل هذه الدراسات استعانت بالاتجاه الايكولوجي فى تفسير البيانات التى حصلت عليها من مدينة شيكاغو ، كما أنها لم تكتف بتقديم بيانات وصفية عن الظواهر المختلفة للحياة الاجتماعية فى المدينة ، بل أبرزت بعض الميادين الهامة المتخصصة في الدراسات السوسيولوجية (١) .

النمط الايكولوجى :

خلال نمو مدرسة الأيكولوجيا الحضرية برزت ثلاث نماذج نظرية حول النمط الايكولوجى للمدينة ، ويمكن أن نشير الى هذه النماذج فى ضوء علاقتها بنمط استغلال المكان وهى :

أولاً : نظرية النمو المركزى Concentric Zonal : وقد ظهرت هذه النظرية فى العشرينات (١٩٢٥) من خلال الدراسة التى قام بها " بيرجس F. W. Burgess " أحد علماء الاجتماع الحضرى ، وكانت دراسته أصلاً عن أنماط النمو الحضرى وتركيب الوظائف فى ميدنة شيكاغو .

وتقوم النظرية على افتراض أن المدينة تتخذ فى نموها خمس حلقات ، أو نطاقات متناسقة ومتحدة المراكز ، ويطلق " بيرجس " على أقرب الحلقات إلى

---

(١) نيقولا تيماشيف : المرجع السابق ، ص ص ٣٢٣ ـ ٣٢٤ .

الداخل أو إلى المركز حي الأعمال المركزى ، وهو يقع فى قلب المدينة ، وفى الحلقات المحيطة بذلك المركز تتحرك حلقات أخرى تجاه الحافة الخارجية للمدينة :

١ ـ حى الأعمال المركزية ، حيث قلب المدينة النابض اقتصادياً وثقافياً واجتماعياً ، وهو البؤرة التى تلتقى عندها طرق المواصلات من كافة أجزاء المدينة التى يسهل الوصول إليها ، وهى تضم المسارح الرئيسية ودور السينما والنوادى والأوبرا وسوق الأوراق المالية والمتاجر الرئيسية والمحلات المتخصصة والفنادق الضخمة ومكاتب ادارات الشركات الكبرى والبنوك والمتاحف ومنطقة تجارة القطاعى وربما تجارة الجملة .

٢ ـ المنطقة الانتقالية : ويسود فيها مساكن الطبقة الدنيا وتضم المنازل القديمة بصفة أساسية ، وهى المنطقة التى تجذب المهاجرين الجماعات الفقيرة ، وتوجد بها بعض الصناعات الخفيفة التى كانت فى منطقة النواة الداخلية أصلاً ، وهى منطقة تكثر بها الأمراض الاجتماعية .

٣ ـ منطقة سكن العمال : ويسكنها عمال الصناعة من ذوى الدخل المحدود ، وقد هاجر بعضهم إلى هذه المنطقة رغبة فى التخلص من نفقات الانتقال والايجارات المرتفعة ، وفضلوا السكنى بقرب أعمالهم ، ومعظم السكان من أصول مهاجرة .

٤ ـ منطقة سكنية أفضل : وفيها مساكن الأسرة الواحدة ، كما تتخللها بعض المساكن ذات النوعية الممتازة من الفيلات والعمارات التى يسكنها أصحاب الدخول المرتفعة .

٥ ـ منطقة هامشية : وهى تقع عادة منفصلة عن المنطقة المبنيةالرئيسية للمدينة ومعظم سكانها من الذين يقومون برحلة العمل اليومية وكثير ما يكون ثمة نطاق آخر يفصل بين هذه المنطقة والمدينة الرئيسية ، وقد تضم هذه الحلقة الخامسة بعض الضواحى والمدن التابعة للمدينة المركزية .

لقد وجه إلى هذه النظريــة الكثير مـن النقـد ، فبعض الاستخدامات العامـة يصعب انتقالها من نطاق لآخر من أجل إفساح المجال لوظيفة أخرى ، وعلى سـبيل المثال محطات السـكك الحديدية والخطـوط الحديدية . وبعض المبـانى التـى يكـون الاستثمار فيها كبيراً . كما أن موضع الصناعة الثقيلة الذى اعتبره " بيرجس " عامل تشويه ، قد لا يكون كذلك فى بعض المدن ، وفى كثير من المدن يكون ثمـة ارتبـاط بين المصـانع ومساكن العمال ذوى الدخل المحدود . كما أن الصناعة الثقيلـة لا تتبـع عـادة نمطـاً دائريـاً أو حلقياً فـى تركيبها ولكنهـا تمتد علـى طـول الأوديـة النهريـة والجبهات المائية من بحيرات وبحار ، وكذلك على طرق النقل السهلة (١) .

لقد كان اعتقاد " بيرجس " أن نموذجه يمكن أن ينسحب على كثير من دول العالم، إلا أن الواقع غير ذلك ، فقد قامت دراسات على بعض المدن الغربية أكـدت أنها لا تتوافق مـع هـذا النمـوذج ومـن تلك الدراسـات ، دراسـة " دافـى Davie " (١٩٣٧) لمدينـة نيوهيفين ودراسـة هـاجيرتى (١٩٧١) Haggerty لثمـانى مـدن أمريكية كبرى، وقد أثبتت دراسة " هاجيرتى " أن هناك علاقة إيجابيـة بيـن المسـافة مـن مركـز المدينـة التجـارى والحالـة الاجتماعيـة والاقتصاديـة للسكان ، أمـا نتـائج دراسة " دافى " لمدينة "نيوهيفين " فلم تثبت شـيئاً ممـا نـادت بـه نظريـة " بـيرجس " ولعل هذا يعود بالدرجة الأولى إلى أن هذه النظرية ترتكز أساساً علـى عمليـة النمـو وهىعمليات للزمن فيها دور كبير ، ولهـذا فـإن الدراسـات التـى استخدمت التحليل الطولى Longitudinal قدد أثبتـت جدوى نظريـة " برجس " كمـا هـو الحـال فـى دراسة " هاجيرتى " بخلاف الدرسات التى استخدم فيهـا أسـلوب التحليل العرضـى Cross- Sectional الذى لا يأخذ عـامل الزمـن فـى الحسبان كمـا هـو الحـال فـى دراسة " دافى Davie وثمة دراسة أخرى قام بها " وولتر فـيرى " Firey (١٩٤٥)

---

(١) أحمد اسماعيل : المرجع السابق ، ص ص ٢٧٧ ـ ٢٧٩ .

وانتقد فيها نظرية الايكولوجيا الانسانية الكلاسيكية ، كما جاءت على يد " بيرجس " وزملائهم وتلامذتهم والتى أعطت العوامل الاقتصادية الأهمية الكبرى فى تفسير أنماط توزيع السكان فى المدن فقد ذهب " فيرى " إلى أن القيم الثقافية إلى أن القيم الثقافية تقوم بدور كبير فى تحديد ظاهررة توزيع السكان فى المدن الكبرى ، ففى الدراسة التى أجراها على مدينة بوسطن بالولايات المتحدة الأمريكية وجد أن استعمالات الأرض وتوزيع السكان فيها لا يمكن أن يفهم من منطلق اقتصادى فقط ، بل أن هناك عوامل ثقافية وعرقية Cultural and ethnic factors تتحكم فى نوع استعمالات الأرض وفى توزيع السكان على أحياء المدن [1] ، والمثال على ذلك الأحياء السكانية التى يقطنها المهاجرون الايطاليون فى بوسطن والمكسيكيون فى واشنطن والصينيون والباكستانيون فى لندن ، والعرب فى باريس ، لقد وجد أن السبب فى اختيار هؤلاء لمساكنهم فى تلك الأحياءلا يعود إلى عوامل اقتصادية ، بل يعود بالدرجة الأولى إلى عوامل عرقية وثقافية ، ومن هنا استنتج " فيرى " إلى أن الاعتبارات العاطفية واللاعقلية اعتبارات هامة لابد من أخذها فى الحسبان عند دراسة استعمالات الأرض والتوزيعات السكانية فى المدن .

ثانياً : نظرية القطاع Sector Theory : إزاء الانتقادات العديدة التى تعرضت لها نظرية " بيرجس " ذهب هومر هوايت Homer Hoyt " إلى نشر نموذجه عام ١٩٣٩ يحاول فيه تحديد النمط الايكولوجى فى ضوء نظرية القطاع ، وقد لاحظ هوايت هذا النمط على مدن سان فرنسيسكو وريتشموند ، وفيرجينا ، ومينا بولس .

وقد اقترح " هومر " نموذج قطاعى استنادا الى أن انتشار المناطق السكنية بأنواعها المختلفة يخضع لعملية توزيع دخل الأفراد . لذلك نجده يقسم هذه المناطق

---

(١) انظر فى ذلك :

- Popenoe, op. cit., p. 511 .

عبد الله الخليفة : المرجع السابق ، ١١ ــ ١٢ .

الى قطاعات الأعمال ، وقطاعات صناعية ثم الى مناطق تقيم فيها الطبقات الدنيا ، والمتوسطة ، والعليا. وتمتد كل هذه القطاعات تجاه الخارج على شكل حرف V .

وتتحدد هذه النماذج على النحو التالى :

١ ـ قطاع الأعمال المركزية .

٢ ـ تجارة الجملة والصناعات الخفيفة .

٣ ـ سكن الطبقات الدنيا .

٤ ـ سكن الطبقات المتوسطة .

٥ ـ سكن الطبقات العليا .

٦ ـ الصناعات الثقيلة .

من الملاحظ أن المحاولات التى قدمها " هومر هويت " بالنسبة للنمط الايكولوجى فى ضوء نظرية القطاع هو اسهام فى تطوير الدراسات الحضرية للمدن ، وهو ذلك يعتبر أن المدينة ليست مجرد حلقات دائرية تتخذ من المركز التجارى للمدينة محورا لها بل هى عبارة عن مجموعة من القطاعات تنتشر حول المركز التجارى للمدينة ، وقد ركز " هويت " على أهمية الطرق الرئيسية والسريعة فى نمو هذه القطاعات إلى جانب اختلاف استعمال الأرض باختلاف الأنشطة التجارية والصناعية التى تقام ، عليها وتنوع طبوغرافية الأرض نفسها ، واختلاف الوضع الاجتماعى والاقتصادى للسكان ، وعلى هذا الأساس قسم " هويت " المناطق السكنية فى المدينة إلى ثلاث قطاعات رئيسية ، هى قطاعات الايجارات المنخفضة ويسكنها العمال وذو الدخل المحدود ، وقطاعات الايجارات المتوسطة ويسكنها الجماعات المتوسطة الدخل ، وقطاع الايجارات العالية ويسكنه الأغنياء . فالطرق الرئيسية والسريعة ومستوى السكان الاجتماعى والاقتصادى طبقاً لهذه النظرية تمثل

العوامل التى تفسر نشوء هذه القطاعات السكنية فى المدن وليس المسافة من مركز المدينة كما نصت علىذلك نظرية " برجس " .

وتجدر الإشارة بهذا الصدد إلى أن من العوامل التى ساعدت " هويت " إلى التوصل لهذه النظرية هو توسع الحكومة الأمريكية خلال الأربعينيات والخمسينات فى إنشاء الطرق الرئيسية فى المدن وفيما بين تلك المدن (١) .

ثالثا : نظريات النويات المتعددة Muliptle Nuclei : فى منتصف الأربعينات (١٩٤٥) صاغ تشونسى " هاريس " " وادوارد أولمان " نموذج النويات المتعددة وهى تعنى أن نمو المدينة لا يعتمد على نواة واحدة وانما على نويات متعددة .

لقد لاحظ الكاتبان أن كثيرا من المدن تنمو حول أكثر من نواة أو مركز وفى بعض الحالات قد ترتبط هذه النويات بنشأة المدينة ، بينما قد يؤدى نمو المدينة الى ظهور نويات أخرى . ومن النوع الأول مدينة لندن الكبرى ، حيث نشأت كل من مدينة وستمنسر والسيتى The city ، كمناطق منفصلة يفصل بينها الريف المفتوح . وكانت أولهما مركزا للحياة السياسية وثانيتهما مركزا للمال والتجارة . أما النوع الثانى فتمثله مدينة شيكاغو التى توطنت بها الصناعة الثقيلة فى البداية على طول نهر شيكاغو فى قلب المدينة ، ثم ما لبثت هذه الوظيفة أن هاجرت الى حى "كالمنت " الذى أصبح نواة جديدة للنمو العمرانى وقد تكون النواة الداخلية للمدينة هى حى تجارة القطاعى فى المدن التى تقوم بدور المحلات المركزية . وقد تكون هذه النواة فى الميناء أو محطة السكك الحديدية فىمدينة وظيفتها الرئيسية هى توزيع السلع ، وقد تكون هذه النواة مصنعا أو أحد المناجم ، أو منطقة الشاطئ فى مدينة متخصصة سياحيا (٢) .

---

(١) عبد الله الخليفه : المرجع السابق ص ١٢ .

(٢) Ibid., p. 511.

يبدو أن النظريات الثلاثة فى تفسيرها لنمو المدن جاءت شبه متكاملة أكثر من كونها متعارضة ، ولنا أن نتصور أهمية هذه النظريات فى تفسيرها لكثير من المدن القديمة وقد يكون أوضح هذه النظريات ، نظرية النمو المركزى ، وهى تضم فى المدن التى توجد على أحد أنهار ، وتنمو فى كلا الضفتين ، ويظهر ذلك فى كل من مدن لندن وباريس وموسكو ، ربما بدرجة أكبر مما يظهر فى مدينة شيكاغو التى أوصت دراسة نموها العمرانى بهذا النموذج أساسا ، وسبب ذلك أن مدينة شيكاغو لا يمكن أن 'تكوّن الحلقات أو دوائر النمو فيها كاملة ، نظرا لوجود بحيرة، ميتشجان الى الشرق منها ، وبذلك فان الدوائر تتحقق على اليابسة وتكون نظرية فى القطاع المائى .

أما نظرية القطاعات فقد أسهم فى ظهورها تركيب شبكة الطرق فى المدن، وخاصة بعد ظهور السيارة وتزايد أعدادها ، فبعد أن هدمت أسوار المدن القديمة امتدت الشوارع الحديثة ، روعى فى هذه الشوارع أن تتناسب مع حركة المواصلات ، وأصبح النمو يتخذ محاور مع أهمية هذه الطرق بالنسبة للسيارة ، وأما بعيدا عن تلك الطرق الرئيسية ، فتوجد الفراغات التى تنشأ بعيداً عن الطرق وتظهر كمناطق تفصل بين أجزاء المنطقة المبنية، وعلى سبيل المثال يمكن دراسة نمو العمران على طول شارع الأهرام بالجيزة والشوارع الفرعية التى تصب فيه، ومدى امتداد نمو العمران فى كل منها ، والأجزاء التى لا تزال تشغلها حقول ومزارع حيث تقل كثافة الطرق الفرعية الصالحة لمرور السيارات والمركبات .

أما النظرية الأخيرة وهى التى تؤثر فى نمو المدن فيها أكثر من نواة عمرانية، فهى أما أن يظهر أثرها نتيجة لوجود أكثر من نواة أصلا، كما هو الحال بالنسبة لمدينة لندن وقسميها ، أو بالنسبة للقاهرة الكبرى التى تعتبر الجيزة جزءا منها ، حيث أن كلا منها نشأت نشأة مستقلة ، حتى قبل وجود الكبارى التى تصل بينهما عبر النهر ، ثم ما لبث النمو أن أصبح له هذه المحاور ، بل أن دراسة نمو

القاهرة لابد أن نرجعه الى نويات متعددة كثيرة ترتبط بحى مصر القديمة الحالى وهو وريث الفسطاط والقطائع والعسكر الى جانب بولاق .

وفى أحوال أخرى يوجد نمط آخر للنويات المتعددة ، يتمثل فى انتقال بعض الأنشطة من المدينة الأم ونشأة نواة جديدة ، كما حدث للصناعات فى شيكاغو، وهو مايمكن أن نراه فى حلوان و شبرا الخيمة بالنسبة للقاهرة ، وقد أصبحت كل منهما نواة صناعية تضيف امتدادا عمرانيا الى النمو العمرانى للقاهرة الكبرى [١] .

على الرغم من الانتقادات الى أثيرت حول تلك النظريات التى حاولت تقديم تفسير لاختلاف توزيع السكان على أحياء المدن ، فى الواقع أنها لم تستطع بمفردها أن تقدم تفسيرا متكاملاً للفوارق والتباين بين الأحياء فى الخصائص السكانية واستعمالات الأراضى فى المدن ، إلا أن هذه النماذج مجتمعه استطاعت أن تعطى تصوراً شاملا عن تلك الظاهرة فى معطيات كل نموذج منها بتفسير جزء أو بعد واحد من الابعاد التى منها يتكون نسق المدينة الحضرى ، فقد كشفت العديد من الدراسات التى استخدمت أسلوب لتحليل العاملى فى الخمسينات من هذا القرن مدى فعالية وصدق تلك النماذج " برجس " ١٩٢٥ " هويت " ١٩٣٩، " فيرى " ١٩٤٧ و"هاريس والمان " ١٩٤٥) فى وصف وتفسير البناء الاقتصادى والاجتماعى والديموجرافى لأحياء المدن فى ضوء تحليل المنطقة اجتماعياً ويشير بيرى وكاساردا Berry & Kasarda إلى ذلك الأسلوب من التحليل الذى استخدمه "شفكى" وزملائه فى دراساتهم عن مدينتى لوس انجلوس وسان فرنسيسكو واعتبروا المدينة فى تلك الابحاث على أنها نتيجة طبيعية للمجتمع الحديث ، ولذا نجدهم قد نظروا إلى العلاقات والارتباطات الملاحظة على مستوى المجتمع الحضرى على أنها انعكاس للتباين الطبقى والاجتماعى الذى يميز به المجتمع الحديث .

---

[١] أحمد على اسماعيل : المرجع السابق . ٢٧٩ ـ ٢٨٤ .

ولوصف وتمييز المناطق الاجتماعية للمجتمعالمحلى الحضرى قام " شفكى" وزملائه بوضع ثلاث مؤشرات رئيسية هى :

أ - الطبقة أو الدرجة الاجتماعية : Social Rank ويقاس من خلال نوع الوظيفة والدخل والتعليم ، ويطلق على هذا المؤشر فى بعض الدراسات التى استخدمت مدخل تحليل المنطقة الاجتماعية ، اسم الوضع أو الحالة الاجتماعية الاقتصادية Socio Economic Status .

ب - التحضر : ويقاس من خلال معدل الخصوبة ونسبة العمالة النسائية ونسبة وحدات سكن العزاب ، ويطلق على هذا المؤشر أحيانا الوضع العائلى Family Status .

جـ - العزلة الاجتماعية Social Sugregation : ويقاس من خلال نسبة الأقليات إلى المجموع العام للسكان .

ويرى " شفكى " وزملائه أن هذه المؤشرات الثلاثة يمكن استخدامها لتصنيف وحدات التعداد بالمدينة (Census Tracts) فى مناطق متجانسة ، ومن الواضح جدا أن " شفكى وزملائه " فى دراساتهم متأثرون إلى حد كبير بنظريات وأراء كل من " برجس وهوايت وفايرى " .

ومع ذلك تعرض مدخل تحليل المنطقة الاجتماعية للنقد الشديد من جانب " هاولى دوانكن " Hawley & Duncan ويمكن إيجاز تلك الانتقادات الموجهة إلى ذلك المدخل فى ثلاث جوانب .

الجانب الاول : ويتعلق بغموض مفهوم المنطقة الذى يعنى به " شفكى " المدن والأقاليم والدولة دون تحديد جغرافى .

الجانب الثانى : فيتعلق بطبيعة المنطقة الاجتماعية إذ أن اطلاق مفهوم المنطقة اجتماعيا على وحدات تعداد السكان أمر يفتقد إلى التبرير ، فهذه الوحدات غيركافية لتحديد الفوارق الحضرية .

الجانب الثالث : فيتعلق بمدى المساهمة النظرية لمدخل المنطقة الاجتماعية فى تفسير التباين بين المناطق الاجتماعية ، إذ يرى " هاولى ودانكن Hawley & Duncon أن هذا المدخل كما جاء على يد شفكى وزملائه لم يقدم جديدا إذ أنه لم يعط تبريرا علميا لتجانس أو تباين المناطق الاجتماعية (١) .

---

(١) عبد الله الخليفة : المرجع السابق ، ص ١٧ ـ ١٨ .

المبحث الثانى

الضواحى والأحياء

لا تزال خصائص الأماكن السكنية فى المدينة سمة بارزة لايكولوجيتها يسهل إدراكها من جانب رجل الشارع والباحث المتخصص . فالملاحظة العابرة لموفولوجيه المدينة قد تكون كافية لأن تحدد وبوضوح مستوى الأماكن السكنية للطبقات والفئات الاجتماعية المتفاوتة ، حقا قد يحدث فى بعض الأحيان قدر من التداخل بين هذه المواقع ، إلا أن المظهر الفيزيقى للمسكن والمنطقة وأنماط الكثافة السكانية ومدى توافر الخدمات والتسهيلات الحضرية وخصائص الموقع بالنسبة للوحدات الايكولوجية الأخرى ، تعد مؤشراً هادفاً لتحديد نماذج المنطقة السكنية من ناحية ، وتأكيد التمايز الداخلى لهذه الوحدات الأيكولوجية من جهة أخرى (١) .

وتميل الدراسات التاريخية الى إبراز الأثار الكائنة الناجمة عن التطورات الايكولوجية للمدينة ، وعلى الأخص فيما يتعلق بأشكال الضواحى التى تتميز يسكانها الصفوه ، وأشكال الأحياء المتخلفة التى يسكنها فقراء المدينة .

ومهما يكن من أمر التباين فى تصنيف سكان المدن فالواقع أن تعريف الضواحى ، والأحياء وأنماط سكانها يعد أمرا جوهريا لتحديد وحدة الموضوع .

أولاً : ضواحى المدن :

يمكن تعريف ضاحية المدينة Suburb بأنها رقعة من الأرض على أطراف المدينة ، تجرى بها عملية تحول من الانماط الريفية المتميزة بالأنتاج الاقتصادى والتفاعل الاجتماعى ، واستغلال الأرض ، الى أنماط حضرية متميزة ، أو أنها قد خبرت هذه العملية منذ عهد قريب . وكانت الضاحية تشكل فى وقت ما حيزا فاصلاً بين المدينة وبين المناطق الريفية المحيطة بها ، ولها بعض الخصائص

---

(١) السيد عبد العاطى : المرجع السابق ، ص ٤٨٤ .

التى تتميز بها كل من المواقع الريفية والحضرية ، وقد يكون لها سمات أخرى تحتص بها ، والضاحية منطقة انتقالية عبر الزمان ومحيط المكان ، ولنا أن نعتبر هذين العنصرين مظهرين متوازيين ومتكاملين لشئ واحد ، والضاحية بهذه الصفات منطقة واضحة الهوية ، متميزة عن كل من المدينة والريف ، لها طبيعة متغايرة تتباين تباينا شديدا مع المناطق الريفية والحضرية المتصلة بها . وتستمد مناطق الضواحى الكثير من طبيعتها المتميزة من هذا التغير فى الصفات ، وفى الوقت نفسه يصدر هذا التغير من طبيعة الضاحية الانتقالية المفعمة بالقوة والنشاط .

وهكذا فان الضاحية منطقة انتقالية تمتد اليها المدينة فى الأطراف الزراعية وهى بذلك تختلف عن المنطقة التى يمتد اليها النفوذ الحضرى ، وهى عادة منطقة أكثر اتساعا جغرافيا ونموا سكانيا ، فكل مركز حضرى يمارس نفوذا كبيرا على أقليم فسيح يسمى عادة " المنطقة الخلفية " .(١)

ومن الموضوعات التى أولاها المهتمون بالدراسات الحضرية موضوع الأرض فى الضواحى الحضرية . وخاصة أن هذه الأرض مازالت تستغل فى الزراعة ، كما تتميز بخصائص تجعلها متميزة عن المزارع فى المناطق الريفية . والسبب الرئيسى فى ذلك هو قدرتها على الاتصال بسوق المدينة وتصريف منتجاتها بسهولة . ويوحى التصور النظرى الى أن المنتجات الزراعية للضواحى قد يتعرض للتلف ، الا أنه يمكن القول ، بأن تكنولوجيا التخزين وعمليات النقل السريعة فى دول الغرب قد اقتصرت الوقت بين مصادر انتاج الضواحى والأسواق مما أدى إلى تخفيف نسبة التالث .

ومع ذلك ففى العالم الثالث نجد أن المحصولات المعرضة للتلف مقصورة على الضواحى التى لا تبعد عن المدينة بساعات ملائمة . وقد كشفت دراسة

---

(١) Leeming, F. & Soussan J., Structure at the fringe of the City., In International Social Science Journal Vol . xxxi, N.2. 1979, pp. 23- 274.

"بنسال" Bansal عام (١٩٧٤) أن مدينة " سهارانبور Saharanpur " بالهند تستهلك أكبر كمية من الألبان والخضر من مزارع تقع فى دائرة نصف قطرها ١٥ كم مركزها المدينة . هذا مما أدى الى تغيرات جوهرية فى الانتاج الزراعى بالقرى الواقعة فى نطاق هذه الدائرة . كما أوضح " جوبى Gopi " فى دراسته عام (١٩٧٦) بشأن القرى الواقعة على مشارف حيدر أباد أن المساحة المستخدمة لانتاج الزهور والخضروات زادت ضعفين فى الفترة ما بين ١٩٥٤ ـــ ١٩٧٤ . وذلك نتيجة تدفق رؤوس الأموال فى استثمارها وترشيد وقت التوزيع .

ومن الظواهر الجديرة بالاهتمام التى طرأت على أرض الضواحى هى تركها بورا لرفع قيمتها فى عمليات الاستخدام الحضرى ومن بين استخدام الأرض الحضرية انشاء المساكن ، وهو الأمر الذى تواجهه بعض حكومات الغرب بالتدخل، كالمملكة المتحدة ، وذلك بهدف توفير مساكن ملائمة بتكاليف مقبولة للطبقات العاملة. وفى الكثير من ضواحى العالم الثالث تتحقق بعض وظائف الاسكان بايجارات تتناسب مع الدخول حينما تتدخل فى إدارتها الدولة .(١)

والواقع أننا لا نستطيع فهم طبيعة العلاقة بين المدينة والضواحى إذا لم نتناول هذه العلاقة دون تبنى منظور بنائى تاريخي لفهمها خاصة وأن هناك دلائل تاريخية توضح عوامل نمو الضواحى فى الأطراف الزراعية من المدينة تأكيداً على أهميتها البيئية الطبيعية ، وخصوصيتها السكنية ، وحينما نسترجع تاريخ هذه الضواحى فى الدراسات الأثرية نجد أثارها بجانب المدن الحضارية العتيقة فى عصور الفراعنة والإغريق والرومان ، كمنتجع ريفى للصفوه الحاكمة والتجار ورجال الدين .

---

(١) Ibid .. pp. 267- 277.

وفى العصور الوسطى كانت الأديرة والجامعات تختار الضواحى الزراعية لمنشآتها الدينية والتعليمية . ويذهب المؤرخ الإيطالى " فيالينى Velleni " (١٢٧٥م ـ ١٣٤٨م) إلى تأكيد أهمية للضواحى بالنسبة للمدينة فى القرن الثالث الميلادى الذى شهد نمو الضواحى حول فلورنسا فى دائرة قطرها ثلاثة أميال . وكان أهم مايميز هذه الضواحى فخامة القصور ، وعلى نفس النمط كانت ضواحى البندقية المطلة على نهر " برنتا " وبعد " فللينى " ببضعة قرون لاحظ " شو " أن صفوة المجتمع فى لندن كانوا يقيمون الحدائق الصغيرة ومنازل صيفية غريبة الشكل فى ضواحى المدينة .

ومع التغيرات التى صاحبت نمو المدن الصناعية لاحظ " سوم جنينز " Soame Jenyns فى عام ١٧٩٥ أن زوجات الصفوة من التجار كانت لهن فيلات فى ضاحية كلابهام Clapham بعيدا عن التلوث البيئى فى مدينة لندن . وكانت همستير Hampstea من الضواحى المفضلة لدى القادرين اقتصاديا لتمايز موقعها المرتفع بعيداً عن سحب الدخان التى كانت تتحرك فوق مدينة لندن . وعند منتصف القرن التاسع عشر بدأت حركة الأثرياء نحو سكن الضواحى لا كمنتجع فقط بل سكنا وقائيا من أشكال الأمراض الوبائية المنتشرة بين الفقراء من سكان المدن (١) .

وفى عام ١٧٨٧م نشر " ابنذر هوارد " كتابان تحت عنوان : (غدا خطوة آمنه لإصلاح حقيقى) وقد ظهر هذا الكتاب عام ١٨٩٨م ثم أدخلت عليه بعض الإضافات وصور فى شكل جديد عام ١٩٠٢م تحت عنوان مدن من حدائق الغد ، ويتضح من هذا الكتاب أن هوارد تناول مشكله الهجرة الداخلية إلى المدن وانعكاساتها على المناطق الريفية ، ويعبر هوارد عن ذلك بقوله : " أن الجميع يؤيدوننى فى خطورة هذه المشكلة التى تستلزم حتمية وجود أى علاج لها حتى ولو كان علاجاً يوتوبيا " .

---

(١) لويس ممفورد : المرجع السابق ، ص ٩٠٢ .

وفى تصوره اليوتوبى لعلاج مشكلة المدينة وضع خطة للجاردن سيتى ، وتتمثل هذه الخطة فى شراء سته آلاف فدان فى قرية مفتوحة ووسط هذه المساحة وعلى ألف فدان ، تقام مدينة حديقة لعدد من الأفراد يقدرهم بثلاثين ألفا ويقام حول هذه المدينة سور كما هو الحال فى مدن القرون الوسطى ، وليس الهدف من اقامة هذا السور حمايتها من الغزو وسطو اللصوص وانما حمايتها من فيضان سكان لندن.

ويرى " هوارد " فى هذه المدينة صوره للاكتفاء الذاتى من الوجهة الاقتصادية ويتصور أن المشاكل لن تعرف الطريق إليها ، ولذلك فإنه يوم تعمم هذه المدن فإن فجر يوم جديد سوف يشرق على انجلترا ولن يصبح الإنسان ضحية البيئة الصناعية ، حينما يكتشف أن سلامته الحقيقية تكمن فى الأرض وليست فى الأسواق والمصانع . (١)

وفى دراسة إحصائية حديثة عن دوافع سكنى الضواحى فى مدينة " كليفاند" تبين أن ٦١٪ من سكنى الضواحى يفضلونها كبيئة صحية ، كما يفضلها ٨٪ منهم كبيئة ترقى بالمستوى التعليمى المتميز الذى يستهدفونه لأولادهم ، بينما ٢٨٪ يفضلونها من أجل امتلاك عقار تتوافر فيه المساحه أو الحديقة الملائمة .

وكحقيقة فإن الضواحى كانت أصلا مجتمعات صغيرة مستقلة عن المدينة ، وهذا الاستقلال كان له تأثيره فى التضامن الاجتماعى والشعور بوحده الجوار .

ويمكن التعرف على طبيعة هذا التضامن من دراسة " روبرت وود " عن ضاحية " نيو انجلند " فى الولايات المتحدة الأمريكية ، اعادت الأراء القديمة ــ لفلاسفة الإغريق ــ الخاصة بالمشاركة الديموقراطية وقدرة المجتمع المحلى على الابتكار .

---

(١) أحمد النكلاوى : دراسة المدينة . المرجع لسابق . ص ص ٤٥ ــ ٤٦ .

ويلاحظ " روبــرت وود " أن الضواحــى أصبحــت تــأخذ شــكل الدوائــر الانتخابية التى تتيح لسكانها ممارسة الديموقراطية .

وفى إطـار هـذه الضـواحـى ، أصبـح المجتمـع يشـكل علاقـة الوجـه للوجـه لأفراد متعارفين يشتركون معا فى الحياة العامة علــى قـدم المسـاواة . فكـانت فلاحـة البساتين والسياسة من الوان النشـاط التى يؤديهـا سكان الضاحية . وطـوال الفـترة الزمنية التى ظل فيها المجتمع محتفظـا بـالحدود الطبيعية للضاحية ومساحتها عـدد السكان ظل يكفل الروابط الاجتماعية للجوار .

ولذلك لم يكن من قبيل المصادفات أن يكـون " كلارنـس بـيرى Clarence Perry " كون فكرته عن وحـدة الجـوار فـى أحيـاء المـدن أثنـاء تخطيطـه لمشـروع نموذجى للإسكان فى " تونج أيلند " فى ضاحية حدائق فورست هيلز . وهـذه الفكـرة لا تخـرج عـن تجربـة حركـة التوفيـق الاجتماعيــة فــى ضـواحــى لنــدن وشـيكاغو وبتسبرج، وتتلخص فى العمل التعاونى بين سكان الضاحية بهدف تحقيق المصــالح السياسية والاجتماعية بين السكان ، وهى صورة من صور التضامن الجماعى .

وفى إطار هذه الفكرة حاول " كلارنس بيرى " تصميمه للحى النموذجى فى لونج أيلند " وجعل نواته المدرسة كمركز لخدمة المجتمع ووضع فى تصميمه سـاحة الألعاب والحدائق العامة كشكل من أشكال الضاحية (١) .

وفضلاً عما سبق نجد البعض مـن المتخصصيـن فـى الدراسـات الحضريـة تناولوا الضواحـى بنظـرة سلبية ، ففـى الخمسينيات والستينيات ثـم تصويـر الحيـاة الاجتماعية للضواحى على أن سكانها من العصابيين ، ومدمنى المسكرات .

غير أن دراسة " بيرجر Bennett Berger " " وجانز Ganz " كشـفت عكس ذلك ، فقد أكدت دراستهما على أن سـكنى الضـواحـى شـكل مـن أشـكال دورة حياتيـة للمدينـة تعكس مستوى طبقـى تتحـدد فيهـا مكانـة المقيميـن فيهـا وأسـلوب

---

(١) انظر لويس ممفورد ، المرجع السابق ، ٩٢٧ ــ ٩٣٠ .

طموحاتهم وتنشئتهم لأولادهم . كما يتميز سكان الضواحي بامكانيات اقتصادية خاصة فيما يملكون من وسائل للمواصلات تمكنهم هم وأولادهم من التحوك السريع الى المدينة[١] ، وكثيرا ما يكون سكان هذه الضواحي مما يعملون فى المدينة ، وتمتاز منازل هذه الضواحى عادة بأن معظمها يكون من مساكن الأسرة الواحدة فى صورة فيلات أو مبانى من طابق واحد أو طابقين غالبا . ويقوم سكان هذه الضواحى برحلة العمل اليومية الى المدينة المجاورة التى تمثل مكان العمل على حين تكون الضاحية مقر السكن ، ويمكن القول بأن كلا من المعادى ومصر الجديدة قد نشأتا كضواحى سكنية للقاهرة ، ومعظم المبانى المبكرة فيها كانت من الفيلات ذات الحدائق قبل أن تزحف اليهما العمارات متعددة الطوابق نتيجة لأزمة السكن فى القاهرة .

وحينما ننظر إلى ضواحى المدن الريفية نجدها استمدت سكانها الدائمين من المدينة بعكس الأحياء العشوائية التى تستمد سكانها من مهاجرى الريف وبذلك أصبحت الضواحى تشكل طابعا حضريا يشبع الحاجات النفسية الاجتماعية والصحية والترفيهية لسكان هذه الضواحى .

وإذا كانت أحياء المدن المعاصرة تدين بنموها للمدن الصناعية إلا أنها فى نفس الوقت أدت إلى العزلة الاجتماعية وتراجع وظيفتها حتى أصبحت جزراً إجتماعية داخل المدن .

وإذا ما انتقلت إلى مناقشة العوامل التى أدت إلى تحول الضواحى من الأطراف الريفية إلى جزر اجتماعية بين الريف والحضر ، نجد أن أهم هذه العوامل ترتبط بمتغيرات وسيطة ، فكثير من الأحيان كان اختيار موقع الأرض أحد مصادر لمضاربة فى تقسيمها ، وهو ما شجع فئات اجتماعية على استثمار هذه الأراضى فى الاسكان والخدمات ، هذا بجانب حركة المواصلات السريعة ، التى أدت إلى

---

(١) Popenoe, op. cit., p. 507.

زيادة المراكز التجارية والخدمية ، مما أدى إلى هجرة قوى العمل إلى هذه الضواحي .

ومن ثم انطوت العلاقات الاجتماعية من شكلها الأولى ـ الوجه للوجه إلى علاقات ثانوية ترتبط بالمصالح . ويمكن القول أن نمو سكان الضواحي أنما هو رد فعل مباشر لوظائف تكنولوجيا النقل بين المدينة وأطرافها ـ كالسيارات والقطارات بأشكال قواها المختلفة .

لقد أخذت الضواحي كأطراف الالتحام بجسم المدينة ، وأصبح شكلها متغيراً بتغير قيمة الأرض ومستوى التخطيط العمراني . لقد كشفت دراسات بعض الباحثين في الميادين الحضرية عن اتجاهات عينة من سكني هذه الضواحي قام بها دوتستون Botton في المكسيك وبانجالور Bangalore في الهند ، وأخرون قاموا بها على مدينة فرنسية ، وقد تبين من هذه الدراسات استجابة ضعيفة نحو سكنى الضواحي ، وهذا اتجاه يختلف عن ما هو سائد في المجتمع الأمريكي والذى على أساسه صاغ كثير من علماء الاجتماع تعميماتهم ، وعلى الرغم من وسائل نمو الاتجاه نحو الضواحي ممكنه ، إلا أن كثيرا من الأشخاص يفضلون الإقامة في المدينة وضاحية في قلبها أو مركزها (١) .

ثانياً : أحيــاء المدن :

ابتداءً يعرف الحى (The Neighborhood) من وجهة نظر سوسيولوجية بأنه مجموعة الأماكن السكنية التى يمنحها سكانه خصائص الارتباط الاجتماعي والمصلحة المشتركة ، ويؤثر فيه بعضهم على بعض . وهو أيضاً المكان الذى يشعر فيه هؤلاء السكان بالانتماء الى المجتمع الذى يعيشون فيه (٢).

---

(١) محمد الجوهرى وأخرون : المرجع السابق ص ١٧٨ .

(٢) Marshall. B. Clinard., Slums and Community Development Experiments in Self- Help. The Free Press. N.Y. 1968. P 3.

ويختلط بمفهوم أخر هو المنطقة (The Area) (١) وفى تصورى أن هذا المصطلح يعنى تعريفاً فضفاضاً يشمل المكان الاجتماعى المحدود ، كما يشمل المكان السياسى الذى يتسع لعدد من الدول . وبالنسبة لوصف الحى بالتخلف فهو يشير إلى الأنماط والخصائص على النحو الآتى : الأحياء المتدهورة : أحياء الأقليات . أحياء الزنوج . أحياء اليهود . أحياء الطبقات الدنيا . أحياء ذوى الدخل المحدود . أحياء الفقراء ، أحياء واضعى اليد . أحياء العشش والأكواخ، الأحياء الهامشية ، وأحياء الكفاف (٢) .

على ما نلمسه من تنوع التعاريف حول أنماط الأحياء امتخلفة وأتصافها بالشمول ، فمازالت وجهات النظر فى دراستها بعيدة عن موضوع الإلتقاء ، ومن ثم نستطيع أن نصف أنماط الأحياء المتخلفة بأنها تلك الأماكن الإقامية من المدينة التى تعبر عن واقع اجتماعى واقتصادى وفيزيقى متدنى بالنسبة للبناء الاجتماعى للمدينة، يقيم فيها مجموعة من الناس على مساحة أرضية ـ غالباً ـ ما تكون بوضع اليد غير ملائمة للسكنى الإنسانية ، وترمز هذه المناطق عادة إلى غيابب العدل الاجتماعى وعدم المساواة وعدم المسئولية الجمعية ، كما تدل على عدم التكافؤ الاجتماعى للمواطنين (٣)

وتتحدد نقطة البدء فى الدراسات الأيكولوجية والسوسيولوجية للأحياء الحضرية المتخلفة مع دراسات " تشارلز ريشموند " و " وأرنست بيرجس " و "بارك" بجامعة شيكاغو .

---

(١) Charles Abrams.. Man's Struggle for Shelter in an urbanizing world. The M.I.T. Press, London, 1964. P.9.

(٢) المعهد العربى لإنماء المدن ـ الرياض ـ إصدارات ١٩٨٦ ـ ص ٣١٨ ، ٣٦٩ .

(٣) انظر :

- Gilber Alan & Josef Gugler Op. Cit., P. 87

- سعيد فرح : دراسات فى المجتمع المصرى . الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٧١ ، ص ٢٠٧ .

وفى أوائل العشرينيات تكونت من نفس الجامعة " اللجنة المحلية لبحوث المجتمع " شملت المتخصصين فى السياسة والاقتصاد والاجتماع والتاريخ والخدمة الاجتماعية ، ليأخذوا على عاتقهم الإشراف على الدراسات التى تقوم بها الأقسام المختلفة ، والتى تعنى بتحليل أنماط الأحياء وعلاقتها بالحياة المعيشية والثقافية ومستويات الطموح بالنسبة لسكانها .

والواقع أن جهود علماء الأيكولوجيا الحضرية فى جامعة شيكاغو أسفرت عن جهود علمية فى تفسير أنماط الأحياء الحضرية المتخلفة ، وفى نفس الوقت قامت بتطوير مناهج البحث فى وصف التوزيعات المكانية لمختلف الأنشطة الحضرية .

ومن هذا المنطلق أصبح علماء الاجتماع منذ أوائل الستينيات أكثر وعياً بقيمة التغيرات الأيكولوجية ، فاتجهوا الى تطبيقها على نطاق واسع فى الدراسات السوسيولوجية للأحياء الحضرية المتخلفة فى العديد من مدن أمريكا اللاتينية وآسيا إفريقيا ، وفى نفس الوقت أصبح علماء الأيكولوجيا أنفسهم أكثر وعياً بحدود داخلهم ، ونما بينهم شبه اتفاق مشترك على أن هناك حاجة ماسة ومضطردة لإثراء الدراسات ذات الاهتمامات العلمية العامة والمتخصصة كأنماط الأحياء الحضرية المتخلفة ، ومن ثم أصبح وضع هذه الأحياء فى ضوء دراسات وميادين الاجتماع والأيكولوجيا أكثر شمولية فى تصوير وفهم التنظيم والسلوك الاجتماعى للسكان .

ولا ريب فى أن التراث السوسيوأيكولوجى أصبح الآن يحفل بالكثير من المداخل المفسرة لعوامل نمو الأحياء الحضرية المتخلفة ، وعلى سبيل المثال لا الحصر ، منها المدخل الأيكولوجى الذى يركز فى تفسيره على علاقة هذه الأحياء بنماذج استخدامات الأرض وأشكالها الفيزيقية والمدخل السوسيوبيولوجى الذى يستند فى تفسيره على طبيعة خصائص الأجيال التى تعاقبت فى سكن الأحياء الحضرية

المتخلفة ، ومدخل السلوك الانحرافى الذى ينظر إلى هذه الأحياء كأوكار لممارسة النشاط الانحرافى ، ثم المدخل السوسيوثقافى الذى يميز بين ثقافة الفقر وسكنى هذه الاحياء ، وأخيراً المدخل السوسيو اقتصادى الذى يقوم بوصف وتحليل حركة السكان وبناءاتهم الطبقية ومستوى حياتهم المعيشية والسكنية بالمقارنة للمجتمع الأشمل [١] .

والواقع أن هذه المداخل التفسيرية وكما تبدو لم تأت بمحض الصدفة ، بل يمكن القول بأنها نتاج لأيديولوجيات الباحثين ، خاصة إذا ما أدركنا إغفال هؤلاء للبناء الشامل للمجتمع فى تفسيراتهم ، واقتصاره على وجهات نظر أحادية فى تفسير الظاهرة . ولعل ما يمكن أن يقال فى الدراسات الأيكولوجية هو وضعية المكان والإنسان والعلاقة التفاعلية بينهما ، فكلاهما يرتبط بحجم السكان ـ وأنماط السلوك الصادر عنهما ولنبدأ أولاً بفكرة المكان ثم ثانياً السكان .

* المكـــان :

لايزال تمايز الأحياء السكنية فى المدينة ، سمة بارزة يكولوجيتها يسهل إدراكها من جانب رجل الشارع والباحث المتخصص ، فالملاحظة العابرة لمورفولوجية المدينة فى كثير من عواصم العالم قد تكون كافية لأن تحدد وبوضوح مستوى الأماكن السكنية للطبقات والفئات الاجتماعية المتفاوتة ، حقاً قد يحدث فى بعض الأحيان قدر من التداخل بين هذه المواقف ، إلا أن المظهر الفيزيقى للمسكن والمنطقة وأنماط الكثافة السكانية ومدى توافر الخدمات والتسهيلات الحضارية ، وخصائص الموقع بالنسبة للوحدات الأيكولوجية الأخرى ، تعد مؤشراً هادفاً لتحديد نماذج المنطقة السكنية من ناحية ، وتأكيد التمايز الداخلى لهذه الوحدات الأيكولوجية

---

(١) السيد عبد العاطى السيد : الأيكولوجيا الاجتماعية مدخل لدراسة الإنسان والبيئة والمجتمع . دار المعرفة الجامعية ـ الاسكندرية (١٩٨١) . انظر الفصل السادس .

من جهة أخرى (١) ، وينطبق هذا المفهوم على هـذا النحـو علـى الأحيـاء الحضريـة المتخلفة فى تنوع أشكالها الفيزيقية وأنماطها السكانية .

* الأنماط :

إن الخصـائص المميزة للأحياء المتخلفـة تبـدو أشـد ارتباطـاً بـاحتلال أرض الغير بوضـع اليد . والبنـاء العشـوائى للسـكن مـن المـواد والخامـات المتوافـرة فـى المجتمع المحلى . وسكن الاماكن غير المعدة أو المهيأة أصـلاً للإسكان .. وهـو مـا يطلق عليه في التعداد السكانى : السكن الجوازى .

ومن هنا يبدو تنوع أشكالها الفيزيقية فى كير من أحياء المدن ، وعلى سبيل المثال لهذه المدن " مدينـة بومبـاى " التـى يغلـب عليهـا مـدن الأكـواخ ذات الطـوابـق المتعددة ، وحى " هارلم " بنيويورك الـذى يتصـف بالمسـاكن القديمـة والمتدهـورة ، وحى الزنوج بمدينة شيكاغو الذى يعد أسوأ حالاً من الحى السابق . وفـى " بـانكوك تنتشر مدن الصفيح والبامبو . وفى " ريو دى جانيرو " و " ليما " ، و "هونـج كونـج"، تبدو الكهوف وأحياء الصفيح منتشرة فوق التلال والمرتفعات (٢) .

كما تبدو أحياء الصفيح أكثر اتساعاً ونمواً حـول عواصـم شـمال إفريقيـا ، ففى مدينة تونـس تمثـل هـذه الأحيـاء ربـع سـكانها ، وثلـث سـكان مدينـة الجزائـر ، وخمس سكان الدار البيضـاء .

ولعل من أهم خصـائص هذه الأحياء وضوحاً : قـذارة المكـان ، والازدحـام وفقر السكان ، واختلال التـوازن فـى معـدل الحـراك الاجتمـاعى ، وغالبـاً مـا تضـم المهاجرين من الريف . والعمالـة الهامشـية والرثـة ، والعـاطلين ومحـترفى السـلوك الإجرامى (٣) .

---

(١) السيد عبد العاطى : المرجع السابق. ص ٤٨٤ .

(٢) Marshall, B. Clinard. Op. Cit. P.3.

(٣) المعهد العربى لانماء المدن : المرجع السابق ص ٣٧١ ، ٣٧٢ .

وأكثر ما يعنينا ـ هنا ـ تحديد ملامح أنماط الأحياء الحضرية المتخلفة ، ويمكن أن يساعدنا على ذلك الدراسة التى قام بها " أبرامز Abrams " عام ١٩٤٦ فى الولايات المتحدة الأمريكية . حاول فيها أن يضع مؤشرات عامة لأنماط الأحياء الحضرية المتخلفة ، وجعل منها نماذج تنسحب على مثيلاتها بشكل عام ، وهى الأحياء الحضرية المتخلفة التى يسيطر عليها المهاجرون من الريف وأحياء الأقليات من اليهود ، والزنوج ، التى تتصف بالاحتقان السكانى ، وأحياء العمال الصناعيين التى يقيمها أصحاب الأعمال لعمالهم من أنصاف المهرة وغير المهرة الذين يعملون فى المناجم وصناعة النسيج . وأحياء الأكواخ والعشش التى يقيم فيها فقراء المدينة بشكل دائم والأحياء التى اصبحت متخلفة بفعل غزو المصانع والسكك الحديدية وإنشاء الطرق الجديدة ، مما يؤدى إلى هجرة سكانها الأصليين واحتلال الفقراء لمساكنهم . والأحياء المتخلفة المجددة ، وهى التى تستمر نتيجة الصيانة والإصلاحات ، بالرغم من قدمها وما يشوبها من تصدع ، والأحياء المتخلفة المحتملة وهى التى يتم التخطيط لها وتهيئتها لسكنى محدودى الدخل ، ثم تحولت نتيجة زيادة الكثافة السكانية ومعدل نمو الأسرة التى تشغلها إلى تغيير فى شكلها الفيزيقى ليستوعب الزيادة فى عدد الأسرة .

ولعل من أهم أنماط الأحياء الحضرية المتخلفة وضوحاً ، هى أحياء واضعى اليد فى دول العالم الثالث ، تلك التى تظهر بشكل سريع ، وتستخدم فيها الموارد البسيطة من مخلفات الصفيح والأخشاب وأعواد النباتات البيئية .

وتشير التقديرات التى تناولتها دراسة " ريتشارد بوستون " فى تحديد حجم واضعى اليد المحتلين لأرض الدولة لإقامة أكواخهم . وصلت فى أنقرة ٤٥٪ وإسطنبول ٢١٪ ، ومانيلا ٢٠٪ ، وكركاس عاصمة فنزويلا ٣٨٪ وسانتياجو بشيلى ٢٥٪ وسنغافورة ١٥٪ ، ودلهى ٧٪ .

ومن الدراسات الأخرى التى تكشف عن أنماط المحتلين ، تلك التى قام بها " تشارلز أبرامز " والتى خرج منها بعدد من التصنيفات لهؤلاء المحتلين ، أولهما المحتل للأرض ويملك السكن ، وهؤلاء يفضلون دائماً أرض الدولة والأراضى المجهول أصحابها . والثانى المحتل المساوم الذى يقوم على احتلال الأرض بهدف الحصول على تعويض مقابل الجلاء عنها . والمحتل المستثمر الذى يحتل الأرض ويقيم عليها أكواخاً أو مشروعات يستغلها لحسابه ، وينزع للهروب من الضرائب المستحقة عليه من مشروعات فى ضوء استغلال جزء منها فى مسكنه (١) .

والواقع أن الأحياء المتخلفة تنمو فى المناطق السكنية على حساب قيمة الأرض ذات المستوى المرتفع ، وبالرغم من أن سكنى الأحياء المتخلفة تكاد تكون متواضعة ومن هنا يبدو التناقض بين ارتفاع سعر الأرض وانخفاض الإيجارات ، إلا أن الأمر يبدو فى شكله الاقتصادى غير ذلك . إذ يعنى أن هذا الإسكان مرهون بالوقت حينما تتاح الفرصة لهدمه أو إزالته واستغلال الأرض فى المشروعات الجديدة سواء الصناعية ، أو التجارية ، أو السياحية .

وفى ضوء النظرة المستقبلية هذه ، يهمل أصحاب المساكن صيانتها للتأثير على السكان فى إخلائها .

وبأختصار ، يمكن القول بأن عملية المنافسة الأيكولوجية على استخدام لمكان تعد من أهم العوامل التى تكشف عن نضال السكان وجهودهم من أجل العيش العمل معاً ، تحكمهم وتوجههم عوامل من القوى والعمليات التى تنعكس على مستوى الاقتصادى للطبقات الاجتماعية لسكان المدينة (٢) .

---

(١) Charles Abrams., op. cit., P., 13.

(٢) Marshall, B. Clinard.. Op. Cit. pp..47-50 .

* **الشكل الفيزيقى :**

يبدو أن هناك اتفاقاً ملحوظاً فى المؤتمرات التى تعقد بشأن الأحياء الحضرية المتخلفة حول تأثير الظروف الفيزيقية السيئة للمكان على حياة وسلوك السكان ، وللحقيقة فقد عنيت المؤتمرات الدولية بمشكلة هذه الأحياء ، ووجدت صدى واسعاً فى مؤتمر البيئة الإنسانية المنعقد فى ستوكهولم عام ١٩٧٢ . وكان محور البحوث والتوصيات تدور حول أحياء العشش ، والسكن غير الصحى ، وتلوث البئة ، بالإضافة إلى قضية البطالة . وفى مايو عام ١٩٧٦ عقد فى "فرانكفورت" مؤتمر حول الظروف السيئة للمستوطنات البشرية تحت إشراف هيئة الأمم المتحدة (١) . وفى عام ١٩٧٧ عقدت فى جامعة " بيرج ورتنشتين Burg Wertenstein " بالنمسا حلقة بحث عن مدن الأكواخ كنمط من أنماط الأحياء الحضرية الستخلفة فى دول العالم الثالث (٢) .

التعريف الشائع للأحياء المتخلفة بأنها تلك المناطق من المدن التى تتصف بالازدحام والإهمال والأمراض الاجتماعية والصحية والانحراف ، يمكن ارجاعها إلى الظروف الفيزيقية للمكان الذى يعيش فيه الإنسان . والمعروف أن الأحياء المتخلفة بظروفها الفيزيقية تختلف من مدينة إلى مدينة أخرى وفقاً للمستويات المعيشية وطبيعة المكان فالحى المتخلف بمدينة نيويورك أو شيكاغو مثلاً ، يعد متميزاً إذا ما قارن بالأحياء المتخلفة فى مدن آسيا وأمريكا اللاتينية وإفريقيا ، بل أن توافر مياه الشرب ودورات المياه والكهرباء بشكل متواضع فى بعض أحياء المدن يخرجها عن خصائص الأحياء الحضرية المتخلفة(٣) . وفى طوكيو تعد نسبة عدد المساكن التى تدخل فى خصائص الأحياء الحضرية المتخلفة أقل بكثير من مثيلاتها

---

(١) المعهد العربى لانماء المدن : المرجع السابق ص ٩١ .

(٢) Peter C. Lioyod, Shanty Towns Indeveloping., Nation Current Anthropology., Vol. 20, No. 1, March 1979,p.114.

(٣)Marshall, B. Clinard., Op. Cit. p.5

فى مدينة نيويورك . إلا أن سكانها يعيشون فى ظروف أسوأ (١) ، ومن ثم تصبح المقارنة بين الأحياء الحضرية المتخلفة فى دول العالم الثالث ، وبين مثيلاتها فى دول العالم المتقدم ، مقارنة غير منصفة . بل إن المقارنة بين الأشكال الفيزيقية لهذه الأحياء فى دو العالم الثالث تختلف فيها وجهات نظر الباحثين . وعلى سبيل المثال نجد نظرة الباحث إلى أشكال الأكواخ المشيدة من سيقان البابمو ، أنها صورة من صور التخلف ، بالرغم أنها من أفضل الخامات ملاءمة فى بناء المساكن بالنسبة للمناطق الحارة . ويبدو فى نفس الوقت أنها غير ملائمة فى المناطق المعتدلة ، مثل "كويتولاباس Quito Lapaz " و " بيونس إيرس Buenes Aires " ، إذن فالخامات المحلية وطبيعة المناخ لابد وأن تكون موضع الاعتبار فى الدراسات المقارنة بالنسبة للأحياء الحضرية المتخلفة بالإضافة إلى نصيب هذه الأحياء من الخدمات المختلفة (٢) .

وهكذا يبدو واضحاً أن الوضع الراهن للشكل الفيزيقى للسكن فى هذه الأحياء يعكس طبيعة الحياة الاجتماعية للسكان فيها. ففى أمريكا اللاتينية تعد الأحياء المتخلفة فى وضع فيزيقى سئ بالنسبة لكثير من مثيلاتها فى دول العالم . ويقدر عدد الذين يعيشون من سكانها فى الأرجنتين ٣٠٪ وفى شيلى ٢٥٪ . وفى البرازيل وكولومبيا وفنزويلا وأكوادور وبارجواى يعيش واحد من كل خمسة عشر شخصاً فى الأكواخ. وفى بنما يعيش كل عشرين شخصاً فى غرفة واحدة ، ويضطر هؤلاء إلى النوم بالتناوب (٣) .

وفى بعض مدن الأحياء الحضرية المتخلفة فى آسيا يعيش على مساحة الفدان الواحد ما يزيد عن ٢٨٠٠ نسمة . ففى هونج كونج تبدو الأكواخ متراصة فى

---

(١) Ibid., p.54.

(٢) Cilbert.Alan , & Gugler Josef., op., p.. 83.

(٣) Charles Abrams., op.cit., p.p.1365.

شكل طوابق ، الطابق الأرضى منها تشغله متاجر صغيرة كثيراً ما يقع أصحابها فريسة للأمراض ، وتبدو أهم مشاكلهم فى خصوصياتهم .

وفى دراسة قام بها " روبرت شميت " عام ١٩٥٧ عن هذه الأحياء بشكل عام وجد أن ٧٣٪ من سكانها يعيشون على مربعات صغيرة مقسمة على الحجرة الواحدة . وعادة ما يفصل بينها ستائر فيزيقية وممرات ضيقة ، وفى هذه الأماكن الصغيرة توضع الأسرة التى تستخدم للنوم والجلوس ومخازن للحاجيات الشخصية . وبالنسبة لأماكن المنافع العامة فتتمثل فى دوره مياة واحدة ، ومطبخ يشترك فيهما سكان الطابق الواحد ، بصرف النظر عن عدد الأفراد . ومن الأشياء الملفتة للنظر ، ذلك التوافق بين المكان والسلوك الاجتماعى الذى يبدو من احترام الجيرة ، وهذا يرجع إلى تماسك الأسر وما تفرضه من التزام أخلاقى فى العلاقات الاجتماعية وهو سمة من سمات الضبط الاجتماعى فى المجتمع .

وبجانب هذا لم يغفل الباحثون تأثير ظروف المكان على انسحاب بعض أفراده من مجتمعه بتعاطى المخدرات ، وهو ما أيدته تقارير ودراسات رسمية عن حجم المتعاطين فى هونج كونج الذين زاد عددهم إلى ما يربو عن ربع مليون شخص عام ١٩٦٠ ، وبنسبة واحد لكل إثنى عشر شخصاً من السكان (١) .

وفى الهند كان نحو ٦٠٪ من سكان المدن الكبرى يعيشون فى الأحياء الحضرية المتخلفة . ويبدو من احصاءات سابقة أجريت عام ١٩٥٨ ، أن الذين يعيشون فى أماكن غير معدة للسكن الإنسانى وصل عدد هذه الأماكن إلى مليون ونصف وحدة سكنية ، وبسبب إزدياد النمو الحضرى فى الهند فإن الوضع السكانى

---

(١) Robert. C. Shmit., Immplications of Density in Hong Kong : Journal of the American Institute Planners, xxix, Ugus. 1963 pp. 210-216.

Lai, Wai Chung., The Formation of Sqwatters and Slums in Hong Kong . The formation of Habitat International. 1985. P..3-4.

أصبح يسير من أحوال سيئة إلى أسوأ ، بل أصبح يشكل للحكومة متاعب فى إيجاد حلول تتمشى مع خططها الخمسية (١) .

وتشير الإحصاءات الخاصة بمدينة بومباى بالهند إلى أن شخصاً واحداً من بين ٦٦ شخصا لا مأوى لهم . بالإضافة إلى ٧٧ ألف شخص يعيشون فى مداخل البيوت أو حظائر المواشى أو على الأرصفة (٢) ، وعلى الرغم من الظروف الاقتصادية للبعض التى تمكنهم من دفع إيجارات لمساكن متواضعة إلا أنه مع ذلك لا تتوافر لهم هذه المساكن بالقدر الكافى ، وهذا ما يدفع الكثيرين منهم إلى بناء أكواخهم من سيقان البامبو المتوافر بكثرة فى هذه المناطق . وبعضهم يقيم سكنه فى مظلات يعدها من الأقمشة ويحتل بها الأرصفة وتبدو الحياة طبيعية فيها حينما تشعل النساء النار فى روث المواشى لتعد عليها طهى الطعام (٣) .

وفى لاجوس عاصمة نيجيريا ، نجد نموذجاً سيئاً للأحياء الحضرية المتخلفة من بين مدن دول غرب إفريقيا ، ففى دراسة على عينة من ٢٥٦ شخصاً تم اختيارهم عشوائياً وجد أن الذين يسكنون حجرة واحدة يتراوح عددهم ما بين خمسة إلى ثمانية أشخاص . وأن ٩٥٪ من هذه الحجرات دون حمامات أو مراحيض . كما تشير نتائج هذه الدراسة أيضاً أن ٤٠٪ من أفراد العينة يعيشون تحت وطأة الديون (٤) .

والشئ الملفت للنظر ، أن سكان هذه الأحياء يتصفون بالنظافة الشخصية بعكس ما هو متوقع بالمقارنة لسكان الأحياء الحضرية المتخلفة فى الدول الأخرى .

---

(١) Nagpaull, Hams., Stategies for better urban Enviorment, Indian Journal of Social Research, 1982. Apr, 1-28

(٢) Alan Gilbert & Josef Gugler., op. Cit.. p. 71.

(٣) Charles Abrams, op. cit., P.5

(٤) Akom, Antwi Aaron . Development Strategies for Slums of lages, Habitat International 1984, P. 3 - 4.

ومع ذلك فظروفهم الصحية سيئة نتيجة تفشى أمراض الملاريا ، والالتهاب الرئوى، والدوسنتاريا ، بالإضافة إلى النزلات المعوية التى تؤدى إلى وفاة الأطفال تحت سن الخامسة ، وهو ما يزيد عن عشرة أضعاف معدل الوفيات فى مدينة لندن (١) .

ومن الصور السيئة للأحياء الحضرية المتخلفة فيزيقياً واجتماعياً على مستوى مدن العالم ، وما يبدو فى مدن جنوب إفريقيا . فسكان الأحياء المتخلفة فيها يمثلون النسبة العامة للأفارقة الوطنين ، والشكل الشائع لهذه الأحياء هو القذارة ، والكثافة السكانية العالية ، والتصدع الأسرى ، والعزلة ، ومشاعر الاغتراب عن المجتمع العام .

والمجتمع الإفريقى فى " جوهانسبرج " يشكل مجتمعاً له خصائص مميزة داخل المدينة ، ففى حدود مدن الأكواخ يعيشون فى أماكن سكنية مصنعة من الصفيح ، ومن اشهر الأحياء المتخلفة هى " الكسندر " المبنى من الحجارة ويعيش فيه أكثر من ١٠٠,٠٠٠ نسمة ، لا تتوافر فيه أبسط المرافق الصحية . ويطلق على هذا الحى " شيكاغو إفريقيا " لانتشار العصابات ومحترفى الإجرام وشيوع الانحراف بأشكاله المتنوعة .

الواقع أن الصورة الفيزيقية للوضع الاجتماعى لسكان الأحياء المتخلفة فى جنوب إفريقيا فرضته الظروف السياسية لنظام الحكم الذى يقوم على التفرقة العنصرية بين المواطنين الأصليين من الأفارقة ، وبين البيض الأوروبيين المقيمين فيها (٢) .

---

(١) Marshall, B. Clinard., Op. Cit. p.57.

(٢) Ibid., Op. Cit. p58.

• **السكـــــان**

يبدو من اهتمامات الباحثين فى الدراسات الاجتماعية والأيكولوجية لسكان الأحياء الحضرية المتخلفة ، أن الشكل الغالب عليها يعنى بمبكـاينزم الهجـرة ، والخصائص البيولوجية ، والاتجاهات السلوكية ، والأنماط الثقافية .

ومن الدراسات التى تناولت خصائص سكان هذه الأحياء وعلاقتها بالمكان، تلك التى قام بها كل من ستوكس ، وزورباخ ، وجانز . لقد جاء اهتمام " ستوكس " بنماذج السكان وقام بتصنيفهم فى نمطين :

أولهما : الذين يعيشون فى هذه الأحياء على مجرد الأمل .

وثانيهما : الذين يعيشون يائسين ومستسلمين لواقعهم الاجتماعى .

وبالنسبة للنمط الأول : فيمثلهم الجماعات النشطة من الذين لديهم الدافعية للحراك الاجتماعى الصاعد . يسعون الى تغيير وضعهم الاجتماعى ، والخروج من نطاق الحياة المعيشية للأحياء المتخلفة .

أما النمط الثانى : فهؤلاء يعيشون على الفرص المعيشية المتاحة لهم ، وليست لهم طوحات فى تغيير أوضاعهم . وربما يرجع ذلك إلى المستوى الاقتصادى المنخفض الذى يعيشونه ، مما جعلهم عاجزين عن تخطى هذا المستوى، ومن ثم فهم مستسلمون لواقعهم (١) .

ويقسم " زورباخ Zorbaugh : و " جانز Gans " سكان الأحياء الحضرية المتخلفة فى أربعة نماذج :

أولها : الباحثون عن أنشطة العمل من الطبقة الدنيا .

ثانيها : فئات العمل الروتينى .

ثالثها : الفئات غير المتوافقة إجتماعياً .

---

(١) Charles. J.Stokes., Atheory of Slums.. Land Economic., 38. August., 1952. p.p. 187-197.

رابعها : فئات الصراع .

النموذج الأول والثانى ؛ ينظر إليهما " جانز " (١) على أنهما من أكبر جماعات سكان الأحياء المتخلفة ، ويتميزان بقدرات محدودة فى الحياة ويتمسكان بأعمالهما الروتينية الثابتة ، وأسلوب الحياة اليومي النمطى .

بينما النموذج الثالث من غير المتوافقين اجتماعياً وهؤلاء عاجزون عن ظبط سلوكهم ، وكثيراً ما يتعرضون للمشكلات والأزمات الاجتماعية ، ومن ثم يحاولون الانسحاب من المجتمع بالإدمان والتعاطى .

أما بالنسبة للنموذج الرابع ، فهم يميلون إلى الصراع والمغامرة لتحقيق أهداف شخصية يؤكدون فيها ذاتهم وكثيراً ما يخرج بهم الصراع عن المعايير الاجتماعية وتحدى السلطة ، وفضلاً عن ذلك تكشف لنا دراسة " سيلي " عن أربعة أنماط من سكان الأحياء المتخلفة ألق عليها الخصائص الآتية :

١ ــ أصحاب الضرورة الدائمة .

٢ ــ أصحاب الضرورة المؤقتة .

٣ ــ الانتهازيون الدائمون .

٤ ــ الانتهازيون المؤقتون .

النموذج الأول : أصحاب الضرورة الدائمة : ومن هؤلاء يوجد ثلاث نماذج هى الكسالى ، والفقير المتوافق ، والمنبوذون اجتماعياً .

ومن أبرز خصائص الكسالى التبلد الحسى والاستسلام . بينما الفقير المتوافق يعيش على هامش الحياة الاجتماعية . أما المنبوذون فمن أهم خصائص النشاط في الأعمال الرثة .وتجارة المخدرات وتهريبها وتعاطيها .

---

(١) Herbert J. Gans., The Urban Villegers group and class in the life of ltalin Americans (New york) the free Press. 1962. p.28.

النموذج الثانى : أصحاب الضرورة المؤقتة : ومن هؤلاء صنفان ؛
الصنف الأول : الفقير المضطر للإقامة فى الأحياء المتخلفة دون شعور بالرضا ومع ذلك يعيش غير متوافق فى مجتمعه .
أما الصنف الثانى : فهم الذين وجدوا أنفسهم محاصرين بالأحياء المتخلفة ، وأصبحت مساكنهم تدخل فى نطاقها ، وبالتالى أصبحوا يعيشون فى حدود هذا النطاق .

النموذج الثالث : الانتهازيون الدائمون : وتتكون نماذج هؤلاء من الهاربين من أحكام القانون والمنسحبين من الصراع . والمتشردون والباعة الجائلون ، وهؤلاء لا يشملهم التعداد السكانى لفقدان هوية نشاطهم فى الإنتاج ، وهناك نموذج منهم يدعى التبشير بين أصحاب الثقافات الدنيا .

بعد ذلك تأتى فئة المغامرين والمهربين الذين تحويهم الأحياء المتخلفة ، كأوكار يختفون فيها عن أعين الشرطة .

النموذج الرابع : الانتهازيون المؤقتون : ويبدو أن هؤلاء امتصوا الثقافة الاقتصادية الأمريكية ، ويصنف هؤلاء على ثلاثة أنماط :
أولاً : الوافدون الفقراء الذين يهاجرون إلى المدينة بهدف البحث عن عمل ، وفى نفس الوقت يحاولون التكيف مع حياة المدينة .
ثانياً : الصاعدون الذين يحاولون عن طريق التدريب وممارسة الأنشطة الاقتصادية المختلفة تحقيق حراك اقتصادى صاعد .
ثم ثالثاً : وهم أصحاب المشروعات الصغيرة الذين يحاولون من خلال مشروعاتهم تحقيق طموحات اقتصادية تساعدهم فى الخروج من نطاق الأحياء الحضرية المتخلفة (١) .

---

(١) Charles, Abrams., op. cit., p.46.

والواضح من نماذج سكان هذه الأحياء بخصائصهم المتنوعة أنهم يتفاعلون مع ظروف البيئة إيجاباً وسلباً ، وتستند عمليات التفاعل بين السكان والمكان على ما تقدمه من أشكال العلاقات والمتغيرات . وإن كانت تمثل نظرة جزئية إلا أنها في تساندها مع المتغيرات الاقتصادية والسياسية التى تسود المجمع يمكن أن تعطينا صورة مكتملة فى إطار شمولى أوسع .

* الهجــرة :

على الرغم من أهمية الهجرة في نمو المدن بصورة عامة سواء فى الدول الصناعية أو النامية ، إلا أن هذا العامل يقوم على وجه الخصوص بدور أساسى فى الانفجار الحضرى فى دول العالم النامي ، الناتج عن التغير الجذرى الذى لحق بتقسيم العمل فى ظل خطط التنمية ، التى أخذ بها العديد من هذه الدول ، والتى كان ولايزال الصدى لها نزوح السكان من المناطق الريفية حيث يسود الرعى والزراعة اليدوية إلى المناطق الحضرية ، حيث تسود وظائف القطاع العام إلى جانب بعض الوظائف الصناعية والمهن الحرة (١) ، ومركزية المؤسسات المالية والتجارية والصناعية ، ومن المسلم به أن نمو المدن السريع فى الدول النامية يعكس الهجرات الواسعة لسكان الريف نتيجة التخلف الاقتصادى والبطالة التى يعيشها هؤلاء السكان ويسعون إلى المدينة للبحث عن فرص العمل ، حتى أصبحت غير قادرة حاليا فى تطور نموها الاقتصادى ، لقد أصبح نمو المدن مصحوبا بنمو البطالة وهذا ما ينعكس على تركيب سكان المدن ، حيث يعيش جزء كبير من العاطلين على حساب دخول الصدقة أو التسول أو العمل فى المجالات الرثة كالباعة الجائلين وصغار الحرفيين الذين يعيشون على حافة الفقر (٢) .

---

(١) عبد الله الخليفه : المرجع السابق ص ٢٨

(٢) Alan Gilbert and Josef Gugler op. cit. p 36-37.

وتتركز الأماكن السكنية لأكثرهم فى أطراف المدن التى يطلق عليها مدن الأكواخ ، وهى تستوعب بين ثلث وثلثى العالم من سكان مدن العالم الثالث حسب تقرير جورج إى هاردوى وديفيد ساترنويت ومعظم هذه الأماكن يتم احتلالها بوضع اليد (١) .

تميل الدراسات الأيكولوجية الحضرية إلى تأكيد الدور الذى تلعبه الهجرة فى وضع اليد على أرض المدينة ، وما يترتب عليها من نمو الأحياء الحضرية المتخلفة فى كثير من مدن العالم ـ خاصة مدن العالم الثالث ـ وتتجه الهجرة إلى هذه الأحياء نتيجة عدد من العوامل الاضطرارية المرتبطة بالصراعات والاضطهاد والحروب والكساد . وفى نفس الوقت تعد هذه الأحياء بمثابة محطات وصول لأقارب المهاجرين الذين سبق لهم التوافق والتماثل فى هذه الأحياء ، واستطاع البعض منهم تحقيق حراك اقتصادى واجتماعى ، ويبدو فى الأحياء المتخلفة نماذج متنوعة من أشكال الهجرات ذات خصائص إقليمية وعرقية ودينية ، متعددة الثقافات وهى فى كل الأحوال ـ أى الأحياء المتخلفة ـ تساعد المهاجرين وتهيئتهم لثقافة المجتمع الحضرى .

وفضلاً عن ذلك فإن بعض المهاجرين استطاعوا من خلال جهود نشطة تحقيق مكانة وحراك اجتماعى صاعد . دفع البعض الآخر من أقاربهم وبلدياتهم إلى محاولة محاكاتهم والانتقال إلى المدينة ، واتخذوا من الأحياء المتخلفة أماكن سكنية ومجالاً لأنشطتهم الاقتصادية .

وفى الدول النامية أصبحت أحياء الأكواخ والعشش أشكالاً شائعة فى البناء السكنى للأحياء . وعلى سبيل المثال ، تعانى مدن أمريكا اللاتينية من تضخم هذه الأحياء التى تضم أعداداً كبيرة من المهاجرين الريفين . حتى إن بعض الباحثين قد

---

(١) جورج إى هاردوى ، ديفيد ساترنويت : مواطنون بلا ملاذ ، رسالة اليونسكو ، يناير ١٩٩١ ، ص١٢.

ذهبوا إلى أن هذه الأحياء قد أصبحت القاسم المشترك الأعظم الذى يميز مدن هذه القارة . وغالبا ما تضم الأحياء الحضرية المتخلفة فيها سكاناً لا ينتمون إلى البروليتاريا (Proletariat) (١) إذا ما استخدمنا تعبير " فانون Fanon " ، وتختلف مسميات أحياء واضعى اليد باختلاف دول أمريكا اللاتينية ـ وإن كانت خصائصها تكاد تكون واحدة فى معظمها . ويصف بعض الدراسين سكان أحياء واضعى اليد بالهامشية (٢) ويذهب " جيلبرت Gilbert " " جوجلر Gugler " إلى أن الهامشية تعد مصطلحاً متداولاً فى أمريكا اللاتينية ، يعبر عن العلاقة بين سكان مدن الأكواخ بالأحياء المتخلفة ، والمجتمع الأشمل ، وهذا المصطلح غير متداول نسبيا فى إفريقيا وآسيا . ومع ذلك فإن هذا المصطلح يستخدم بمعنى الهامشية الثقافية للمهاجرين . فالمهاجرون من سكان مدن الأكواخ فى أمريكا اللاتينية يتوافقون مع معايير القيم السائدة بينهم ، ويبدو هذا التوافق من الجهود المشتركة فى بناء المساكن، وفى التنشئة الاجتماعية التى تتمشى مع معايير المجتمع ، وعلى ذلك فهناك نظرة تختلف للهامشية القروية فى الإطار الإقتصادى ، إذ يعتبر المهاجرون أساسا من الريفيين الذين يعانون الفقر نتيجة التحولات الاقتصادية من الزراعة إلى الصناعة ، وهو ما أدى بهم إلى البطالة والدافعية إلى الانتقال إلى المجتمع الحضرى الصناعى للبحث عن فرص العمل . ونتيجة للصعوبات التى يواجهونها فى المرحلة الأولى من هجراتهم يجدون من وضع اليد على أرض الدولة وإقامة مساكن عليها ، هو الطريق الأمثل لإيجاد مأوى إقامى يسكنون فيه " (٣) .

وفضلاً عما سبق نجد سكنى واضعى اليد فى الأحياء الحضرية المتخلفة فى مدن أمريكا اللاتينية ، تتميز ببعض الخصائص المشتركة فهى أحياء يسكنها

---

(١) Marshall. B. clinard op. cit p. 18.

(٢) السيد الحسينى : المرجع السابق ، ص ١٧٦ .

(٣) peter, C.Lioyd., op. cit, p. 116.

أصحابها بوضع اليد ، كما أنها تقع عادة على تخوم المدن . ولقد أوضحت بعض الدراسات الحديثة على أن تلك الأحياء ليست إختيارات فردية ، فقد بدأ يتكون معظمها عندما أخذ بعض الناس الذين يعيشون فى أحد الأحياء المتخلفة ينظمون صفوفهم ، ويتحركون كجماعة إلى قطعة من الأرض الفضاء التى قد تكون مملوكة للدولة . وفى فترات وجيزة يظهر واضعوا اليد على تلك الأرض ويقسمونها إلى قطع صغيرة ، ويقيمون فوقها مأوى لهم من مواد مؤقتة وسريعة الاستعمال فى لعادة (١) .

وهناك اعتقاد سائد لدى علماء الاجتماع الحضرى ، بأن أحياء واضعى اليد ى مدن أمريكا اللاتينية هى أحياء مؤقتة ، وأن معظم سكانها هم من المهاجرين الريفين الجدد الذين لم يتمكنوا بعد من الحصول على وظائف دائمة ، غير أن ما نلاحظه بالفعل قد لا يؤيد كثيراً هذا الاعتقاد ، إذ أن هذه الأحياء قد وجدت لتظل قائمة ، وأنها تتخذ بمرورر الأيام وجوداً دائماً . كما أن سكان هذه الأحياء ليسوا بالضرورة من المهاجرين الريفيين ، بل قد ينتمى بعض منهم إلى المدن والمراكز الحضرية الصغيرة . ولقد أوضح أحد تقارير الأمم المتحدة " أن وجود هذه الأحياء المؤقتة هو علاقة على رفض سكان المدن لها . كما أشار أحد الدراسين إلى أن هذه الأحياء المؤقتة ما هى إلا ظواهر حضرية دائمة تضرب بجذورها فى أعماق البناء الاجتماعى ـ الاقتصادى ، ومن الصعب تفسير أحياء واضعى اليد ونموها فى مدن أمريكا اللاتينية بمعزل عن الظروف الاجتماعية والاقتصادية التى مرت بها ، وما تزال ، خلال العقود الأخيرة على أقل تقدير . إذ أن ظهور هذه الأحياء هو نتيجة منطقية وحتمية لوجود قطاعين اقتصاديين متعارضين الأول : مستقر دائم، والثانى : قلق مؤقت . ومن الطبيعى أن يكون القطاع الاقتصادى الثانى من نصيب سكان أحياء أو مدن واضعى اليد . وعلى الرغم من وضوح هذا التفسير الاقتصادى ، إلا

---

(١) السيد الحسينى : المرجع السابق ، ص ١٧٦ .

أن بعضاً من دراسى المدن فى أمريكا اللاتينية يفضلون مناقشة الأعراض دون التعريف على الأسباب ، فبدلاً من دراسة هذه الازدواجية الاقتصادية ، نجدهم يهتمون بدراسة النتائج الاجتماعية والثقافية للهامشية الحضرية بوجه عام . ولقد أوضحت بعض دراسات الهجرة الداخلية فى أمريكا اللاتينية أن أحد الأسباب القوية لزيادة معدلاتها ، هو عدم قدرة القطاع الاقتصادى المستقر والدائم على النمو والاتساع ، وبالتالى إتاحة مزيد من فرص العمالة للسكان الحضريين الهامشيين (١).

ويبدو أن الحياة الحضرية تميل إلى تأكيد أهمية المبادأة والتكيف مع الظروف الاجتماعية والثقافية لسكان المدينة ، ومن هنا يمكن فهم قضية أخرى ترتبط بالعزلة الاجتماعية للمهاجرين .

* العزلة الاجتماعية : **Social Isolation**

يقصد بالعزلة الاجتماعية اتجاه قطاع من السكان فى المدينة إلى السكن والعمل فى بيئة اجتماعية معينة يتحقق لها نوع من الحياة التى ارتضاها لهم المجتمع والتى تتفق مع القيم الاجتماعية السائدة فيه ، وعادة ما تشترك هذه الجماعة مع بعضها البعض فى الموطن الأصلى أو الديانة أو الخلفية العرقية والقبلية أو المهنة بحيث تشكل هذه المجموعة الأغلبية بين سكان أحياء المدينة ، بصرف النظر عن المستوى الاجتماعى والاقتصادى لهذه الأحياء ، فالعزلة تعتبر إحدى العمليات الايكولوجية التى تصاحب التنظيم الاجتماعى للمدينة كالهجرة والغزو العمرانى والتتابع . هذا وقد ميز بعض الباحثين بين مظهرين للعزلة وهما العزلة الفكرية والمذهبية ، والعزلة المكانية الاجتماعية (٢) .

---

(١) نفس المرجع السابق : ص ١٧٩ ـ ١٨٠ .

(٢) عبد المجيد عبد الرحيم : علم الاجتماع الحضرى . مكتبة الانجلو المصرية . القاهرة ١٩٧٦ ص ١٨٢ .

وتشير الشواهد إلى أن العزلة تظهر بصورة أكثر وضوحاً فى المدن التى تنتشر فيها الأحياء المتخلفة والتى ينتمى معظم أهلها إلى المهاجرين من الريف والمناطق المتخلفة الى المدينة وذلك لأسباب مختلفة . مما قد يؤدى بالأفراد الى تضارب الأهداف والمصالح والقيم ، وهذا يؤدى بالضرورة الى اتساع الفجوة بين الأفراد مما يساعد على انتشار العزلة ، وفى بعض الأحيان قد يعانى بعض الجماعات المنعزلة من الأضطهاد كالزنوج فى الولايات المتحدة . فهناك مناطق تعرف بالمناطق السوداء يقطنها الزنوج حيث الأختلاف فى المناطق السكنية يعد أمراً غير مرغوب فيه بالنسبة للعناصر البيضاء . لذلك يجد الزنوج صعوبة فى التحرك خارج منطقتهم حيث ترتفع الكثافات السكانية لدرجة كبيرة إذ أن قوانين العزلة لا تسمح بالإيجار أو شراء منزل جديد من المناطق المجاورة ، ولهذا السبب تحولت مناطق كبيرة من مناطق الزنوج الى مناطق متدهورة صحياً واجتماعياً (١) .

والواقع أن العزلة تتشكل بتشكل ظروف الجماعات والمجتمع فقد تتكون طواعية أو اجبارية أو مرفوضة .

فالطواعية وهى التى تنشأ عندما يرغب الفرد بمحض إرادتة أن يعيش مع آخرين ينتسب لهم بأى صلة اجتماعية ، ويعتزل الذين يختلفون عنه فى اعتبارات يراها جوهرية ، والدوافع وراء ذلك تختلف باختلاف الأفراد والجماعات وطبيعة البيئة .

أما العزلة الاجبارية فتتمثل فيما يلى :

* **القانونية** : وهى تفرض باسم القانون أو العرف أو بهما معاً .
* **الاقتصادية** : وهى التى تتعلق بالمناطق التى تحقق لأفرادها وجماعاتها المستويات الاقتصادية التى تناسبها .

---

(١) Gilbert.. op. cit. p. 166.

* السياسية : وتلجأ فيها الجماعات التى تنتمى لحزب واحد سياسى للإقامة فى منطقة متقاربة كما فى الولايات المتحدة فهناك مناطق بأكملها تدين للحزب الديمقراطى .
* المهنية : وفيها تنعزل بعض الجماعات المهنية للإقامة فى مناطق خاصة بها .
* الدينية : وفيها تلجأ بعض الجماعات الدينية للإقامة فى مناطق خاصة كما نرى فى المستعمرات اليهودية أو بعض المذاهب الدينية المتصارعة فى بعض المدن.

وهناك أنواع أخرى من العزلة الواقعية التى تتمثل فى أحياء الزنوج والمدارس الخاصة بهم (١) .

ومن الشواهد الاجتماعية للعزلة الاجتماعية فى الولايات المتحدة الامريكية ما يتضح من اضطهاد الأقليات الكاثوليك على أساس أنها تختلف عن الغالبية البروتستانتية فقد بلغ الكاثوليك فى الولايات المتحدة عام (١٩٥٩) ٢٢٪ من السكان وهم بذلك يشكلون أكبر أقلية فى الولايات المتحدة من بين الأقليات الدينية الأخرى . ورغم ذلك يتعرضون للتفرقة المهنية والتعليمية والسياسية ، وهم غالباً ما يمثلون الطبقة الوسطى . وبمقارنة الكاثوليك باليهود كأقليات نجد ثلث الخريجيين من اليهود قد حصلوا على مراكز إدارية ومهنية مقابل ٣٦٪ من البروتستانت ، ٢٦٪ من الكاثوليك .

أما من حيث الدخل فإن ٢٥٪ من اليهود والبروتستانت يصل دخلهم السنوى الى حوالى ٧٥٠٠ دولار أو يزيد للفرد سنوياً ، أما بين الكاثوليك فالنسبة تصل الى السدس تقريباً .

---

(١) John Kana., Social Problem., prentice. Hallin C., London 1962. pp .277- 297.

هذا وغالباً ما تعانى الأحياء التى يقطن فيها الكاثوليك من التخلف والتدهور فى الخدمات ، وفى انجلترا قام كل من بوال Boal ومعاونيه من جامعة كوين بدراسة عن العلاقة بين العزلة الاجتماعية فى مدينة بلفاست فى أيرلندا الشمالية والتحرك السكانى . وجاءت هذه الدراسة فى الفترة ما بين ١٩٦٩م ـ ١٩٧٢م وهى فترة الصراع بين السكان الكاثوليك والبروتستانت .

وفى إطار التتبع التاريخى للصراع بين سكان المذهبين المسيحين أكتشف الباحثون أن هذا الصراع بدأ منذ عام ١٨٥٧م ونتيجة لذلك تم إخلاء الأقليات الكاثوليك من حى " ساندى رد " وإخلاء الأقليات البروتستانيون من حى " باوند " .

وفى عام ١٨٦٨م بدأ التطرف السياسى والدينى من " بلفاست " مما أدى بطبقة الحرفيين الى الاتجاه نحو أحياء منعزلة يمارسون فيها حرية العقيدة والعمل بعيداً عن الصراعات المذهبية .

وفى ضوء الدراسة الحقلية لمدينة بلفاست قسمها الباحثون الى ثلاثة أحياء منعزلة هى حى الكاثوليك وحى البروتستانت والحى المختلط بين المذهبين . وجاء هذا التقسيم من ضوء الملكية لكل فئة .

ويرى بوال Boal أن العزلة المذهبية كانت من أحد العوامل المساعدة على دعم الاتصال بين كل فئة على حدة والتوحد الثقافى ، والتخفيف من حدة الصراع اليومى ، وفى نفس الوقت تعد العزلة مصدراً من مصادر قوى الدفاع فى مواجهة أى صراع .

وعلى النقيض تماماً كشفت بحوث أيكولوجية من نفس الجامعة أن نظام العزلة الاجتماعية له آثاره السلبية فى حدة الصراع بين الثقافات المتباينة ، كما كشفت أيضا الدراسة الايكولوجية للجماعات المنعزلة ، أن البروتستانت يميلون الى

التمركز فى المناطق الصناعية فى المدينة ، ومن ثم تقل نسبة البطالة بينهم ، بينما تزيد بين فئات الكاثوليك (١) .

والواقع أن مظاهر الصراع مازال قائماً بين البروتستانت والكاثوليك فى أحياء مدينة بلفاست عاصمة إيرلندا الشمالة ، ويبدو هذا الصراع فى مسيرة استفزازية قام بها البروتستانت فى بعض الأحياء السكنية للكاثوليك بتاريخ ١٢ـ٧ـ١٩٩٦ لإحياء ذكرى مرور ٣٠٠ عام على هزيمة الملك جيمس الثانى الحاكم الكاثوليكى لإيرلندا الشمالية ، وهذا ما أدى إلى المواجهة والصدام الدموى بينهما (٢) .

وفى دراسة أخرى عن تاريخ العزلة الاجتماعية والبناء الاجتماعى فى منطقة سبارك قام بها ركس مور Rex and Moor عام ١٩٦١ ونشرها عام ١٩٦٧م تناول فيها ثلاثة مجموعات طبقية تتصف بالانعزالية منذ مرحلة النمو الأولى للمدينة . وهى دراسة ذات طابع تاريخى اجتماعى .

الطبقة الأولى : وهى من الطبقة المتوسطة العليا " أصحاب الصناعات " وقد عاشوا فى منازل عائلية مستقلين إقتصاديا وإجتماعياً ، وقد استطاعوا ترسيخ ملكيتهم وتنمية رؤوس أموالهم وعاشوا بالقرب من وسط المدينة .

الطبقة الثانية : وهؤلاء الذين يعملون عند الطبقة الأولى وقد عاش هؤلاء الأكواخ وساد الحرمان بينهم مما أدى إلى التضامن فيما بينهم ، وظهرت بينهم ثقافة عامة تبلورت فى جمعيات الصداقة .

الطبقة الثالثة : وهى الطبقة التى بدأت فى الظهور فى نهاية القرن التاسـ عشر وكانت بين الطبقتين السابقتين الرئيسيتين ، مثل الباعة والكتبة ، وهى تعد م

Pahl R. E, Rflynn and Buck, N. H., A Spects of Modern Sociology Strucrures
. Process of Urban Life., London 1975 , P. P. 49 - 54 .

(٢) الأهرام : ١٣ يوليو ١٩٩٦ ، ص ٤ .

فئات الطبقة المتوسطة الدنيا ، (الأقل شأنا) وهؤلاء كانوا يعيشون أيضاً على الطبقة المتوسطة العليا . بينهم بدقة بالرغم أن علاقة المصالح لم تكن واضحة .

لقد استنتج " مور " من دراسته أن سياسة العزلة بين السكان مازالت تخضع للعوامل السياسية التى تبدو فى قياده وتطويق مناطق المهاجرين واجهاض مشاركتهم السياسية (١) .

• النوعية البيولوجية :

لقد أحدث البحث فى الأيكولوجيا الحضرية ثورة واضحة فى الفهم السوسيولوجى لسكان مناطق الأحياء المتخلفة فى المدن الكبرى ، فمنذ أكثر من قرن تقريباً ، وعندما كانت الكلمة الحاسمة للعلوم البيولوجية سارت محاولات فى تفسير الأحياء المتخلفة فى خط فكرى يؤكد انحطاط النوعية البيولوجية لسكانها ، ولقد حرص علماء تحسين النسل على تأكيد دعوى أن ظواهر كالفقر ، والجريمة ، والانتحار ، والشذوذ العقلى ، وغير ذلك من مظاهر النقص فى سلوكيات سكان المناطق المتخلفة ، هى نتاج مباشر لانحدارهم من أسلاف أو سلالات بعينها ، تتميز بقدرتها المرتفعة على الإفساد بدرجة تفوق ما عداها من الأسوياء من سكان المدينة. وكان العلاج المقترح فى ذلك الوقت يتمثل فى اتخاذ بعض الإجراءات التى تعمل على عكس معدلات الخصوبة ، ولو بالقوة إذا لزم الأمر ، كتعقيم السكان الذين ينحدرون من سلالات دنيا (٢) ، ولقد أخذت الهند فى السبعينات بهذا الأسلوب ، وذلك بخطف الأزواج من سكان الأحياء المتخلفة لتعقيمهم . مما أدى إلى قيام مظاهرات سنة ١٩٧٦ ضد أنديرا غاندى رئيسة الوزراء (٣) .

---

(١) Ibid., P. 55 .

(٢) السيد عبد العاطى : المرجع السابق ص ٢٠٣ ، ٢٠٤ .

(٣) ثروت إسحاق : علم الاجتماع ، دراسة السكان . دار المعرفة الجامعية . الاسكندرية (١٩٨٢) . ص ١٨٣ .

ويبدو أن الدراسات البيولوجية فى تفسيرها لنوعية سكان الأحياء المتخلفة ، كانت موجهة أيديولوجياً نحو النزعة إلى التفرقة العنصرية فقد كان تركيزها على عينات من السكان الزنوج فى الأحياء المتخلفة بالولايات المتحدة الأمريكية ، إلا أن النظرة المتأنية لسكنى الزنوج فى الأحياء المتخلفة ، يؤرخ له فى الولايات المتحدة بهجراتهم قبل الحرب العالمية الأولى ، وهى الهجرة التى بدأت بعد ثلاثة عقود من تحرير الزنوج ، ثم جاءت الحرب العالمية الثانية ، وهى تحمل معها موجات أخرى من هؤلاء الزنوج إلى مدن الشمال الصناعى . نتيجة الزيادة على طلب العمالة فى صناعات الإنتاج الحربى .

لقد أحدثت هذه الهجرة زيادة شديدة على الإسكان ، واشتدت الضغوط على المدن الصغيرة والمدن الكبيرة على حد سواء . ونتيجة لزيادة عدد السكان وكثافتهم وظروف البطالة وقلة الأجور ، أصبحت الأماكن السكنية الملائمة تتشكل وتنمو فى ظل هذه العوامل مجتمعة .

وتشير الشواهد التاريخية ، أن المناطق التى احتلها الزنوج كانت أماكن سكنية لجماعات أخرى من الطبقات الوسطى والدنيا .

وفيما يتصل بالشكل الثقافى العنصرى للزنوج ، فالواقع أنه ليس نتيجة عوامل بيولوجية ، ولكنه نتيجة عوامل نفسية واجتماعية ارتبطت بمراحل العبودية والاضطهاد ، مما أدى بهم إلى وضع انعزالى ، كما أدى شعورهم بالاضطهاد إلى أن يكونوا أكثر عداونية . ولذا أصبح العنف يعنى إسقاط على العالم الخارجى .

لقد أدت ظروف البطالة بين الزنوج ، والتصدع الأسرى ، إلى تنشئة الأجيال تنشئة أموية ، وأصبحت النساء يعتقدن أنهن أرامل لرجال أحياء [١] ، وهكذا يبدوا أن سكان الأحياء الحضرية المتخلفة ، يشكلون جماعات غير متجانسة ، تنتسب إلى جذور عرقية وقبلية وديانات مختلفة .

---

[١] Marshall, B. Clinard., op. cit., p.. 64.

لقد ترتب على البحوث السوسيولوجية ، طرح التفسير البيولوجي جانباً بعد أن ثبت أن بعض الأحياء الحضرية المتخلفة كان يشغلها أناس لم ينشأوا في الأصل وقبل هجرتهم إلى المدينة في ظل ظروف من الفساد والتفكك الاجتماعي ، وأن هجرة هؤلاء الأفراد لم تكن انتقائية لإقصاء المستويات الدنيا من السلالات عن مواطنها الأصلية ، بل العكس كانت هجرة انتقت العناصر الأكثر طموحاً ومبادأة عن أقرانهم ممن ظلوا في مواطنهم الأصلية . كما تبين أن الأشكال المختلفة من السلوك الشخصي غير السوى كانت نتيجة للتفكك الاجتماعي ولم تكن سبباً له بحال من الأحوال ، وأنه بمرور الوقت ، يستطيع سكان المناطق المتخلفة ممن يعانون من مظاهر التفكك الاجتماعي ، أن يتكيفوا مع الحياة الحضرية وأن يرتقوا في السلم المهني أو ينتقلوا بعيداً عن المناطق المتخلفة ، وأن يبرأوا تماماً من هذه الأمراض الاجتماعية والسلوكية . كما تبين أيضاً أن هذا التفكك الشخصي نتاج للتحول السريع والكبير من المجتمع التقليدى السابق على الصناعة إلى ثقافة حضرية أكثر آلية وميكنة(١) .

والحقيقة ، لقد ساعدت هذه النتائج كثيراً في توفير أسس جديدة للفهم والمقارنة السوسيولوجية للأشكال العديدة والمختلفة من السلوك السوى أو المرضى.

والشئ الذى يبدو من المدخل البيولوجي ، هو تفسير ظاهرة الأحياء الحضرية المتخلفة في ضوء المتغيرات الوراثية وهو ما يعكس أيديولوجية الباحثين وموجهاتهم المتعصبة . مما يجعلهم بعيدين كل البعد عن العوامل الأساسية في نموها وهي العوامل التاريخية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تضافرت في بناء هذه الظاهرة ونموها .

---

(١) السيد عبد العاطي : المرجع السابق . ص ٢٠٤ .

• السلوك الانحرافى :

حاول عدد من علماء الاجتماع والسلوك الإجرامى على تأكيد العلاقة بين سكان الأحياء المتخلفة والانحراف . على اعتبار أن السلوك المنحرف هو نتيجة لمجموعة القوى الثقافية التى ينطوى عليها هذا المجتمع السكانى . ومن المعتاد لهؤلاء العلماء أن يربطوا بين السلوك الانحرافى ــ الإجرام ــ ومعدلاته فى هذه الأحياء . ففى المسح الذى قام به " هنتر HUNTER " فى بعض الأحياء الحضرية المتخلفة ومدن الولايات المتحدة تبين أن ٥٠٪ من كافة المقبوض عليهم من المنحرفين الذين يعيشون فى هذه الأحياء ، كما أن ٤٥٪ من الجرائم الكبرى التى يتم الإبلاغ عنها مسرحها هذه الأحياء ، وأن ٤٥٪ من جرائم الأحداث تقع فى هذه الأحياء . وفى دراسة استغرقت سبع سنوات فى الأحياء المتخلفة فى مدينة شيكاغو، اتضح م نها أن الجرائم البسيطة والانحراف والاضطراب العقلى بصفة عامة والإنفصام فى الشخصية بصفة خاصة . والانتحار والبغاء ووفيات الرضع ، وارتفاع معدلات الوفاة والمرض ، تتركز كلها فى الأحياء الحضرية المتخلفة (١) .

ولقد أظهرت دراسة أجريت عام ١٩٦٠ فى الأحياء الحضرية المتخلفة بمدينة " ميلودكى " تشير إلى أن نسبة سكان هذه الأحياء بالنسبة لسكان المدينة تمثل نسبة ١٧,٣٪ ومن بين هذه النسبة يتم القبض على ٣٨٪ من لصوص المدينة ، ٦٩٪ من عمليات الاعتداء الخطرة ، ٤٧٪ من أعمال الاعتداءات البسيطة ، ٦٠٪ من الجرائم ، ٧٢٪ من قضايا الغش ، ٢٢٪ من المتعاطين ، ٦٧٪ من المدمنين .

وفى أحد الأحياء المتخلفة فى مدينة " كليفلاند " يضم ٢,٥٪ فقط من مجموع سكان المدينة ، تبين أن هذا الحى مسئول عن ٦,٨٪ من حوادث الانحراف فى المدينة ، ٢١٪ من جرائمها ، ٢٦٪ من أماكن ممارسة البغاء .

(١) David Hunter., Slums Challenge and Response. New York. Free Press 1964.p.71.

وفى دراستين مستفيضتين عن ارتكاب الجريمة فى الولايات المتحدة إحداها فى مدينة " هيوستن " والثانية فى مدينة " فيلادلفيا " تبين أن الجرائم تركزت فى الأحياء المتخلفة للطبقات الدنيا بنسبة أعلى من الطبقات الأخرى .

ومن الدراسات التى أجرها " شاو " و " ماكاى " و " تراشر " فى مدينة شيكاغو حول السلوك المنحرف ، وجد أن معدلات انحراف الأحداث يقع معظمه فى الأحياء المتخلفة . الأكثر من هذا أن الأحياء المتخلفة فى مدينة شيكاغو كانت تشهد فى الفترة ما بين (١٩٠٠ ـ ١٩٢٠) جماعات عرقية غير زنجية ، حينما كان يسكنها العرقيات السويدية والألمانية والبولندية والإيطالية (١) وهذا يعنى أن معدلات السلوك الإجرامى لا ترتبط بجماعات الزنوج وحدهم ، ولكن طبيعة المكان وما فيها من معايير تفسر لنا صور وأشكال الانحراف ، وهذا ما يبدو من دراسة " ميلز " على حى متخلف يسكنه العمال بالقرب من مدينة لندن ، وجد أن أعلى معدلات الانحراف تتركز بين أسر العمال غير المهرة وشبه المهرة ، وعلى عكس نتيجة هذه الدراسة قام " " تيرانس موريس TERRANCE MORRIS " بدراسة على نموذجين من الأحياء أحدهما متخلف تعيش فيه طبقات دنيا ، وثانيهما حى راق تعيش فيه طبقات عليا ، وافترض فى دراسته أن النموذج الأول تزيد فيه معدلات الجريمة عن النموذج الثانى ، غير أن النتيجة التى توصل إليها جاءت بعكس ذلك تماماً ، وقد خلص من دراسته إلى أن الخصائص الطبيعية للمناطق السكنية ليس لها علاقة كبيرة بالجريمة والانحراف ، إلا إذا كانت نتيجة عدد من العوامل الأخرى (٢) .

ويأتى فى مقدمة هذه العوامل ملكية المسكن من قبل ساكنية ، فقد كشفت العديد من الدراسات عن وجود علاقة عكسية . وقوية بين نسبة المساكن المأهولة من قبل ساكنها فى الحى وبين معدلات الجرائم فيه .

---

(١) John Mack., Full time Miscreats Delinquent Neighborhood and criminal Net Work., The British Journal of Sociclogy., X.V., March. 1964. p. 53.

(٢) Marshall. B. op., Cit.. pp. 5-6.

ففى دراسات كل من " لاندر وبردوا " " ومشيلتون " عن بالتمور ودترويت وإنديانا بلاس . وجد فى جميع هذهالدراسات أن متغير نسبة ملكية المساكن ذو تأثير عكسى ودال إحصائيا فى معدلات الجريمة والانحراف بهذه المدن الثلاث ، إى أن أهمية هذا المتغير بالنسبة لدراسة بالتمور ودترويت أكثر وضوحاً منها فى أنديانا بلاسى ، وتقف على نقيض تلك متغير نسبة المساكن المستأجرة فى الحى إذ لاحظت العديد من الدراسات أن هذا المتغير ذو تأثر إيجابى ودال إحصائياً فى معدلات الجريمة بل أن أهم النتائج التى توصلت إليها دراسة " بالدويين وبوتومس " توضيحهما لانتشار معدلات الجريمة فى المناطق التى ترتفع فيها نسبة المساكن المستأجرة .

هذا ، ويعود السبب فى الارتباط الإيجابى بين الجريمة وبين نسبة المساكن المستأجرة والارتباط السلبى بين معدلات الجريمة ونسبة المساكن المملوكة من قبل ساكنها إلى أن كلا المتغيرين يعكسان مدى الاستقرار السكنى بالحى ، فكلما ارتفعت نسبة المساكن المملوكة من قبل ساكنيها ارتفع الاستقرار السكنى بالحى ، فى حين يتناقص الاستقرار السكنى للحى بازدياد نسبة المساكن المستأجرة الذى تمثل مؤشرا لزيادة معدلات الحراك السكنى بالحى ، المتمثل فى تعرض الحى إلى موجات كثيرة من الانتقال للإقامة فيه أو مغادرته للإقامة فى حى آخر ، هذا ، وإذا ما وضع فى الاعتبار أن ظاهرة الحراك السكنى السريع تنتشر بين فئات إجتماعية معينة كالمهاجرين والعزاب ، وما تتميز هذه الفئات عادة من انخفاض فى خصائصها الإجتماعية والاقتصادية ، فإنه فى ضوء هذا يمكن تبرير العلاقة بين مدى الاستقرار السكنى وارتفاع نسبة ملكية المساكن من قبل ساكنيها ، وبين معدلات الجريمة إلى حد كبير ، إضافة إلى ذلك ، فإن زيادة تعرض الأحياء السكنية للحراك السكنى من هذا النوع يمثل عامل طرد للمقيمين من المالكين لمساكنهم فى تلك الأحياء ، إذ يضطر هؤلاء عادة إلى ترك مساكنهم والانتقال إلى حى آخر يسوده الاستقرار

السكنى ، وتنتشر فيه ملكية المساكن ، مما يتسبب عن ذلك زيادة المساكن الغالية التى وجدت بعض الدراسات ارتباط إيجابى بين ذلك وبين معدلات الجريمة ، أضف إلى ذلك أيضا أن من أهم النتائج التى توصلت إليها دراسة " لوجان وميستير " (LOGAN & MESSNER) عن العزلة العرقية وجرائم العنف بأحياء المدن الواقعة على حدود الريف (SUBRABS) تمثلت فى وجود علاقة إيجابية قوية جداً بين درجة الحراك السكنى وبين جرائم القتل والاغتصاب الجنسى والمضاربات العنيفة والنهب.

الحقيقة التى ينبغى إن نؤكدها أن موجات الحراك السكانى تعد من أهم العمليات الإجتماعية الحضرية التى عرفت فى مدرسة الأيكولوجيا الانسانية " بعملية التعاقب " (SUCCESSION PROCESS) التى تعكس تفسير البناء الإجتماعى للأحياء نظراً للضغوط التى تمارسها عمليات الهجرة على الأحياء القديمة الواقعة على مقربة من المراكز التجارية للمدينة ،.مما يتسبب عن تلك العملية انخفاض المستوى العام للأحياء المتعرضة لتلك الضغوط ، ويجعلها وكراً للعديد من المشاكل الإجتماعية . ومسرحاً للعديد من الجرائم والسلوكيات المنحرفة .

ومن الخصائص السكنية التى كشفت الدراسات الميدانية عن أهميتها فى دراسة الجريمة ، ما يتعلق بنوع المنزل وبمستواه الكيفى أو النوعى ، فقد أفادت العديد من الدراسات بأن معدلات الجريمة وعلى الوجه الخصوص جرائم الملكية تختلف فى الأحياء السكنية باختلافها ، من هذه الناحية فقد لاحظ " ربيتو REPPETTO " أن المساكن العائلية المستقلة أقل تعرضاً لجرائم السرقة مقارنة بالشقق ، كما وجد أن العمائر ذات المداخل المحصورة يقل تعرض شققها للسطو مقارنة بالعمائر ذات المداخل غير محكمة المداخل أو المفتوحة ، هذا وقد صنف "ربيتو " جماعات الجوار فى مجموعة من المستويات وفقاً لمدى التعرض لجريمة السطو ، وقد وجد أن أقل جماعات الجوار تعرضا لهذا النوع من تلك الأحياء التى

ترتفع فيها نسبة العمائر ذات المداخل المحصورة بقطع النظر عن المتغيرات الأخرى كالسلالة ، الدخل ، الموقع يأتى بعدها المساكن الواقعة فى أطراف المدينة ، أما جماعات الجوار التى تعانى إلى حد كبير من جريمة السطو فهى التى تسكن الأحياء الواقعة فى وسط المدينة نظراً لسهولة ارتكاب الجريمة فى تلك المناطق . كما كشفت العديد من الدراسات التى أجريت على بعض المدن البريطانية خلال ١٩٧٢ ــ ١٩٧٧م أهمية هذا المتغير ، كما اتضح من دراسات أخرى فى عام ١٩٨٠ أن معدلات الجريمة والانحراف ترتفع فى جماعات الجوار التى ترتفع فيها نسبة الاسكان العام ، فى حين أوضحت الدراسات الأمريكية إهمية البناء العرقى أو السلالى فى اختلاف معدلات الانحراف والجريمة .

كما لاحظ " هاريس وآخرون " ١٩٨٠ أن جماعات الجوار التى ترتفع بها نسبة المساكن متعددة الأسر أو المساكن التى يقيم فيها شخص واحد تسمح بانتشار الجرائم من مختلف الأنماط ، وليس هذا فحسب بل لوحظ أيضا أن المستوى النوعى أو الكيفى للمساكن ذو تأثير هام فى توزيع الجريمة فى الأحياء السكنية ، فقد لاحظ "شو ومكى ولاندر " على سبيل المثال وجود علاقة إيجابية بين انتشار الجرائم فى الحى وبين انتشار المنازل ذات المستويات السكنية الرديئة [١] المتعلقة بحجم وكثافة السكان أو تلك المتعلقة بالجنس أو العمر ونحو ذلك ، الأمر الذى يعنى أهمية هذه المتغيرات فى فهم وتفسير هذه الظاهرة .

ففيما يتعلق بالحجم السكانى للمكان وأثره فى الجريمة فإن من النتائج المقبولة على نطاق واسع تلك التى تنص على وجود علاقة إيجابية بين الحجم السكانى للمكان ومعدلات الجريمة والانحراف فيه ، وتجدر الإشارة هنا إلى أن هناك عدداً من المداخل النظرية التى قدمت تبريراً للإرتباط الإيجابى بين حجم المكان

---

(١) عبد الله الخليفه : المحددات الاجتماعية لتوزيع الجريمة على أحياء مدينة الرياض ، مركز أبحاث مكافحة الجريمة وزارة الداخلية ، المملكة السعودية العربية ، ١٤١٣ ، ص ١٢٥ ــ ١٣١ .

وبين ظاهرة الجريمة في المجتمع ، فعلى سبيل المثال تعزو النظرية الحضرية الكلاسيكية المرتبطة بكل من زميل وبارك وورث "SIMMEL, & PARK & WITH " وجود إلى وجود علاقة بين التفكك الاجتماعي وزيادة حجم السكان ، أما وجهة النظر الديموغرافية فتنظر إلى ذلك الارتباط كانعكاس لتركز أنواع كثيرة من الناس يميلون الى ارتكاب الجريمة في مكان واحد ، في حين يفسر المدخل البنائي هذه العلاقة الإيجابية بين الجريمة على أنها انعكاس للإحتمالات الممكنة للتفاعل ، بينما يرى مدخل الأنشطة الروتينية هذه العلاقة على أنها انعكاس للفرص الكبرى المتاحة في المدن والتابعة من أساليب الحياة العصرية في المدن التي تضع الأفراد في أطر إجتماعية تعرض أشخاصهم أو ممتلكاتهم لخطر الجريمة ، أما نظرية الثقافة الفرعية فترى بأن زيادة حجم سكان المكان قد يكون مبررا في انتشار السلوكيات غير المعتادة عليها بعض السكان ويذكر " تايتل " أن نظرية الثقافة الفرعية تتميز بقدر خاص من الأهمية مقارنة ببقية المداخل النظرية ، لأنها تفسر علاقة حجم المكان بمعدلات الجريمة والإنحراف من خلال زيادة الإغراء والحوافز تجاه السلوك الشاذ بين سكان الأماكن الكبرى ، أما بقية المداخل فإنها تفترض وجود بواعث وحوافز إنحرافية . وتركز بدلا من ذلك على عوامل أخرى في البيئة الحضرية التي تجعل الأمر أكثر احتمالا للتعبير عن تلك الحوافز بالسلوك الانحرافي والإجرامي .

ويوجد في الأدبيات الاجتماعية العديد من الدراسات التي قدمت أدلة عملية على وجود علاقة إيجابية بين الجريمة والحجم السكاني للمكان فيذكر " ديفيدسون DAVIDSON " على سبيل المثال أن معدل الجريمة يزداد بازدياد حجم المدينة ، ففي بريطانيا يزداد معدل حجم الجريمة في لندن بصورة أكبر من المدن الست التي تأتي بعد لندن من حيث الحجم ، في حين يبلغ معدل الجريمة في هذه المدن الست ضعف معدلات الجريمة في المناطق الريفية ، وفي أمريكا أثبتت العديد من

الدراسات وجود تأثير إيجابى لحجم السكان فى معدلات الجريمة عموما ، وفى كل من جرائم العنف والسرقة ، هذا ونظرا لأهمية هذا المتغير فقد تعاملت معه معظم دراسات محددات الجريمة على مستوى المناطق الحضرية الكبرى أما على مستوى جماعات الجوار والأحياء السكنية فإن دراسات الجريمة لم تأخذ هذا العامل فى الحسبان .

ومن المتغيرات الديموغرافية التى أشارت الدراسات إلى أهميتها فى فهم اختلاف الوحدات المكانيه فى معدلات الجريمة ما يتعلق بالكثافة السكانية POPULATION DENSITY والازدحام ، فقد أفاد عدد من الدراسات الميدانية الى حد كبير بوجود علاقة إيجابية بين الكثافة السكانية وبين معدلات الجريمة والانحراف بصورة عامة . اذ لاحظ " شو ومكى ولاندرد وأخرون " أن جماعات الجوار أو الأحياء السكنية التى ترتفع فيها معدلات الانحراف والجريمة بصورة عامة تتميز بكثافة سكانية مرتفعة أيضا والأمر كذلك بالنسبة للإزدحام ، وتجدر الإشارة هنا إلى ما توصل اليه " رونسيك " حول مدى قوة علاقة كل من الإزدحام والكثافة السكانية بالجريمة ، فمن خلال مراجعة ما عمل من دراسات أخذت فى الحسبان بهذين العاملين توصل " رونسيك " إلى أن الكثافة السكانية إما ذات تأثير إيجابى ضئيل أو ليس لها تأثير على الإطلاق ، كما ذكر أن الازدحام المقاس من خلال عدد الأشخاص لكل غرفة سكنية أقوى علاقة بالجريمة ، من الكثافة السكانية، ومع هذا فإن تأثير الازدحام على الجريمة يضعف عند ضبط المتغيرات الاجتماعية والاقتصادية والمتغيرات الثقافية (١) .

*** ثقافة الأحياء المتخلفة :**

أخذ علماء الاجتماع والأيكولوجيا بمدخل السوسيوثقافى وما يرتبط به من مفاهيم ومتغيرات فى دراسة الأحياء المتخلفة . ومن المثير حقاً أن مفهوم الثقافة

---

(١) عبد الله الخليفة : المرجع السابق ، ص ص ١٢٦ ـ ١٢٧ .

صار يستخدم حتى الآن وبشكل واسع فى نفس الاتجاه الذى تناولاه مفاهيم البيولوجيا والأنثولوجيا فى الماضى ، وعلى سبيل المثال ذلك الاستخدام لمفهوم ثقافة الرثة Dregs Culture الذى جاء فى سياق كتاب " قضايا اجتماعية فى التعليم العام " . الذى ألفه " جون بارتكى " ونشره عام ١٩٦٣ . وفى هذا الكتاب يشير المؤلف إلى الأحياء المتخلفة فى شيكاغو ، ويصفها بالمناطق الرثة . أو مناطق الحثال Dregs Areas حيث تسكن الطبقات الدنيا من عمال الصناعة والزراعة ، وهؤلاء يسهمون بأسوأ القيم الثقافية التى يحملونها معهم من مهجرهم إلى المدينة .

إن تعبير ثقافة الرثة هنا تستخدم بأسلوب غير مباشر لتعنى ثقافة الزنوج الأمريكيين ، حيث تسكن الأغلبية الساحقة منهم فى الأحياء المتخلفة فى مستوى متدنى من الفقر (١) .

ويسود تصور الكثير من العلماء الاجتماعيين وصف أحياء الزنوج بالرثة، وهو يبعدهم عن حقيقة العوامل التى أدت بهذه الأحياء إلى المستوى المتدنى بالنسبة للأحياء الأخرى ، كما يخفى جوهر المشكلة . ويذهب" جون بارتكى " إلى القول بأن المستوى الثقافى للزنوج ، يختلف فى طبيعته بين فئاتهم ، شأنهم فى ذلك شأن البيض . ومن ثم لا نستطيع أن نجعل المتغير الأساسى لهذه الثقافة هو سكنى الأحياء المتخلفة ، ومعنى هذا أننا نسقط عوامل أخرى كالتنشئة الاجتماعية والمستوى الاقتصادى وعوامل التفرقة العنصرية فى تحديد المظاهر الثقافية لسكان هذه الأحياء (٢) .

الواضح أن ثقافة الحثالة ارتبطت بهذا المفهوم عند " بارتكى " بالجماعات الإثنية من زنوج الولايات المتحدة الأمريكية ، إلا أن المعنى الشائع بالنسبة لثقافة سكان الأحياء الحضرية المتخلفة هو ثقافة الفقر .

---

(١) Eleanor. Burke Leacock., The Culture of poverty., Simon & Schuster. New York . 1971. p.9.

(٢) Ibid. p. 12 .

ويشير " مارشال كلينارد Marshall Clinard " إلى أن مفهوم ثقافة الفقر يحيطه غموض عندما يستخدم كمفهوم للثقافة الفرعية . ويظهر الغموض بوضوح عندما يصدر بعض الباحثين تعميمات يستخدمون فيها المصطلحين بمعنى واحد على الدراسات التى تجرى على أحياء الزنوج فى الولايات المتحدة الأمريكية . مما يؤدى إلى الخلط بين الزنوج والجماعات الفقيرة . ويظهر هذا الخلط بوضوح فى الدراسات التى تجرى على أحياء اليهود والتى تعيش فيها زنوج غير فقراء . وسكان غير زنوج ولكنهم فقراء ، كما يبدو أيضاً ـ أى الخلط ـ بين مفهوم الثقافة الفرعية الإثنية ، ومفهوم ثقافة الفقر الفرعية ، عند تعميم المصطلحا.فى دراسة الأحياء الحضرية المتخلفة .

ولكن لا يختلط الأمر على الباحثين حينما يدرسون ثقافة الفقر ، فلا بد من تحديد المفاهيم دون لبس أو غموض . فإذا كان المطلوب هو التمييز الوصفى للفقراء ، ففى هذه الحالة يجب أن يحدد الباحث ما هو الشئ الذى يحتاج إلى وصف وإيضاح ؟ . هل هو حياة السكان ؟ أم العمليات الاجتماعية ؟ أم السلوك الشخصى ؟ أو السلوك الذى يخرج عن معايير المجتمع ؟ ويمكن أن يدخل فى الإطار الوصفى الجانب التاريخى لأشكال الفقر .

والواقع أن " أوسكار لويس " قد أدرك هذه الخصائص فى دراسته لثقافة الفقر ، ويظهر ذلك بوضوح من خلال تحليله للنموذج التصورى لمفهوم ثقافة الفقر. فقد ميز الفقر وثقافة الفقر ، ونظر فى ذلك إلى الفقر على اعتبار أنه لايعنى الحالة الاقتصادية ، وإنما الثقافة الفرعية (١) . ومن ثم وضع " أوسكار لويس " تعريفاً لثقافة الفقر بأنه طريقة للحياة يتوارثها كل جيل من الجيل السابق عليه عن طريق عمليات التنشئة الاجتماعية داخل الأسرة (٢) .

---

(١) Marshall, B. Clinard., op., pp. 9-10.

(٢) محمد حسن الغامرى : المرجع السابق ، ص ٩٦ .

الواضح من اتجاهات " أوسكار لويس " أنه ينزع فى تفسيره لثقافة الفقر اتجاهاً يتمشى مع مدرسة التربية الاجتماعية ، وهو ما يؤكده ويذهب معه "مارشال"، فى نفس الاتجاه ، إذ يذهب إلى أن ثقافة الفقر لا ترتبط بحالة التوافق مع الظروف الاجتماعية السائدة فى الأحياء ، الحضرية المتخلفة ، بقدر ما ترتبط بعملية التطبيع الاجتماعى . ويدلل على ذلك بالجماعات الهندية والوطنية التى تعيش فى هذه الأحياء ، وما تقوم به من تنشئة الصغار على الثقافة التى يعتنقونها دون انصهارهم فى ثقافات أخرى .

ومن هنا يرى " رولاند رايت Rolland Write " فى الجزء الذى كتبه عن عقلية الغريب فى العالم الصناعى المتحضر أن بعض الاتجاهات التى تصف جماعات معينة بثقافة الفقر هى اتجاهات مضللة . فالواقع أن بعض الثقافات تنبع من تقاليد راسخة بين الجماعات ، كما يبدو ذلك بين أسر الأمريكيين المكسيكيين ، والهنود الأمريكيين ، والزنوج الأمريكيين ، والأوربيين الريفيين .

ويؤكد " رولاند رايت " إلى أن مثل ثقافات هؤلاء هى نتيجة لعادات وتقاليد متوارثة لها خصائص ثقافية متميزة فى سلوك أصحابها ، ولهذا يتجاهب بعض الباحثين المهتمين بثقافة الفقر الفروق الثقافية بين الجماعات المختلفة التى تعيش فى الأحياء الحضرية المتخلفة .

والواقع أن ثقافة الفقر لا تعنى الأشكال السلبية من سلوك سكان الأحياء الحضرية المتخلفة ، بقدر ما هى ناتج تربوى للتنشئة الاجتماعية (١) .

ويقدم " تشارلز فالنتين Charles Valentine " ثلاثة نماذج لوجهات النظر المختلفة التى تعرضت لمعالجة ثقافة الفقر .

النموذج الأول : ويرى أن الفقراء لهم ثقافة فرعية تميزهم عن غيرهم من الطبقات الاجتماعية الأخرى فى المجتمع . وأنهم غير قادرين على المشاركة فى

---

(١)Marshall, B. Clinard., op., p.14.

ثقافة الطبقة المتوسطة . ولذلك فإن التغيرات التى يقتضى حدوثها للتخلص من ثقافة الفقر فى المجتمعات النامية ـ حيث يشكل الفقراء الأغلبية العظمى للسكان ـ هو تغيير النظام الاجتماعي والاقتصادى . أما بالنسبة للمجتمعات الغربية ، فيمكن التخلص من ثقافة الفقر عن طريق المتغير الثقافى الموجه ، وذلك بوضع سياسة اجتماعية تقوم على ثلاث ركائز ، وهى : الخدمة الاجتماعية ، والتربية ، والعلاج النفسى .

النموذج الثانى : يرى أن الفقراء يتميزون بنائياً كمجتمع فرعى كما تتميز حياتهم عن الطبقات الاجتماعية الأخرى ، وترجع كل المظاهر المرضية فى حياة الفقراء إلى وضعهم البنائى فى النسق الكلى للمجتمع ، وأن الطبقة العليا فى النسق الاجتماعي هى التى أدت إلى وضع الفقراء فى موقف اجتماعى سيئ ، وذلك لأن سلوك أعضاء الطبقة العليا بينحصر فقط فى إشباع رغباتهم ، ويمنعون إعادة توزيع المصادر على الفقراء. ولذلك فإن التغيرات التى يقتضى حدوثها للتخلص من ثقافة الفقر ، ضرورة أن يتغير البناء الكلى للمجتمع تغيراً جذرياً . وأن يعاد توزيع مصادر الثروة والإنجازات ، ويتطلب أن تتواجد الرغبة عند الجماعات الفرعية للمشاركه فى هذه التغيرات .

أما النموذج الثالث : فيرى أن الفقراء لهم أنماط مميزة من الثقافة الفرعية ، ويشتركون فى بعض المعايير مع الطبقة المتوسطة فى بعض جوانب الحياة التى يشترك فيها النسق الكلى للمجتمع ، ولا يتميزون عنهم فى هذه الجوانب . وقد يوجد اختلاف فى بعض هذه الأبعاد من جماعة سلالية إلى أخرى . وتشبه الأنماط المميزة للثقافة الفرعية للفقراء ، الأنماط الأخرى الموجودة فى المجتمعات الفرعية وتشتمل على السمات المرضية كما تشتمل على الأشكال الصحية والإيجابية ، وتتضمن كذلك على العناصر الخلاقة للتكيف نحو الظروف الناتجة عن الحرمان ، وقد يكون الوضع البنائى للفقراء جذوراً تمتد إلى أبعاد تاريخية ، كما قد يكون لها بعض

الأبعاد في المصادر المعاصرة ، وتختلف هذه الأبعاد من جماعة سلالية ، أو جماعة إقليمية ، إلى جماعات أخرى ، وتشتمل على مجموعة من العوامل المتعددة الأسباب مثل التنشئة الاجتماعية . التي تعمل على ترسيخ الأنماط الثقافية للجماعة ، وينشأ عنها ظروفاً سيكولوجية عند الفرد لا تساعده على التخلص من الفقر . وكذلك استمرار وبقاء الوضع السئ للفقراء، نتيجة سلوك الطبقة العليا نحو حرمانهم من إعادة توزيع المصادر واهتمام أعضاء الطبقة العليا بمصالحهم الطبقية (١) .

وباختصار إذا تأملنا ثقافة الفقر من منظور شامل ، نجدها بمثابة نسق للرموز والمعاني ، أو بمعنى آخر مقياس معياري . وفي تصور " دانهل Dunhl " أن هذا النسق يشتمل على ثلاثة خصائص أساسية هي : القابلية للانتقال ، التعلم ، المشاركة. ويربط " دانهل " بين هذه الخصائص وسكان الأحياء الحضرية المتخلفة . فسكان هذه الأحياء لهم ثقافة مكتسبة ، انتقلت إليهم من أجيال سابقة بكل ميكانيزماتها الفكرية والبنائية والدفاعية .

صحيح أن هذا الاكتساب أحد عناصر استمرار هذه الثقافة ، ولكن ذلك لا يعني أنهم يعانون من هذه الثقافة . وفي تعليق لـ " آرثر هيلمان " حول ثقافة الأحياء الحضرية المتخلفة يذهب إلى القول بأن فقراء هذه الأحياء هم أنفسهم سبب الفقر . وأن النماذج الثقافية التي يعتنقونها هي سبب مشكلاتهم . ويسترسل " آرثر " في قوله إلى أن سكان هذه الأحياء يجدون أنفسهم تحت ضغوط ثقافية يتفاعلون تحت تأثيرها ، ومن ثم يصبح سلوك فعلهم في هذه الأحياء مزيجاً مركباً من ثقافة الطبقة الدنيا ، التي وصفها " أوسكار لويس " بثقافة الفقر (٢) .

ويمكن القول أن سكان الأحياء الحضرية المتخلفة أغلبهم من الطبقة الدنيا إلا أن القليل منهم تقريباً يعيشون بين مستوى الكفاف وإشباع الحاجات . ويعد الفقر

---

(١) محمد حسن الغامري : المرجع السابق . ص ٩٧ ، ٩٨ .

(٢) Leonard, J. Dunhl, The Urban condition, people and policy in the metropolis., New York. 1963.p.135.

مرحلة من الحرمان الشديد ، يؤدى إلى اتساع الفجوة بين السكان وممارسة الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية فى المجتمع الأشمل (١) .

والواقع أن ثقافة سكان الأحياء الحضرية المتخلفة ، يتميزون بعدد من الخصائص تتفاوت فى درجاتها ، وتنطبق بصورة نمطية على الأحياء الفقيرة ، ويبدو أن من أهم هذه الخصائص هو التدنى الفيزيقى والاجتماعى لها بالنسبة للأحياء الأخرى ، بالإضافة إلى خاصية أخرى وهى العزلة الاجتماعية وسلبية المشاركة فى المنظمات الاجتماعية والسياسية . وفيما يبدو أن المشكلة ليست فى ثقافة الفقر ، وإنما فى البناء الاجتماعى والاقتصادى والسياسى للمجتمع الذى تعيش فيه .

---

(٢) Andrew Webster., Introduction to the Sociology of Development., Macmillan. LONDON. 4 the . ed. 1988.p.18.

الفصل الخامس

دراستان في ضوء الأيكولوجيا الحضرية

طالما أن علم الاجتماع الحضرى يسعى إلى إقامة بناء نظرى متكامل منطقياً ، وتقديم صياغات تنطوى على قضايا قابلة للتحقيق الامبريقى باستخدام مناهج أكثر ضبطاً وأدوات أقدر على استجلاء أبعاد الواقع ، فإن تحليل الواقع الاجتماعى للمدينة وحصر هذا التحليل فى إطار بعض عناصره لا يقودنا إلا إلى نظرة أحادية الجانب لا تأخذ بعين الاعتبار جميع أبعاد هذا الواقع ومستوياته المختلفة المتكاملة والمتناقضة ضمن حركة الكل .

ومن الطبيعى ألا يتحقق ذلك بدراسات مكتبية تنفصل عن الواقع بصورته الدينامية المتعددة بقدر ما يحققه اقترانه بالواقع الحى الذى يعيش مشكلاته وصراعاته المختلفة . وبالتالى كلما ارتبط العلم بالواقع المجتمعى بحثاً فى مشكلاته كلما أمكنه أن يصل إليها بقدر من الفهم ، بهدف التقنين العلمى للمشاهدات لكى يتحقق المنهج العلمى الشمولى (١) .

وإذا كان الأمر كذلك فإن العلم تزداد أهميته وحجم ما يعول عليه من أهداف ومسئوليات بقدر ما يتناوله من قضايا معبراً عن الحاجات الضرورية اللازمة لتحقيق النمو والتقدم الاجتماعيين .

وفى ضوء تلك المعانى فإننا أمام قضيتين قدمنا لهم الأطر النظرية فى البناء الحضرى وهما : أولاً أحياء العشش ، ثانياً العمالة الجائلة . والآن نستطيع أن نضع الظاهرتين موضع الدراسة الامبريقية التى قمت بها فى مدينتين مصريتين هما بورسعيد والزقازيق * ، وبقدر ما لمسته من علاقة بين أحياء العشش والعمالة الجائلة فى البناء الاجتماعى للمدينتين ، الا أن هناك تغيرات حدثت فى المكان لأحياء العشش فى مدينة بورسعيد (١٩٩٦) بفضل إعادة التخطيط العمرانى ، وبناء

---

(١) أحمد النكلاوى : الإنسان والتحديث ، مرجع سابق ، ص ٦٥ .

* قام المؤلف بدراسة العمالة الجائلة فى مدينة الزقازيق عام ١٩٨٦ ودراسة احياء العشش فى مدينة بورسعيد عام ١٩٨٧ .

مساكن حديثة تستوعب أغلب سكانها هذا ما أفقد هـذه الأحياء رموزهـا فـى تخلـف المكان . وإن كانت هناك بعض الجيوب المتنـاثره فـازالت تشـكل بثـوراً فـى واجهـة المبانى الجديدة .

الدراسة الأولى

أحياء العشش فى مدينة بورسعيد

الواقع أن طبيعة موضوع العشش يتسع لقضايا إجتماعية وأيكولوجية متشعبة فى آن واحد ، ومن هذا المنطلق لا يستطيع المؤلف بجهده الفردى أن يدعى لنفسه أمام مغريات هذه القضايا الإلمام بكل أطراف الموضوع وخيوطه .

ويفترض المؤلف مقدماً ، أن ظروف أحياء العشش فى مدينة بورسعيد تختلف فى خصائصها الاجتماعية والفيزيقية فى ضوء اعتبارات طبيعة ظروف المكان والسكان عن الأحياء الحضرية المتخلفة فى الدول الأخرى . ويمكن أن نضع هذا الافتراض فى شكل أسئلة أربعة ترتبط فيما بينها بموضوع الدراسة الميدانية ، وفى نفس الوقت تحقق الوحدة العضوية بين الاتجاهات النظرية والميدانية .

والأسئلة هى :

١ - ماهو الشكل الفيزيقى الخارجى والداخلى للعشش فى مدينة بورسعيد ؟

٢ - ماهى حقيقة الخصائص الاجتماعية لسكان هذه العشش ؟

٣ - ماهى حقيقة أنشطة هؤلاء السكان فى البناء الاقتصادى للمدينة ؟

٤ - ماهو وعى هؤلاء السكان بالمشاركة السياسية فى حل مشاكلهم ؟

الواقع أن هذه الأسئلة الأربعة إذا ما وجدت إجابة شافية ، ستكون أكثر خصوبة وإنتاجاً للعلاقة بين الأفكار النظرية والوقائع الاجتماعية .

وحينما شرعت الدراسة فى خطواتها المنهجية لتحقيق الإجابة عن أسئلتها استعانت بالمنهج الوصفى ، والوصف فى هذه الدراسة هو جوهر المنهج وركيزة خطواته، والخطوات تسعى نحو تحقيق صورة استكشافية للملامح الفيزيقية للمكان والخصائص الاجتماعية للسكان .

كما ... وضعت فى استراتيجيتها الاستعانة بالملاحظة ، والإخباريين ، والبيانات الإحصائية ، وخريطة المدينة .

فبالنسبة للملاحظة ، تعد فى الواقع مطلباً أساسياً فى الدراسات الوصفية . وتصبح مهمتها رصد ما يدور فى الحياة الطبيعية المعيشية لعينة الدراسة ، والوقوف على نشاطهم اليومى ، إلا أن الواقع بالنسبة للأحياء الحضرية المتخلفة ، يختلف فى وضع الملاحظة المباشرة فى تحقيق أهدافها . وذلك نتيجة ضروب السلوك الانحرافى الذى يشيع من بعض سكان هذه الأحياء ، ونظرة الشك والمطاردة للغرباء . ونتيجة ذلك تصبح الملاحظة قاصرة فى الوصول إلى فهم السلوك الاجتماعى داخل هذه الأحياء (١) .

ويستطيع المؤلف هنا أن يؤكد على أهمية الإخباريين فى إجتياز معوقات الوصف . حينما يهيئ هؤلاء المناخ للمقابلات المفتوحة مع أفراد العينة ، والشواهد الميدانية للمواقع المستهدفة من الدراسة .

والواقع أن دور الأخباريين لم يقف عند هذا الحد ، بل تعداه فى معطياتهم من سرد تاريخى لهذه الأحياء . وتوجيه الدراسة إلى شواهد لم يكن للباحث أن يدركها إلا من حولهم .

وبالإضافة إلى شواهد المؤلف ، وما قدمه الإخباريون من معطيات ، فقد استعانت الدراسة بأداة منهجية أساسية هى استمارة الاستبار التى تضمنت أسئلة حول خصائص العينة من حيث العمر . والموطن الميلادى ، وطبيعة العمل والدخل، وعدد أفراد الأسرة المقيمة فى العشة ، ودوافع اختيار المكان ، والأنشطة الاقتصادية ، والمشاركة السياسية .

ومن الواضح أن تغطية ما أثارته هذه الأداة من تساؤلات اقتضت الاستعانة بالبيانات الإحصائية التى تحدد حجم العشش فى المدينة وتوزيعها على الأحياء المختلفة . والواضح أن أحياء العشش فى المدينة متعددة الأشكال ، متعددة المواقع ،

---

(١) Lanada. F. Jocano ., Experience and perspecuves in Aslum Neibhborhood: An Anthropological View., Philippine Journal of psychology Vo .. 5 N.I.June. 1972. p.p. 226-227.

مما أدى إلى صعوبة اختيار العينة . ومن ثم تم الاستعانة بخريطة المدينة وتقسيمها إلى أجزاء ، وصل عددها إلى ستة عشر جزءاً ، موزعة على أحياء المناخ بخمسة أجزاء ، وحى العرب أربعة أجزاء ، وحى الضواحى والشرق بثلاثة أجزاء لكل واحد منهما ، ثم حى بور فؤاد بجزء واحد .

وفى ضوء هذه الأبعاد ، تم اختيار عينة الدراسة من بين ١٣,٥٠٠ عشة إختياراً عشوائياً ، وكانت وحدة العينة من بين سكان هذه " العشش " عائل الأسرة الذى يقطن فى عشة قائمة بوضع اليد على أرض الدولة . وقد أتيح للدراسة مقابلة ٤٢٣٢ شخصاً ، وللحقيقة فقد استعان الباحث بسبعة من الباحثين المساعدين الذين كان لهم الفضل فى مقابلة معظم أفراد العينة ، واستيفاء استمارات جمع البيانات ، فى الفترة من أول إبريل ١٩٨٧ إلى نهاية مايو من نفس العام .

وبعد أن تمت مراجعة هذه الاستمارات لتصنيف بياناتها وتحليلها ، تبين أن المستوفى منها الأغراض الدراسية ٣٦٩ استمارة .وهى بذلك تمثل ٠,٠٣,٦٪ تقريباً من عينة الدراسة الكلية .

ونستطيع القول إن الدراسة فى خطواتها المنهجية قد استعانت بأكثر من أداة لتحقيق هدفها ، وبالرغم من تنوعها ، فهى فى النهاية قد استطاعت أن تحقق الهدف العام الذى يتمشى مع أسئلة الدراسة .

أولاً : الوصف الأيكولوجى للشواهد الطبيعية

تعد المدينة بشكل عام ، مركب ينطوى بداخله على عدة مجموعات من التجمعات السكانية ، والجماعات المهنية المتمايزة ، ومواقع الأنشطة المختلفة ، والتوزيع ، والتركز ، والتشتت ، ممثلة فى أحياء أو مجاورات أو مناطق فرعية ، هى ما يطلق عليها اسم الوحدات الأيكولوجية (١) .

---

(١) السيد عبد العاطى : المرجع السابق . ص ٤٧٨ .

وفـى الواقـع يستند الوصـف الأيكولوجـى للمدينـة علـى موقعهـا الجغرافــى وحجـم سـكانها وخصـائصهم وأنشطتهم الاجتماعيـة ، والشـكل الفــيزيقى لمواقعهـم السكنية .

* وإذا نظرنا إلى مدينة بورسعيد مجال الدراسة نجدها ترتبط جغرافياً بحدود محافظة الدقهلية ، والإسماعيلية ، والشرقية، ودمياط ، وسيناء الشمالية ، والبوابة الشمالية لقناة السويس ، والبحر الأبيض المتوسط ، وبحيرة المنزلة .

وبهذه الحدود تعد المدينة بسكانها كياناً مستقلا لمجتمـع محلـى لـه مقوماته الأيكولوجية .

* والسـكان فـى حـدود المكـان يبلـغ عدهـم (٣٣٩,٧٩٣) نسـمة . وتحتفـظ بورسـعيد مـن حيـث حجـم سـكانها بـالمركز الحـادى والعشـرين بيـن المحافظـات المصرية، كما يأتى ترتيبها فى المركز الرابع بين عواصم المحافظات (١) .

وبالنسبة لتوزيع أنواع المساكن على المحافظة (*) ، ومقارنتها بالمحافظـات الحضرية الأخرى للكشف عن حجـم ظـاهرة العشـش علـى المستوى العـام ، سـنجد المؤشرات تشير إلى أن حجم الظاهرة فى بورسـعيد تصـل إلـى ١٣,٩٠٠ الـف مـن المساكن الجوازية (غير معـدة للسكن) ، وهـو مـا يزيـد عـن كـل المعدلات بالنسبة لمثيلاتها فى المدن الأخرى ، على نحو ما يشير إليه الجدول رقم (١) :

---

(١) بورسعيد فى ثلاثين عاماً . كتيب أصدرته العلاقات العامة بمحافظة بورسعيد عن الفترة من (١٩٥٦ - ١٩٨٦) .

(*) محافظة بورسعيد تتكون كلها من مدينة واحدة هى بورسعيد .

جدول رقم (١)

يوضح توزيع أنواع المساكن على المحافظات الحضرية(١)

المحافظات الحضرية	شقة	حجرات مستقلة	أماكن سكن جوازية
القاهرة	٨٢,٢	١٥,٨	٠,٩
الاسكندرية	٨٢,٦	١٣,٥	١,٣
بورسعيد	٧٢,٦	٢,٦	١٣,٩
السويس	٨٤,٠	٨,٢	٠,٣
الاجمالى	٨٢,٤	١٤,٤	١,٥

والواضح من الجدول السابق ، أن نسبة المساكن الجوازية بالنسبة لبورسعيد تمثل ١٣,٩ ألفا ، بينما المتوسط لهذه الأماكن على مستوى المحافظات الحضرية لا تزيد عن ١,٥ ألف للمحافظات الحضرية .

وإذا ما تناولنا توزيع السكن الجوازى * على أيكولوجية مدينة بورسعيد ، على اعتبار أن الشكل الغالب هو العشش ، لخرجنا بمؤشرات عن الأحياء المتخلفة، موزعة على النحو الذى تبدو فيه فى الجدول رقم (٢) :

---

(١) الجهاز المركزى للتعبئة العامة والإحصاء . التعداد العام للسكان والإسكان بورسعيد ـ النتائج الأولية ١٩٨٦ ص ٢٥ .

* يعرف الجهاز المركزى للتعبئة العامة والإحصاء أماكن السكن الجوازية بأنها الأماكن غير المعدة للسكن ، ولكنها مشغولة بأسر التعداد . وفى بورسعيد ، تم حصر أحياء العشش بوضع اليد على أنها مساكن جوازية .

جدول رقم (٢)

يوضح توزيع المساكن بأنواعها على أحياء المدينة(١)

أسم الحى	شقة ، فيلا ، بيت ريفى	حجرات مستقلة	أماكن سكن جوازية
الشرق	٨٦,٩	٤,٩	٨,٢
العرب	٨٨,٢	١,٨	١٠,٠
المناخ	٧٥,٧	٢,٧	٢١,٦
بور فؤاد *	٩٢,٦	٣,٠	٤,٤
إدارة شرطة الميناء	-	-	-
الضواحى	٨٧,٩	٩	١١,٢
الإجمالى	٣٨,٥	٢,٦	١٣,٩

يبدو من مؤشرات أماكن السكن الجوازية ، والتى تمثل فى واقعها أحياء العشش ، أن كثافة هذه الأماكن تأتى فى الترتيب التالى : أولا : المناخ . ثانياً : الضواحى . ثالثاً : العرب . رابعاً : الشرق . خامساً : بورفؤاد .

وإذا أردنا أن نضع هذه الأحياء فى مكانتها الاجتماعية فلا بد أن نلقى نظرة تاريخية على أهم المتغيرات التى شهدتها فى البناء الاجتماعى للمدينة . ويمكن لنا أن نتحقق من ذلك فى ضوء السرد التاريخى للأخباريين الذين تجاوزا السبعين عاماً من عمرهم .

---

(١) نفس المرجع السابق ص ٢٦ .

* يلاحظ أن ادارة شرطة الميناء عبارة عن وحدة أمنية تخرج عن مفهوم ونطاق الأحياء .

فالمدينة كانت مقسمة إلى أربعة أقسام فقط ، أولها : حى بورفؤاد ، وكان يسكنه كبار موظفى شركة قناة السويس ومعظمهم من الأجانب . وثانيهما : الحى الأفرنجى ، وكان يسكنه الصفوة الاقتصادية من الوطنيين والأجانب . وثالثا : حى العرب ، وكان يسكنه الطبقة الوسطى من الوطنين وأغلبهم من التجار والحرفيين والموظفين . ثم رابعاً : حى المناخ ، وكان يعرف بحى عشش الصفيح ، ويسكنه فقراء المدينة الذين يعملون فى رعى الأغنام والمواشى ، وجمع القمامة ، والصيد . وفى عام ١٩٥٦ دمرته الحرب عن آخره ، وبعدها عاد ليمتد إتساعه إلى حى العرب . إلا أن هذا الحى تأثر بآثار حرب ١٩٦٧ وتهدمت كثير من بيوته القديمة مع تدمير العشش . مما أدى بالأهالى بعد الحرب إلى الاستيلاء على الأراضى العامة القريبة من هذا الحى وإقامة مساكن مؤقتة من الأخشاب والصفيح لإيوائهم .

وبذلك أصبح حى المناخ ، وحى العرب ، بؤرتين أساسيتين لفطريات هذه العشش التى انتشرت فى المدينة .

الشواهد الطبيعية للدراسة :

تشير الشواهد العابرة لأحياء العشش فى مدينة .بورسعيد أنها مصنعة من خامات الطرود الخشب وبعض مخلفات الصفيح ، تغطى أسقفها رقائق من قطع المشمع لحمايتها من الأمطار فى أشهر ديسمبر ويناير وفبراير من العام . وبفعل هذه الأمطار تتأثر العشش ومحتوياها بالتلف فى كثير من الأحيان كما تمتلئ أزقتها بالوحل .

ويمكن للمشاهد تصنيف أنماط هذه العشش على نموذجين :

أولهما : العشش القائمة بوضع اليد على أرض الدولة .

ثانيهما : العشش القائمة على سطح المساكن الحكومية .

فبالنسبة للنموذج الأول : نجده يتكون فـى شـكل حلقـات دائريـة حـول منخفضات أرضية تصب فيها مياه الصرف والمخلفات البشرية ، وأيضاً على شـكل بلوكات طولية ، وفـى حـدود هـذه الأشـكال يفصـل بينهـا أزقـة ضيقـة بعـرض مـتر ونصف تقريباً . تنساب فى وسطها قنوات ميـاه الصـرف وطفـح المخلفـات البشـرية من خزاناتها الأرضيـة التـى تصـب فـي المنخفضـات ، وتبـدو الحيوانـات والطيـور المنزلية وهى تشرب منها . كما يبدو الأطفال وهم يلعبون حولها بشكل طبيعى .

والواقع أن الشواهد المحدودة فى أحياء العشش بمدينـة بورسـعيد ، تقـترب إلى حد كبير مع الصورة التى قدمها " أوسكار لويس " فى وصف الأحياء الحضرية المتخلفة بالمكسيك . بل يكاد يكون التشابه بينهما إلى حد التطابق مـن ناحيـة الشـكل الفيزيقى (١) وبنفس الصورة التى قدمها " ابرامز " عن الشكل الفيزيقى " فـى الأحيـاء الحضرية المتخلفة فى بورتريكو وسنغافورة وهونج كونج(٢) .

أما النموذج الثانى : وهو القـائم علـى أسـطح المنـازل الحكوميـة لمحـدودى الدخل ، فهو يتم على أسـس واتفـق بيـن المسـتأجر لمسـاحة محـدودة مـن السـطح ، ومستأجر العين التى يتبعها هذا السطح . وفى معظم الأحيـان يكـون شـاغلو السـطح من الأبناء . والملاحظ أن المحافظة قد زودت هذه الأحياء بعدد محـدود مـن دورات المياه . وحمامات وصنـابير للميـد . وهـذه الأمـاكن كثيراً مـا تثـير المشـكلات بيـن النساء فى استخدامات المياه فى غـيل الملابس .

ومن الشواهد المألوفة بيـن أزقـة العشـش ، تلـك الملابـس المنشـورة والتـى تعكس الإنتاج المستورد . ونظافة مظهرها ، أما عما تخفيه من أمراض على أجسـاد أصحابها فهو موضع سؤال الدراسـة .

---

(١) Marshall. B. Clinard., op., cit., p. 8.

(٢) Charles Abams., op. cit., p. 21.

لقد جاءت الإجابة من خلال المقابلات المفتوحة مع أطباء الوحدات الطبية وخاصة " الأبوطى " لتشير إلى أن الظواهر المرضية الأكثر انتشاراً بين السكان هى الأمراض الجلدية ، والتناسلية والتنفسية ، والأمراض المعدية والجفاف عند الأطفال ، كما تبدو عدم النظافة الداخلية هى المظهر الشائع بين الرجال والنساء على حد سواء : وتكشف المؤشرات العامة بالنسبة الوفيات الأطفال أنها وصلت فى معدلاتها حتى نهاية عام ١٩٨٧ حوالى ٣٩,٦٪ .

وفى حدود الشواهد الطبيعية للمكان ، يحتل باعة الأرصفة مداخل هذه الأحياء ، ومعظمهم من باعة الخضروات والأغذية المكشوفة . والملاحظ أن البعض يستخدم أجزاء من العشش فى بيع المواد التموينية المستوردة . كما يستخدم البعض العشه بأكملها لنشاطه الحرفى فى تصليح السيارات ، ودهان الدوكو والصناعات الصغيرة ، وتجليد الكتب ، والحلاقة ، والسباكة ، وصيانة الدراجات بأشكالها ، وخاصة أنها تعد الشكل الشائع فى عملية الانتقال الداخلى بين أحياء المدينة .

وفى نفس الوقت يبدو من شواهد الدراسة ، تعدد المساجد بين العشش بشكل ملحوظ يؤمها الكثرة من المصلين وتزدحم فى صلاوات المغرب والعشاء .. والشئ الذى يبدو متناقضاً فى شواهد الدراسة " الغرز " لتعاطى المخدرات.

لقد أمكن عن طريق الأخباريين حصر سبع عشرة غرزة بين العشش فى ثلاثة أزقة . وكان يبدو فيها الشباب وهم يتبادلون شرب " الجوزة " التى يفوح منها رائحة المخدر ، كما كان يبدو بعض الرجال وهم يجلسون أمام أبواب عششهم وهو شبه مخدرين تماماً .

وإذا انتقلنا إلى الشكل الفيزيقى الداخلى لعينة العشش التى تخضع للدراسة نجدها تتحدد ما بين ٨ × ٦ أمتار ، وبعضها لا يزيد عن ٣ × ٢ متر ، ويبدو الارتفاع التقريبى فى حدود ٣ أمتار ، وبعض العشش بها منفذان ، والبعض الآخر

لها منفذ واحد . والبعض ليس له منفذ غير الباب فقط . والواقع أن شواهد الدراسة كشفت عن ثلاثة نماذج من العشش تبدو من مواقعها .

النموذج الأول : ويقع على الشوارع الرئيسية ، وهو أفضل حالاً فى شكله الفيزيقى ومحتواها . أما بالنسبة للعشش فهى مقسمة إلى ثلاثة أقسام : أحدها : للنوم، وثانيها : للأستقبال ، وثالثها : للمنافع العامة . وتكسو الحوائط أوراق الزينة ، وتغطى الأرضيات قطع الموكيت . ويبدو على الأثاث النظافة . كما تحتوى هذه العشش على التليفزيون الملون والثلاجة ، وبجانبها " زير " لتخزين المياه أو خزان مائى على سطح العشة ، بالإضافة إلى البوتاجاز . وبالنسبة لدورة المياه فهى محدودة المساحة بما لا يزيد عن المتر فى نصف متر . وتصب المخلفات البشرية فى خزانات أرضية مبطنة من الأسمنت ، أو براميل من الصاج .

والنموذج الثانى : مقسم إلى قسمين : أولهما : للنوم ، والثانى : للمنافع العامة . وقد يخلو أحياناً من الثلاجة . ولكن يحتوى على " زير المياه " . ويبدو الأثاث أكثر تواضعاً عن النموذج الأول . كما يبدو بعضه خارج العشة نتيجة ضيق المساحة . وبالنسبة لدور المياه فهى لا تخرج عن الشكل السابق .

أما النموذج الثالث : فهو أسوأ حالاً من النموذج الثانى ، فمعظمه يقع فى المناطق الخلفية لهذه الأحياء ، ويطل على ركام القاذورات والمستنقعات المائية لمخلفات الصرف . كما تعيش وتربى المواشى حولها .

والمشاهد أن معظم هذه العشش تمثل وحدة واحدة للنوم والحياة المعيشية معاً ، وتبدو الأثاثات البسيطة بجوار أماكن النوم التى تبدو عليها مظاهر القذارة . وفى نفس المكان يبدو " زير المياه " وموقد الجاز وبعض أدوات الطهو البسيطة .

والملاحظ أن معظم هذه العشش تخلو من دورات المياه . ويعتمد السكان فى " عملية الإخراج " على الأماكن التى أعدتها لهم المحافظة . أو يقضونها فى الخلاء بين ركام وأكوام القاذورات التى تحيط .

ثانياً : الخصائص الاجتماعية لعينة السكان

الواقع أن شواهد بيانات الدراسة ، استطاعت أن تكشف عن عدد من الموضوعات الهامة بالنسبة لسكان أحياء العشش فى المدينة ترتبط بحركة السكان ، وتأثير المكان على العلاقات الإجتماعية .

*** حركة السكان :**

تشير البيانات التى حصلت عليها الدراسة من أفراد العينة إلى ميكانيزمات الحركة السكانية فى المدينة ، وعلاقتها بأحياء العشش . وهو ما يبدو من عوامل الطرد والجذب .

وتكشف خصائص الميلاد بالمكان أن ٤٤,٦٪ من أفراد العينة من مواليد بورسعيد ، وباقى العينة مقسمة على محافظات الصعيد الطاردة (قنا ، وسوهاج) بنسبة ٣٣٪ ، والمحافظات المجاورة (الدقهلية ، ودمياط ، والإسماعيلية) بنسبة ٢٢,٤٪ .

والواقع أن عوامل الطرد بالنسبة لسكان المدينة ، ارتبط بالعدوان الثلاثى عام ١٩٥٦م ، وحربى ١٩٦٧م ، ١٩٧٣م . وقد أدى ذلك إلى تهجير معظم السكان إلى أماكن استقبال من المحافظات المجاورة . ولقد حدث عن طريق عمليات التهجير تداخل وامتزاج فى العلاقات مع السكان المستقبلين ، وهذه الحقيقه تنعكس فى إجابات أفراد العينة من مواليد المحافظات المجاورة ، إذ تكشف عن علاقة المصاهرة والمشاركة فى الأنشطة الإقتصادية مع المهجرين ، مما شجعهم على الانتقال إلى المدينة والاستقرار فى مجتمعها ، إلا أن الدمار الذى لحق بمساكنهم عام ١٩٧٣ ، وندرة الإسكان ، دفعهم مضطرين إلى سكن أحياء العشش .

وبالنسبة لعوامل الجذب فى الانتقال إلى المدينة ، وسكنى أحياء العشش نجد شواهد الدراسة تشير إلى نموذجين .

أولهما : العتالون والحمالون الوافدون مع شركات المقاولات العاملة فى الإنشاء والتعمير فى المدينة بعد حرب ١٩٧٣ ، وبعد أن انتهت مهمتهم اتجهوا إلى النشاط الاقتصادى الهامشى . واستقروا فى أحياء العشش .

ثانيهما : العاطلون من فائض قوى العمل الزراعى ، الذين وفدوا بعد الإنفتاح الإقتصادى للمدينة عام ١٩٧٧ بتشجيع أقاربهم وبلدياتهم فى ممارسة بيع السلع المستوردة وتهريبها من المنافذ الجمركية واتخذوا من سكن العشش محطات لنشاطهم، وسكنى دائمة .

* اختيار المكان :

يظهر التحديد التفاعلى بين السكان والمكان فى ضوء التعرف على ملامح اختياراته ، والعلاقات التى تسود سكانه . فالدراسة حينما تناولت سؤالاً عن الأشخاص الذين رشحوا لأفراد العينة أماكن سكناهم . تبين من إجاباتهم أن نسبة الأقارب جاءت بنسبة ٣٩,٣ ٪ والبلديات ٤٧٪ والمعارف بنسبة ١٠,٧٪ ، والذين اختاروا المكان بفرديتهم جاءت نسبتهم ٣٪ .

ويبدو أن هذه الإجابة تأتى متسقة مع ما يذهب إليه علماء الإيكولوجيا الحضرية ، بشأن اتساع الدور الذى تلعبه النظم القرابية ، والعلاقات الإجتماعية بين المهاجرين ، يؤدى إلى نمو الأحياء الحضرية المتخلفة (١) ، والذى يبدو أن مجتمع العشش تسوده أنماط من العلاقات الأولية التى تسمح بالتآلف ، خاصة بين المهاجرين ، كما تسمح علاقات المصاهرة والقرابة والجوار بشكل عام إلى أنماط من العلاقات ، تتباين حسب طبيعة المشاركة فى مناشط الحياة اليومية .

وتبدو درجة القرابة بين عينة سكان العشش بنسبة ٥٨,٩٪ ، وهؤلاء تربطهم علاقات الدم والمصاهرة ، ويبدو من بين العينة من يعيشون بمفردهم دون روابط أسرية ، ومعظم هؤلاء من الوافدين من محافظات الصعيد .

---

(١) محمد حسن الغامرى : المرجع السابق ص ١٩٨ .

وتبدو إقامتهم متجاورة ، وهم بهذا يشكلون وحدة قرابية ووحدة إقليمية معاً. ويمكن النظر إلى مجتمع العشش ، على أنه مناطق جوار تشتمل على جماعات محلية ، يسودها أنماط الجماعات المتجاوبة ، وتؤثر في علاقات الجوار من حيث أوجه التعاون والمشاركة في مناشط الحياة الاجتماعية والاقتصادية .

وقد تظهر علاقات الجوار بين الوحدات القرابية على أنها دقيقة وقوية ، ولكنها تتصف دائماً بالقلق ، وتخفى وراءها مشاعر سلبية ، وتوترات نتيجة مشكلات الأطفال ، وما يترتب عليها من نزاع بين النساء ، كما يبدو أيضاً من مشكلات المراهقين الذين يتطفلون على الحياة الخاصة للزوجين . أو صراعات هؤلاء المراهقين حول العلاقات العاطفية والجنسية مع المراهقات . وتبدو أيضاً بعض مظاهر الشكوك بين السكان في عمليات السرقة . كما تشير محاضر الشرطة إلى أشكال الاعتداءات البدنية التي تخفى أنواع هذه التوترات ومشاكلها .

ونقطة أخرى تكشف عنها الدراسة في ضوء العلاقة بالمكان ، وهي ما تبدو من علاقة القرابة والمصاهرة في شكل استقلال الأبناء المتزوجين عن أسرهم ، ويعيشون حياتهم المستقلة في إحدى العشش . وهم في ذلك يحتفظون بعلاقات وثيقة مع أسرهم لا تخرج عن الشكل الممتد في البناء الأسرى . حيث يظل الأبناء متصلين في شئون حياتهم المعيشية والمنزلية رغم الانفصال الفيزيقي .

* معدل التزاحم :

تشير بيانات أفراد العينة إلى أن متوسط عدد أفراد الأسرة المقيمين بالعشة الواحدة تصل إلى متوسط (٤,٨) ، وبمقارنة الذين يشغلون حجرة واحدة على كافة مستويات الإسكان في مدينة بورسعيد ـ بما في ذلك العشش ـ نجدها (٢,١) . ويصل الفارق هنا بزيادة (٢,٧) . والواقع أن حجم هذه الزيادة يعد مؤشراً لخطورة هذه الظاهرة بالقياس للأحياء الحضرية المتخلفة في دول أخرى .

والشئ الملفت للنظر حقاً لشواهد الدراسة ، التكدس السكانى فى العشة الواحدة ، فقد وصل فى بعضها ما بين ستة وثمانية أشخاص . وتبدو الحواجز المصطنعة من القماش للفصل بين مكان نوم الزوجين وأولادهما ، وفى بعض العشش كانت المساحة المحدودة لا تسمح لينام الأطفال فى مكان واحد . فكان يمتد نومهم إلى أسفل الأسرّة .

وفى تصور " المؤلف " أن هناك ملامح قريبة بين شواهد الدراسة فى حدود العينة ووصف " تشارلز أبرامز " للشكل الفيزيقى للأحياء الحضرية المتخلفة فى هونج كونج ، ودرجة التزاحم فى المكان السكنى الواحد وهو ما يبدو من قوله : "لقد أدى تدفق الهجرة إلى مدن الشرق الأقصى إلى نمو الأحياء الحضرية المتخلفة وتدهور شكلها الفيزيقى . وتكدس سكانها فى المكان الواحد ما بين خمسة وستة أشخاص . دون أن يجدوا فيها أى خدمات من المرافق " (١) .

والواقع أن التكدس السكانى لأفراد العينة . أجده يشكل احتقاناً سكنياً يؤثر على طبيعة العلاقات الاجتماعية داخل سكنى العشش ، وعلى وجه الخصوص طريقة نوم الأبناء والخلوة الطبيعية بين الزوجين .

وللحقيقة ، فإن ما أسفرت عنه شواهد بيانات العينة ، تتسق تماماً مع النتائج التى توصل إليها " الغامرى " فى دراسته لمجتمع الكرانتينه ، فى الإسكندرية من ناحية الخصائص الفيزيقية للسكن ، والعلاقات الاجتماعية التى تبدو من مواقف بين الآباء والأبناء ، والعلاقة الزواجية الفيزيقية التى تبعد عن المشاعر والعواطف .

ثالثاً : النشاط الاقتصادى

لاشك أن هذه الدراسة ، قد أتيح لها قدر من البيانات العامة حول النشاط الاقتصادى للسكان ، بجانب القدر المحدود بحدود أفراد العينة .

---

(١) Charles Abrams., op. Cit., p. 21 .

والواقع أن البيانات العامة تشير إلى أن نسبة القوى العاملة فى اقتصاد المدينة حتى عام ١٩٨٠ كانت نسبتها ٣١٪ ، أما النسبة الباقية ، فهى موزعة على السكان دون الإنتاج لفئات أقل من ١٢ سنة ، وفئات العمر أكثر من ٦٥ ونسبتهم ٥٤,٧٪ من إجمالى السكان ، بالإضافة إلى هؤلاء فلدينا نسبة ١٤,٣٪ من نفس الإجمالى ، غير مرتبط بأى منشأة معينة مهما صغر حجمها (١) ، وهؤلاء فى الواقع يشكلون فئات المتعطلين فى المدينة . وتكشف عينة الدراسة أن هؤلاء من فئات العمر الشابة من (٣٠ ــ ٤٠ عاماً) . ويعتمدون فى نشاطهم الاقتصادى على العمل اليومى المشروع وغير المشروع . وبالنسبة لتوزيع قوى العمل على أفراد العينة ككل ، نجدها موزعة بين ثلاث قطاعات :

القطاع الأول ، ويشمله موظفى الحكومة والقطاع العام ، ونسبتهم ٢٢,٧ ومعظم هؤلاء كانوا يشغلون وظائفهم فى المدينة فى الفترة التى سبقت عام ١٩٦٧.

وقد أدى دمار مساكنهم إلى قبول السكنى فى هذه الأحياء عاقدين الأمل على ما سوف تعده الحكومة لهم من إسكان . وتشير نتائج إجابات هؤلاء أن متوسط أجورهم ما بين ٦٠ جنيهاً و١٥٠ جنيهاً من الرواتب الرسمية . وفى تقديرهم أن الدخل الذى يكفى لاحتياجاتهم الشهرية ما بين ٢٠٠ جنيه و٣٠٠ جنيه . ولهذا يمارسون أنشطة متنوعة فى عمليات بيع السلع المستوردة ومخازنها لتغطية نفقاتهم.

وبالنسبة **للقطاع الثانى** ، فيشمله الحرفيون فى الأعمال الحرة : ميكانيكى، سائق ، بناء ، نجار ، ترزى ، حلاق ، وتصل نسبتهم من أفراد العينة ١٩,٥٪ ويقدر دخل هؤلاء ما بين ٢٥٠ جنيه إلى ٣٠٠ جنيه شهرياً .

---

(١) الجهاز المركزى للتعبئة العامة والإحصاء ، التعداد العام للسكان فى محافظة بورسعيد ، النتائج التفصيلية عام ١٩٨٠ .

أما القطاع الثالث ، فيشمل عمال الصيد ، ويمثلون نسبة ٧,٤٪ من أفراد العينة ، وتتراوح دخولهم ما بين ١٠٠ جنيه إلى ١٥٠ جنيه شهرياً وهؤلاء أسوأ حالاً فى سكناهم وحياتهم الاقتصادية .

أما القطاع الرابع والأخير ، فهؤلاء يمثلون العمالة الرثة ، ونسبتهم ٢٣,٩٪ وهؤلاء يعملون فى الأسواق بائعين متجولين أو بائعين على الأرصفة . ومن هذه العمالة أيضاً سائقوا الحيوانات والمركبات ، وجامعى القمامة ، ورعاة المواشى ، ومهربى البضائع المستوردة من المنافذ الجمركية ، وهؤلاء يطلق عليهم مصطلح " الشكمانات " وتبدو دخولهم متنوعة ما بين ١٥٠ جنيهاً إلى ٣٥٠ جنيهاً شهرياً إن لم تزد .

والسؤال هنا : هل ما أسفرت عنه بيانات أفراد العينة من مؤشرات فى دخولهم ، يحتى أنهم بذلك من فقراء المدنية ؟ وهل إذا قارنا دخول هؤلاء برواتب موظفى الدولة الذين يعيشون فى مدينة بورسعيد ، هل ستكون المقارنة منصفة ؟ وهذا موضوع يحتاج إلى دراسة أخرى (*) .

والسؤال الذى يطرح نفسه فى هذه الدراسة : هل سكان العشش الذين يقتنون الأجهزة الكهربائية ، والملابس المصنعة فى الخارج ويستهلكون المود الغذائية المستوردة ، يمكن أن نضعهم على خط واحد مع فقراء الأحياء الحضرية المتخلفة فى مصر ؟

الواقع كما يبدو فى كل أنحاء دول العالم الثالث ، أن التغير الاجتماعى للمستوى المعيشى يرتبط بطبيعة الحال بالنمط الاقتصادى . والشئ المسلم به أن رفاهية المكان الذى لايعتمد على أنماط الاقتصاد الإنتاجى يستنزف أصوله فى الاستهلاك من أجل الترفه الوقتى .

(*) يمكن النظر إلى هذا الموضوع فى الدراسة الثانية للمؤلف العمالة الجائلة فى مدينة الزقازيق .

ومن ناحية أخرى ، فإن أى مدينة أو منطقة تتمتع بالترفة أو الثراء ، لا يحول دون تباين فى بنائها الاقتصادى الداخلى وتأثيره على المجتمعات الأخرى ومن ثم تصبح المدينة منطقة جذب تموج بالمهاجرين والعاطلين بحثاً عن ظروف معيشية أفضل وفى إطار ظروف المكان لموقع المدينة وحدودها ، وحجم سكانها ، تبدو أشكال الأحياء الحضرية المتخلفة بأنماطها المختلفة (١) .

رابعاً : الوعى بالمشاركة السياسية

يبدو من الملامح العامة لتعدد الأحزاب ، هو حرية الاختيار والمشاركة فى السلوك السياسى . وفى نفس الوقت تتيح العضوية فى الأحزاب طرح القضايا والمشكلات المجتمعية لمناقشتها ووضع التصورات والمقترحات لصناع القرار فى معالجتها . ثم المتابعة .

والواقع أن أسئلة الدراسة حاولت أن تصوغ إجابتها فى هذه المعانى ، استناداً إلى المستوى التعليمى لأفراد العينة ، وعلى أساس أن قدرات ـ ما ـ من التعليم ىمكن أن تبصر بأهمية المشاركة السياسية سواء بالتصويب أو العضوية . وتكشف بيانات أفراد العينة أن نسبة الأميين منهم يمثلون ٤٦٪ ، والذين يقرأون ويكتبون ٢٨٪ ، والحاصلين على مؤهلات متوسطة ٢٣٪ ، والحاصلين على مؤهلات جامعية نسبتهم ٠,٠٣٪ .

وحول سؤال العينة عن التصويت فى انتخابات عضوية مجلس الشعب تبين أن نسبة مشاركة الحاصلين على مؤهلات جامعية ١٠٠٪ ، ومن الحاصلين على مؤهلات متوسطة ٨٧٪ ، ومن بين الذين يقرأون ويكتبون ٤٢٪ ، ومن بين الأميين ٥١٪ .

---

(١) Alan Gilbert & Josef Gugler., op. cit., part. 2 & part 3 .

وحينما تناولت الدراسة سؤالاً حول الأسس التي يتم عليها اختيار المرشحين لمجلس الشعب ، جاءت إجابات العينة لتعبر عن اتجاهين ، أولهما : الاختيار على أساس العصبية ، والإقليمية ، ومعظم هؤلاء من المهاجرين ، ولهم بطاقات انتخابية فى المدينة . وتتفق نفس الإجابة مع عينة الذين يقرأون ويكتبون. والواضح من بيانات هذه العينة أن معظمهم من العمالة الهامشية التى تعمل مع كبار المقاولين والتجار الذين ينتمون أصلاً بالمولد إلى محافظات أخرى . أما الاتجاه الثانى فيختلف فيه الموقف بالنسبة لحملة المؤهلات المتوسطة والجامعية ، فهؤلاء يقصرون مشاركتهم فى اختيار صلاحية المرشحين لمجلس الشعب على اساس قدرتهم فى حل المشاكل العامة، بصرف النظر عن العصبية والإقليمية . والواضح من بيانات أفراد هذه العينة أن معظمها من العاملين فى الحكومة والقطاع العام . وحول سؤال أخر عن المشاركة بالعضوية منهم فى الأحزاب السياسية ، كشفت بيانات العينة على أن الذين يشاركون نسبتهم فقط ٢٠٪ أغلبهم من الذين يقرأون ويكتبون ، والحاصلين على مؤهلات متوسطة ، وواحد فقط من الحاصلين على مؤهل جامعى .

وبتوزيع عضوية هؤلاء على الأحزاب ، تبين أنها فى الحزب الوطنى تمثل ١٠,٣٪ ، وفى حزب الأحرار ٣,٢٪ ، وفى حزب الوفد ٣٪ ، وفى حزب العمل ٢,٧٪ ، وفى حزب التجمع ٠,٠٨٪ .

والواضح والمبين من إجابات هؤلاء ، أن أدوارهم فى عضوية هذه الأحزاب لا تخرج عن كونها سماع للخطب ، والمشاركة فى الاستقبالات والمهرجانات ، دون أن يكون لهم أى شكل من أشكال المشاركة فى صنع قرار .

وفى نفس الوقت استطاعت الدراسة من خلال المقابلات المفتوحة أن تصل إلى حقيقة العضوية فى هذه الأحزاب ، والواقع كان أبرزها العضوية فى الحزب

الوطنى ، وأشار بعض أفراد العينة إلى أنها تقربهم ـ أى العضوية ـ من صناع القرار فى حل مشاكلهم الشخصية ، على اعتبار أنه حزب الحكومة .

وفى سؤال أخير حول ما أعلنه أعضاء مجلس الشعب من برامج فى حل مشكلات سكان العشش أثناء حملاتهم الانتخابية وما أنجزوه ، الواقع أن إجابة العينة جاءت معبرة عن سلبية بنسبة ١٠٠٪ . وتشير إجاباتهم إلى مضامين تحمل الشك والريبة فيما يسمعونة من وعود وتصريحات ، وما يلمسونه من إنجازات .

والواضح أن قضية سكان العشش فى مدينة بورسعيد تعد أحد أشكال القصور بين التكامل الاجتماعى مع النسق السياسى . كما أنها ستظل جزئية إن لم يكن لسكان هذه الأحياء فعالية فى المشاركة السياسية والتأثير فى صنع القرار.

حصاد الدراسة :

الحقيقة أن الدراسة حين سعت نحو ، تحقيق أهدافها ، وقفت عند حدود الأسئلة التى اقترحتها استراتيجيتها . الواقع أن تخطى حدود الأسئلة ، قد يأخذنا إلى قضايا متعددة ، تخرج عن طبيعة الأهداف ، ويصعب حصرها فى حدود الإمكانية المتواضعة لجهود الباحث الفرد .

والواضح أن السؤال الأول تحققت مقاصده فى وصف الشكل الفيزيقى للمكان ، ولم يكن بمنأى عن المؤثرات التاريخية التى أسهمت فىبناء ونمو أحياء العشش فى مدينة بورسعيد .والمشاهد والمتصور أن الشكل الفيزيقى لهذه الأحياء ، لم يخرج عن الأنماط الشائعة . فى بعض مدن إفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية بتأثيراته الاجتماعية والصحية والسلوكية .

وحينما تناول السؤال الثانى الخصائص الاجتماعية لأفراد العينة ، كشفت إجاباتهم عن المكان الأصلى بالميلاد ، ومستواهم التعليمى ، ونشاطهم الاقتصادى ودخولهم منه ، وعدد أفراد الأسرة المقيمين معهم فى العشة ، صحيح أن هذه البيانات استندت إليها الأسئلة الأخرى فى التفسير ، ولكن ما يهمنا هنا صورة

الاحتقان البشرى داخل العشة ، وما تكشف عنه من مشكلات قيمية ترتبط بأدق الخصوصيات فى علاقة الزوجين .

وفى نفس الوقت ، كان لمعطيات بيانات العينة أهمية فى تحديد عوامل أختيار المكان والاستيلاء عليه بوضع اليد ، مما أسفر عنه زيادة مساحة ظاهرة العشش وتضخم عدد سكانها .

وبالنسبة للسؤال الثالث الذى يتعلق بالنشاط الاقتصادى لأفراد العينة ، كان الواضح من إجابات أفراد العينة أن نصفهم تقريباً يعملون فى مجالات هامشية ، وأنشطة رثة . وهذا يعكس فى الحقيقة أشكال البطالة السافرة والمقنعة التى تنتشر بين قوى الإنتاج فى المدينة . والملاحظ أن ما توصلت إليه الدراسة فى هذا الشأن ، يتفق تماماً مع طبيعة المهن الهامشية فى منطقة الكرانتينة بالإسكندرية ودراسة "كالدارولا " فى مجتمع حضرى متخلف فى اليابان ، ودراسة " زخارى " فى المناطق الحضرية المتخلفة فى مدينة دلهى (١) .

نأتى بعد ذلك للسؤال الرابع والأخير ، الذى يهدف إلى إدراك وعى أفراد العينة بالمشاركة السياسية من أجل إيجاد حلول لمشكلاتهم ، والواقع أن الدراسة حاولت أن تستند إلى محك التعليم فى إبراز هذا الوعى ، ويبدو أن إجابات أفراد العينة جاءت محددة من خلال أربع فئات . أولها ، ينظر إلى التصويت فى إطار واجب العلاقات القرابية والإقليمية .

وثانيها ، ينظر إلى التصويت فى ضوء المصلحة العامة .

أما الفئة الثالثة ، فتنظر إلى المشاكة السياسية فى حدود مصالحها الشخصية.

وبالنسبة للفئة الرابعة ، فتنظر إلى المشاركة السياسية بنوع من اللامبالاة وعدم الثقة فى أن يكون لهم أى دور فى هذه المشاركة .

---

(١) محمد حسن الغامرى : المرجع السابق ص ٢٤٨.

والواضح من نتائج الأسئلة ، أنها جاءت مخالفة للافتراض الأساسي للدراسة القائل بأن أحياء العشش في مدينة بورسعيد ، تختلف في خصائصها الاجتماعية والفيزيقية عن الأحياء الحضرية المتخلفة في الدول الأخرى ، تأسيساً على أختلاف ظروف المكان والسكان ، إلا أن ما أسفرت عنه نتيجة الدراسة ، جاءت لتؤكد أن أحياء العشش في مدينة بورسعيد ، لا تخرج عن نطاق أنماط الأحياء الحضرية المتخلفة في دول العالم الثالث .

وقبل أن أختتم هذه الدراسة ، أود أن أشير إلى أن أحياء العشش في مدينة بورسعيد تمخض عن عاملين أساسيين :

أولهما : ظروف حرب ١٩٦٧م ، ١٩٧٣م ، وما أسفر عنهما من دمار المنشآت والمرافق والمساكن . وقد أدى ذلك بالسكان المتضررين الذين تهدمت أو تصدعت مساكنهم إلى البحث عن مأوى إقامي . ولم يكن أمامهم إلا بناء أماكن إيوائية مؤقتة من مخلفات الطرود الخشبية ، على أمل أن توفر لهم الدولة السكن الملائم . ولقد شجع على نمو هذه العشش تغاضي الدولة لعجزها عن إيجاد حل سريع وشامل لهذه المشكلة .

ثانيهما : يتمثل في ظروف الانفتاح الاقتصادي للمدينة بعد عام ١٩٧٧ وتشجيع الاستثمارات فيها لتكون بمثابة منطقة حرة تهدف تنشيط اقتصاديات الميناء من ناحية ، وتنمية إنتاج المدينة بشكل شمولي من ناحية أخرى . إلا أنه وفيما يبدو ، أن مسالك هذه التنمية جرفتها الاستثمارات المغامرة في تجارة السلع الاستهلاكية ، مما شجع العاطلون وأصحاب الدخول المتدنية من المحافظات الأخرى الذين تربطهم علاقات قرابية من سكان المدينة إلى الهجرة والإقامة في أحياء العشش ، كما وأن توجيه استثمارات القادرين اقتصادياً في المضاربات العقارية وإقامة مشروعات سكنية للتمليك ، جعل من السكن " ندرة " ، مما دفع بصغار الموظفين من محدودي الدخل إلى قبول السكن في هذه العشش .

ونخلص من كل ذلك إلى القول بأن نمو أحياء العشش في مدينة بورسعيد هو تجسيد لحقيقة الخلل في البناء الاجتماعي والاقتصادى والسياسى للمدينة ككل في ظروف تاريخ البحث ونطاق العينة .

الدراسة الثانية

العمالة الجائلة فى مدينة الزقازيق

تعد العلاقة بين ظاهرة العمالة الجائلة والتحضر من الموضوعات ذات الدلالة العلمية حيث ترتبط دراستها بالبناء الاجتماعى للمدينة .

وبداية أو أن تكون نقطة الانطلاق فى هذه الدراسة تحديد المفاهيم ـــ خاصة وأن هناك خلط بين مصطلحات ، العمالة الجائلة والهامشية والمهنة والوظيفة والحرفة .

وحينما نأخذ بمصطلح العمالة الهامشية ، نجد دلالاتها أوسع خاصة وأن منها ما يدخل فى نطاق البناء الوظيفى لتنظيم ما . أما مصطلح المهنة فهى بمثابة مهارة تكتسب عن طريق دراسة طويلة ومتخصصة ومنظمة وتجارب أو خبرات تطبيقية وتخضع لتنظيم كمهنة الأخصائى النفسى والطبيب والمدرس والملاحظ الفنى والكهربائى . وبالنسبة للوظيفة كمصطلح فيمكن أن نطلقها على كل عمل يشغله الانسان لدى آخر أو لدى مصلحة حكومية أو شركة مساهمة مقابل أجر محدد أو متفق عليه (١) .

نأتى بعد ذلك الى تعريف الحرفة (Trade) وهى عملية يمارسها الانسان سواء لمصلحته أو لدى آخر ، ويحصل منها على عائد مادى معين ، وهذه الحرفة لا تتطلب دراسة نظرية ولا تدريب طويل ، وانما تحتاج فقط الى تدريب قصير قد يكتسبه العامل بمجرد النظر الى الآخرين (٢) ، ومن هنا يميل المؤلف إلى الأخذ بتعريف الحرفة لأنها أقرب المعانى الى طبيعة دراسته .

---

(١) Fogarty , M.P. , personality and Group Relations in industry, Longman, Co., Ltd, London. 1968.p.224.

(٢) زيدان عبد الباقى : علم الاجتماع المهنى . مطبعة السعادة . القاهرة . ص ٣٧ .

إن الدراسة التى بين أيدينا تستند على التحليل الوصفى لعينة من العمالة الجائلة ، تلك التى لا تخضع لأى نوع من أنواع التنظيم الرسمى ، وتنطلق هذه الدراسة من واقع الأيكولوجيا الحضرية لمدينة الزقازيق (*) .

وحينما نتناول عينة الدراسة نجدها عينة طبيعية تخضع للمشاهدة اليومية ، وأن كان توافر البيانات الرسمية تشهدها سجلات محافظة الشرقية ، ومحاضر شرطة المرافق بها ، التى تسير إلى حجم المخالفات للأعمال غير المرخص بها .

والواقع أننا لا نستطيع أن ندرك حجم هذه الظاهرة دون الرجوع إلى العوامل التى أدت إلى نموها فى بناء المدينة ، وحينما نقارن مدينة الزقازيق بباقى المدن الحضرية نجدها واحدة من المجن المصرية التى تزايد حجم سكانها بمعدل سريع جعلها تشكل المرتبة العاشرة بين مدن الجمهورية ، من حيث الحجم طبقاً لإحصاء عام ١٩٧٦ .

لقد تزايد عدد سكان مدينة الزقازيق بمقدار ١٦٤١٤١ نسمة خلال تسعة وسبعين عاما من الفترة الفاصلة بين تعدادى ١٨٩٧ و ١٩٧٦ بنسبة زيادة سنوية قدرت بنحو ٥,٤٪ مقارنة بمعدل نمو لا يزيد على ٣,٢٪ بمحافظة الشرقية فىغضون الفترة ذاتها . فقد بلغ عدد سكان المدينة ٣٨٤٣٤ نسمة فى عام ١٨٩٧ بينما وصل الى ٢٠٢٥٧٥ نسمة فى عام ١٩٧٦ .

مرحلة النشأة والتكوين :

استغرقت الفترة منذ نشأة المدينة فى عام ١٨٢٧ حتى عام ١٩٠٧ ، حيث ارتبط نمو المدينة بالثورة الزراعية واحلال نظام الرى الدائم محل الرى الحوضى ، ثم اعلان المدينة مركز ادارى لمديرية الشرقية ، ومن ثم تركز النشاط الادارى بها

(*) استغرقت الدراسة الميدانية التى أجراها المؤلف الفترة من أول يناير ١٩٨٦ إلى نهاية مارس من نفس العام .

وشجع على ذلك أيضا مد خطوط السكك الحديدية عبرها فى اقليمى شرق الدلتا وقناة السويس .

وتمثل الفترة من ١٩٠٧ ـ ١٩٣٧ فترة التكوين حيث امتازت هذه المرحلة بتفوق المدينة على باقى المحافظة فى نسب الزيادة السنوية التى بلغت ١,١ ، ٢,٤ ، ١,٣٪ مقارنة بنسب ٠,٨ ، ١,٤ ، ٠,٩٠ على الترتيب بين مقدارى ١٩٠٠ ، ١٩٣٧.

وبعد هذه الفترة اتسمت المدينة بمرحلة النمو السريع ، حيث تراوحت نسبة الزيادة السكانية فى المدينة بين ٣,٤ ، ٤٪ سنويا يقابلها ١,٦ ، ٢,٨٪ على مستوى المحافظة فى الوقت الذى شكل فيه سكان مدينة الزقازيق نسبة ٤,٨٪ من مجموع سكان محافظة الشرقية طبقا لاحصاء ١٨٨٢ ، تجد أن هذه النسبة قد ارتفعت فى عام ١٨٩٧ الى ٥,٢٪ ، ثم انخفضت فى المقدارين التاليين الى ٤,٣٪ ، ٤,٥٪ واتخذت طريقها الى الارتفاع من احصاء ١٩٢٧ حتى الاحصاء الأخير فى عام ١٩٧٦ عندما بلغت هذه النسبة ٧,٧٪ .

لقد بلغ عدد الزيادة فى سكان مدينة الزقازيق فى الفترة السابقة (١٩٢٧ ــ ١٩٧٦) نحو ١٤٩٧٣٦ نسمة أسهمت فيها الهجرة بنسبة ٣٨,٢٪ حيث وصل صافى الهجرة خلال ثلث هذه الفترة الى ٥٧٢١٠ نسمة مقارنة بنسبة ٦١,٨٪ للزيادة الطبيعية التى قدرت بنحو ٩٢٥٢٦ نسمة فى نفس الفترة . كما شهدت المدينة أقصى تدفق عددى من المهاجرين خلال الفترة من (١٩٦٦ ــ ١٩٧٦) نتيجة الظروف العسكرية فى مدن القناة حيث بلغ عددهم ٢١٥٣٢ نسمة يمثلون ٣٧,٦٪ من صافى الهجرة[١] .

---

[١] الجهاز المركزى للتعبئة والاحصاء (١٩٧٦) .

* **البناء السكانى ونشاط العمالة الجائلة :**

من الطبيعى أن تتباين المجتمعات في تكوينها السكانى وفى نفس الوقت يمكن أن تتشابه فى عناصر قوى الانتاج لمن هم فى سن العمل الذين يمثلون الغالبية العظمى من سكانها ، كذلك فان دراسة السكان بحسب الجنس ومعرفة نسبة الذكور والاناث تعكس مدى توازن الجنس بالمجتمع وتتضح هذه الحقيقة فى ضوء بيانات سكان مدينة الزقازيق ، طبقا للنوع حسب أحصاء (١٩٧٦) كما يوضحه الجدول التالى :

جدول رقم (١) يوضح حجم السكان لمدينة الزقازيق

أقسام المدينة	ذكور	أناث	الجملة
حى أول	٥٤٩٦٢	٥٢٣١١	١٠٧٢٧٣
حى ثانى	٥٠١٠٥	٤٥١٩٧	٩٥٣٠٢
المجموع	١٠٥٠٦٧	٩٧٥٠٧	٢٠٢٥٧٥

يتضح من الجدول السابق أن نسبة الذكور ترتفع فى مدينة الزقازيق بصفة عامة عن عدد الاناث ، وربما يرجع ذلك الى ظاهرة هجرة الذكور البالغين من الريف الى الحضر التى تنتشر بين القوى المنتجة من الذكور أكثر منها فى الاناث . أما عن ذوى النشاط فى مدينة الزقازيق فتكشف لنا بيانات الجهاز المركزى للتعبئة والاحصاء (١٩٧٦) على أن عددهم يصل الى ٥٢٨٧٩ نسمة ، بينما عدد الذين ليس لهم أى نشاط يمثلون حوالى ٧٠٪ بالقياس لذوى النشاط . وبالرغم من هذا فان هذه النسبة لم توضح حجم النساء غير العاملات والأطفال أيضا .

والواقع أن البيانات الرسمية بالنسبة للعمالة الهامشية والجائلة منها على وجه التحديد ، يصعب من خلالها رصد حقيقة العمالة المتجولة التى تعيش من دخل مؤقت لعمل قائم على الصدفة وينتقلون من مكان الى مكان . ومع ذلك فقد حاول

الباحث أن يسترشد ببيانات ادارة التراخيص بمحافظة الشرقية لعل ذلك يساعده على تحديد حجم هذه العمالة فى طبيعتها الرسمية وهو ما أسفر عنه الجدول التالى :

جدول رقم (٢)

يوضح النشاط المرخص له بالنسبة للعمالة الجائلة

النوع	العدد
خردوات	١٥٠
البان	٧٢٥
مسليات	٨٠
حلوانى	٩٠
مياه غازية	١٠٠
مأكولات	١١٠٥
خضروات	٢٥
بائع فاكهة	٤٠٠
بائع أسماك	٢٥
بائع فول	٢٥
ماسح أحذية	٥
متنوعة	٢٠
المجموع	٢٧٥٠

الواضح من البيانات الرسمية فى الجدول السابق أنها لا تشكل حقيقة حجم العمالة فى المدينة ، ومن الصعوبة بمكان تقدير حجمها لأن قوتها وتطورها يعكس اختلال التناسب بينها وبين سكان المدينة من جهة وقوى العمل الرسمى على مستوى المحافظة من جهة أخرى ، وتكشف لنا هذه الحقيقة بيانات ادارة التراخيص

بالمحافظة ، اذ تبين منها أن نسبة القوى غير النشطة اقتصاديا تمثل نسبة ٧٠٪ بالقياس لباقى الأنشطة ، بما فى ذلك ربات البيوت ، والأطفال أكثر من ١٥ سنة ، وكبار السن ، لهذا لجأ المؤلف الى حصر الحجم التقريبى لهذه العمالة الجائلة بالمدينة من سجلات شرطة المرافق التى تتعامل مع الجماعات غير المرخص لهم ، أنشطة رسمية أو يمارسون أعمالا رثة ، وقد وصل عدد هؤلاء حتى تاريخ نهاية الدراسة الى ١٨١٨ حالة يمثل الذكور منها ١١٩٣ ، ويمثل الاناث ٦٢٥ موزعين على شياخات المدينة وشوارعها على النحو المبين فى الجدول التالى :

جدول رقم (٣)

يوضح توزيع العمالة الجائلة على مناطق المدينة

الشارع	الشياخة	عدد أفراد العمالة الجائلة - ذكور: العدد	النسبة	أناث: العدد	النسبة	الجملة	النسبة الكلية
شارع الحمام	الحكماء	١٢١	١٠,١٪	٢٨	٤,٥٪	١٤٩	٨,٥٪
شارع المنتزة	الزقازيق بحرى	١٥٦	١٣,١٪	٩٠	١٤,٤٪	٢٤٦	١٣,٥٪
شارع فاروق	النحال	١٤٤	١٢,١٪	٩٢	١٤,٧٪	٢٣٦	٧,٥٪
شارع التحرير	النظام	١٢٩	١٠,٨٪	٨٤	١١,٨٪	٢٠٣	١١,٢٪
شارع الجيش	النظام	١٧٧	١٤,٨٪	٩٩	١٥,٨٪	٢٧٦	١٤,٩٪
شارع كوبرى العبور	الاشارة	٤٤	٣,٧٪	١٠	١,٦٪	٥٤	٢,٩٪
الوادى	حسن صالح	٥١	٤,٣٪	٤١	٦,٦٪	٩٢	٥,١٪
المستشفى القديم	الحكماء	٨٦	٧,٣٪	٥٥	٨,٨٪	١٤١	٧,٨٪
حلقة السمك	المنتزة	١٤٣	١١,٩٪	٨٣	١٣,٣٪	٢٢٦	١٢,٤٪
البوسطة	النظام	١٤٢	١١,٩٪	٥٣	٨,٥٪	١٩٥	١٠,٥٪
المجموع		١١٦١	١٠٠٪	٦٢٥	١٠٠٪	١٨١٨	١٠٠٪

وفى ضوء البيانات السابقة نستطيع أيضا أن نوضح نشاط الباعة المتجولين حسب نوع السلع المعروضة على النحو التالى :

خضروات وفاكهة للذكور ١٤,٦٪ والاناث ٢١,٢٪ ، الخردوات للذكور ١١,١٪ والاناث ٨,٥٪ ، أدوات بلاستيك للذكور ٩,٥٪ والاناث ٨,٢٪ ماسح أحذية ٧,٣٪ مقابل لاشئ من الاناث التى لا تتمشى مع طبيعة عمل المرأة فى مصر . تين شوكى للذكور ٦,٥٪ مقابل لا شئ للأناث . ترمس للذكور ٤,٨٪ مقابل لا شئ للاناث . عرقسوس للذكور ٤,٩٪ مقابل لاشئ للاناث . فلافل للذكور ٩,٩٪ مقابل ٦,٥٪ للاناث . ليمون للذكور ٦,٧٪ مقابل ٣,٥٪ للاناث ، أما باقى النسب فتأتى فى أعمال متنوعة من أشكال التسول .

واذا نظرنا لنشاط هذه العمالة فى نطاق ايكولوجية المدينة نجدها تنشط فى نطاق الشياخات على النحو التالى (*) :

أولا : شياخة المنتزة : تعد هذه الشياخة من أكثر الشياخات احتواء للعمالة الجائلة ، وهى فى نفس الوقت تحوى داخلها أربع سويقات يومية وهى من الشياخات المتوسطة الكثافة السكانية .

ثانيا : شياخة النحال والحسينية : نشتطيع القول أن هذه الشياخة تأتى فى المرتبة الثانية بعد شياخة المنتزة وهى تحوى سوق الجملة وسويقة يومية ، مع أنها متوسطة الكثافة السكانية ويصدق هذا الحال على شياخة الحسينية .

ثالثا : شياخة الصيادين : بالرغم من أن هذه الشياخة تعد أعلى الأماكن السكنية تكدسا بالسكان الا أنها تحتوى على سويقة واحدة ولهذا يعتقد المؤلف أن

(*) ملاحظة :

شياخات عالية الكثافة ٤٢١ ـ ٢٩١ نسمة / للفدان .

شياخات متوسطة الكثافة ٢٩١ ـ ١٦١ نسمة للفدان .

شياخات منخفضة الكثافة ١٦١ للفدان .

سكان تلك المنطقة يعتمدون فى قضاء متطلباتهم المعيشية من السويقات المحيطة بهم كالتى فى شياخات النظام والحكماء . والزقازيق بحرى .

رابعا : شياخات الزقازيق بحرى وقبلى والحكماء : تتباين الكثافة بين الشياخات الثلاث فى حجم الكثافة السكانية بينهم فنجد الشياختان الأولى والثالثة متوسطة الكثافة ، والثانية عالية الكثافة السكانية ، ومع ذلك فان كل منها تحوى سويقة واحدة .

خامسا : شياخة النظام : تعد هذه الشياخة الوحيدة بين باقى الشياخات متوسطة الكثافة سكانيا وبها سويقتان يوميتان تغطيان المتطلبات المعيشية لسكانها .

سادسا : شياخة النحال : تعد من الشياخات متوسطة الكثافة السكانية وبها سويقة يومية واحدة بالاضافة الى سوق للجملة .

والواضح من العرض السابق أن العلاقة بين الكثافة السكانية فى شياخات المدينة واسواقها لا تشكل أى نوع من الارتباط وبالتالى لا يصدق القول على علاقة الأسواق بالعمالة الجائلة .. طالما أن السكان يجدون فى هذه الأسواق التى تقترب من دائرة مساكنهم كل احتياجاتهم . وبالتالى تصبح دائرة نشاط العمالة الجائلة وحركتها بعيدة عن مناطق هذه الأسواق .

* مجتمع الدراسة :

لاشك أن مدينة الزقازيق ـ مجتمع الدراسة ـ يمثل كيانا مركبا من عدد من الأجزاء المتداخلة ثقافيا واجتماعيا واقتصاديا وسياسيا ، ولهذا تصبح أداة جمع البيانات لهذه الدراسة وعاء لعدد من الأسئلة المتنوعة بتنوع طبيعة الجنس للبالغين من الذكور والاناث . ومن ثم فقد تم اختيار أفراد العينة فى اطار المجال الفيزيقى للمدينة بنسبة ١٠٪ من الحالات غير المرخص لها بالعمل . وبهذا يصبح عدد الذكور ١١٩ ، وعدد الاناث٦٢ . أما عن مضمون أسئلة البحث ، فقد تضمنت

خصائص ديموجرافية واقتصادية وسياسية بهدف فهم الخصائص الاجتماعية لهذه الجماعة .

ولهذا يصبح أمامنا عدد من الأسئلة نحاول خلالها البحث عن إجابة شافية لكى نستطيع أن نميط اللثام عن الحياة الاجتماعية لعينة البحث فى مدينة الزقازيق . وتأتى الأسئلة على النحو التالى :

- ماهى طبيعة النسق الحرفى لهذه العمالة ؟
- ماهى دوافع اختيارتهم لهذا العمل ؟
- ماهى حياتهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ؟

* **الحياة الحرفية للعمال الجائلين :**

يبدو أن الحياة الحضرية تميل الى تأكيد أهمية المبادرة والتكيف مع الظروف الاجتماعية الاقتصادية والسياسية المتغيرة ، فنظرة ساكن المدينة نحو المجتمع الذى يعيش فيه ، تتأثر الى حد كبير بخبرته وفئة عمره ومستوى ثقافته وتعليمه وحالته الاقتصادية والاجتماعية ، ومن هنا يمكن فهم المحاولات التى تبذلها أفراد عينة الدراسة ، من أجل التكيف مع الحياة الحضرية ، وتشمل هذه المحاولات بحث العامل عن مصادر دخل يدعم به حياته وحياة من يعولهم ، فى محاولة يتعدى بها حاجز الفقر أو يقع فى أسره .

والواقع أن دراسة الحياة الحرفية للعامل الجائل لا يمكن دراستها فى فراغ عن المحيط البيئى ، الذى تتواجد فيه ، فالحياة الحرفية ترتبط ارتباطا وثيقا بالجوانب الاجتماعية والسيكولوجية والايكولوجية للمجتمع الذى تعيش فيه .

وفى ضوء هذه المعانى يسعى البحث لفهم هذا الواقع من خلال الوصول الى محددات لفئات العمر ، والحالة التعليمية والاجتماعية ، ومكان الاقامة ، وعدد أيام العمل والترويح والاختيارات الحرفية ، والنظرة الاجتماعية لنوع هذه العمالة .

فالبنسبة لفئات العمر نجد شواهد لجدول رقم (٤) تجد ملامحها بالنسبة لأفراد العينة .

جدول رقم (٤)

يوضح فئات العمر لأفراد العينة

فئات العمر	النسب ٪
ـ ٢٠	١٢
٢٠ ـ	١٨
٣٠ ـ	٢٠
٤٠ ـ	٣٢
٥٠ ـ	١٣
٦٠ ـ	٥
مجموع النسب	١٠٠

الواضح من الجدول السابق ، أن أعلى نسبة فى عمر العينة هى أقل من ٢٠ ـ ٣٠ سنة ، وتمثل نسبة ٨٢٪ وتعد هذه العينة من الفئات العمرية التى يمكن الاعتماد عليها فى قوى الانتاج ، والتى مازالت تعيش على عادات اقتصادية تدور حول التدبير واستغلال ما يمكن استغلاله طموحا الى نماذج يعيشون على آمالها .

أما الفئة الثانية (١٨٪) فقد أصبحت غير قادرة على بذل طاقتها فى حركة عرض سلعها ، وخاصة أن بعض من هذه السلع قد انقرض لظروف تكنولوجية وثقافية . فعامل صيانة مواقد الجاز ، وسنان الآلات الحادة للسكاكين والمقصات ، وصانع الحلوى ، أصبح عاجزاً أمام الصناعات البديلة التى تجد قبولا فى شرائها أو استخدامها ، مما أدى الى الاستغناء عن خدماته فلجأ بعضهم الى بيع سلع " تافهة " يعرضونها على أرصفة الطرق للمارة ، وأن كان القصد منها الاستجداء .

أما عن الحالة التعليمية لهؤلاء فنجد ٨٤٪ من هـؤلاء أميين لا يقرأون ولا يكتبون ، بينما يمثل نسبة الذين يقرأون ويكتبون ١٢٪ و٤٪ حاصلون على مؤهلات متوسطة وأقل من المتوسطة .

وبالنسبة للحالة الاجتماعية لأفراد العينة نجد ٧٥٪ منهم متزوجون ويعولون بمتوسط ٣,٦٪ بينما تمثل نسبة الأرامل ١٢ ٪ والمطلقون نسبة ٣٪ .

وبالنسبة لأهمية التعليم لأبنائهم نجد أن أبناء ٤٢٪ من أفراد العينة قد أنهوا مرحلة التعليم الابتدائى ، ٢٤٪ أنهوا مرحلـة التعليم الاعدادى ، ٢٤ أنهوا تعليمهم الثانوى ، ٥٪ مازالوا بالتعليم الجامعى ، أما الذيـن تسـربوا مـن التعليم فقد وصلت نسبتهم ٥٪ .

* الدخــل :

نأتى بعد ذلك الى قيمة متوسط الدخل من ظـروف العمل والذى يعنى بالنسبة لهؤلاء عاملا متغيرا بظروف الحياة وتتضح هذه الحقيقة من دخل ٦٥٪ من أفراد العينة التى تصل ما بين جنيهان وثلاثة يوميا ، وهؤلاء يعيشون تحت حد الفقر وهو ما يعبر عنه بعضهم بأنه حد الكفاف للقمة عيشهم وعيش أولادهم يواجهون بها الحياة بالكاد أما باقى العينة فنجد من بينها ١٥٪ متوسط دخلها مابين ثلاثة جنيهات وخمس جنيهات ، ١٠٪ منها يصل دخلهم مـا بين خمس الى سبعة جنيهات أما الباقون فتزيد نسبة دخولهم ما بين سبعة جنيهات وعشر جنيهات .

وبحساب الحد الأدنى لهذا الدخل بعد استقطاع يوم من الأسبوع للراحة نجد أننا أمام أربع فئات من شرائح الدخل بالجنيه للشهر وهى فئة ٥٠ ، ٧٥ ، ١٢٥ ، ٣٥٠ هذا مع الوضع فى الاعتبار عدم احتساب أيام المرض ، وفترات الكساد .

وبمقارن فئات هذا الدخل سنويا بجدول الأجور السنوى طبقا لقانون درجات ووظائف المؤسسات العامة وشركات القطاع العام (١) نجد التالى :

أولا : دخل فئات العمالة الجائلة ٦٠٠ جنيها ، تقابل المستوى الثالث من الدرجات (الرابعة ٢٤٠ ـ ٩٠٠) و (الخامسة ٢١٦ ـ ٧٢٠) و (السادسة ١٩٢ ـ ٥٤٠) .

ثانيا : دخل فئات العمالة الجائلة ٨٠٠ جنيها ، تقابل المستوى الثانى من درجات الوظائف (الأولى ٩٦٠ ـ ١٦٨٠) والوظائف (الثانية ٦٦٠ ـ ١٥٠٠) .

ثالثا : دخل فئات العمالة الجائلة ١٥٠٠ جنيها ، تقابل المستوى الأول (مدير عام ١٣٢٠ ـ ١٩٢٠) وتقترب من الفئة المالية (١٥٠٠ ـ ٢٠٤٠) .

رابعا : دخل فئات العمالة الجائلة ٤٢٠٠ جنيها ، وهذه الفئة ليس لها نظير فى مستوى أجور الدرجات الوظيفية المعمول بها فى قانون المؤسسات العامة وشركات القطاع العام .

وبالنظر فى جدول الأجور ودخل العمالة الجائلة نجد أن مستوى دخل العمالة الجائلة أعلى من المستويات الأربع للأجور السنوية للعاملين المدنيين فى مؤسسات الدولة .

* الحالة الاقامية :

يتضح من اجابات أفراد العينة أن نسبة ٣٦٪ من أفراد العينة يعيشون فى غرفة واحدة ، بينما ٧٪ يعيشون فى غرفة وصالة ، أما الذين يعيشون فى غرفتين وصالة فيمثلون ٤٤٪ ، والذين يعيشون فى ثلاث غرف فأكثر يمثلون نسبة ١٦٪ ، وهناك نسبة ٧٪ يعيشون فى عشش على سطح المساكن وأيضا على شاطئ بحر مويس بالقرب من مبنى المحافظة .

---

(١) الجريدة الرسمية العدد ٢٩ تابع (ب) فى ٢٠ يوليو ١٩٧٨ قانون رقم ٤٧ لسنة ١٩٧٨ ، باصدار قانون نظام العاملين المدنيين بالدولة .

أما بالنسبة لأفـراد العينـة الذيـن يعيشـون فـى أكثر مـن حجـرة فنجد ٢٥٪ يستقلون بمساكنهم ، بينمـا ٧٥٪ يعيشـون حيـاة مشـتركة فـى المسكن الواحـد مـع الآخرين ، وهؤلاء تربطهم صلة قرابة أو نسب .

وهنـاك ملاحظـة بالنسـبة للاقامـة المشـتركة لأفـراد عينـة الدراسـة تعكـس طبيعية العلاقات الاجتماعية من الأسر . فبعض الأفراد تشير الى أنها مشكلة يـترتب عليها شعور مـن القلـق والتوتـر داخـل السكن الواحـد . واكثـر هـذه المشـكلات هـو المكان الاقامى للزوج والزوجة والأولاد خاصة الأبناء فى سن المراهقة .

* الاختيارات الحرفية :

احتل مفهوم العمل والحياة المهنية كظاهرة اجتماعية مكانا بارزا فى التفسير السوسيولوجى لمعنـى العمـل والمفـاهيم المرتبطـة بـه ، فعلمـاء الاجتمـاع المهنـى ينظرون الى العمل (الحرفى) فى ارتباطها بالبنـاء الاجتمـاعى . ولقـد اسـتمد علمـاء الاجتماع المهنى منظورهم هـذا مـن المنظـور الكلاسيكى لـ " اميـل دوركـايم " فـى تفسيره لظـاهرة تقسيم العمل الاجتماعى ، الا أنهم أضـافوا الـى هـذا العلـم خصـائص الحياة الواقعية لمهن مختلفة فى البناء الاجتماعى المعاصر للمجتمعات الغربية (١) .

أما عن الدافعية للعمل الحرفى فنجد أن دوافع العمل ترتبط بالرغبـة الذاتيـة لدى الأفراد لأداء الخدمات الاجتماعية ولاشباع الذات فى نفس الوقت فان مدى هـذه الدوافع يعتبر المحدد الرئيسى للمتصل الحرفى (٢) .

والواقع أن البحث هنا يكشف عن نموذجيـن لدوافـع العمـل ، أولهمـا يرتبـط بـالحراك الحرفـى للآبـاء ، والثـانى : يرتبـط بـالدافع الاقتصـادى لضـرورة الحيـاة . وأعنى به الحراك بين الأجيال للتعرف على المدى الذى تنتقل بـه الحرفـة مـن جيل

---

(١) كمال الزيات : المرجع السابق ، ص ٧٦ .

(٢) نفس المرجع السابق ، ص ٦٤ .

الآباء الى الأبناء ، ولقد حاولت الوصول الى هذا البعد من خلال استبيان عن حرف الآباء لأفراد العينة وهو ما يتضح من الجدول التالى :

جدول رقم (٥)

يوضح العلاقة بين حرف الأبناء ومهن وحرف الآباء

عمل الأباء	النسب ٪
عامل بمصلحة حكومية	٢١,٨
خضرى	٢,٥
حرفى فى الصناعات الصغيرة	٤,٢
عامل خدمات بالقطاع الخاص	٥,١
مزارع	١٩,٣
عامل بناء	٣,٤
بائع ترمس	١٢,٦
عربجى	١١,٨
صياد	٨,٤
بائع عرقوس	٥,١
عامل بالمعاش	٤,٢
متوفى	١٢,٦

يوضح الجدول السابق أن خصائص عمل الأباء لأفراد العينة بمثل ٢١,٨٪ من العاملين بمصالح الحكومة . يلى هذه النسبة أبناء عمال الزراعة وهم يمثلون نسبة ١٩,٣٪ وهذا يعنى أن مهنة العامل الزراعى اهتزت مكانتها بين الأبناء الذين تحولوا الى أعمال أقل مكانة ، وعلى عكس ذلك نجد أن ٢,٥٪ من العينة بائعى خضر وفاكهة ، ٥,١٪ أيضا من العينة بائعى عرقوس ، وهؤلاء جميعا يربطون بين حرفهم ومهن وحرف آبائهم .

أما عن قضاء وقت راحتهم فنجد أن ٢٩,٤٪ من أفراد عينة البحث من العمالة الجائلة يقضون وقت راحتهم الأسبوعية فى الترويح عن أنفسهم بزيارة الأقارب بينما ٢٧,٧٪ منهم يكتفون بقضاء وقت راحتهم فى منازلهم ويأتى بعدهم ١٨,٥٪ يقضون وقت راحتهم مع أصدقائهم فى المقاهى .

* المكيفات :

أما عن الكيفات التى يتعاطونها فنجد أن ٣٦,٩٪ من أفراد العينة لا يتعاطون أى نوع من أنواع المكيفات ، بينما ١٠,٩٪ يشربون الجوزة ، ٧,٦٪ يشربون مشروبات روحية ، ١٨,٦ ٪ يتعاطون الحشيش والأفيون والهيروين .

فالواقع أن هناك نقطة جديرة بالمناقشة خاصة وأن بعضهم يقدر قيمة مشترياته من المكيفات بما يزيد على ١٥٠ جنيها ، وهذا يضع إجاباتهم موضع شك من تقديرات دخولهم .

* متغير الهجرة :

بدون أسهاب فى الجوانب البحثية (النظرية والتطبيقية) لمتغير الهجرة يمكننا القول أن دراستنا هذه تكملة للمعالم البحثية وراء تأثير متغير الهجرة فى المجتمع المصرى . وهذه نقطة مناقشة الآن حول تأثير متغير الهجرة على المدينة (الزقازيق) وعلى فئة حرفية معينة فيها وهم (العمالة الجائلة) .

بداية تعرض مجتمع البحث ـ بمدينة الزقازيق ـ لعمليات الهجرة الريفية الحضرية حيث يرتبط ذلك بطبيعة الأنشطة الاقتصادية التى يمارسها الأفراد فى تلك المجتمعات التى يهاجرون لها ، وهذا هو التفسير المنطقى لغالبية أنواع الهجرة للمناطق الحضرية .. لكننا فى مجتمع بحثنا نلاحظ تواجد متغير آخر هو " القرابة " فتدفق أفراد عينة البحث من العمالة الجائلة لمجتمع البحث فى شكل هجرات داخلية " من الريف للمدينة " قد تم على فترات متباعدة ومراحل مختلفة ، ولقد أدلى الأخباريون من كبار السن عن تلك العمالة الجائلة بأن هناك عوامل تدخلت فى

توجيه تلك الهجرات الى مدينة الزقازيق ، أهمها تواجد أفراد تربطهم بهؤلاء المهاجرين صلات قرابةأو صلات جوار ، وهؤلاء هم الذين شجعوهم على تلك الهجرات . بل وساعدوهم على ايجاد العمل الملائم حسب طبيعة الفرص .

والواقع أن هذا الأمر يعد شيئا طبيعيا لأهمية الدور الذى تلعبه القرابة من علاقات وروابط فى حياتنا الاجتماعية اليومية ، ولما له من أثر على البناء الاجتماعى ، حيث يقوم نسق القرابة فى أساسه على نوعين من العلاقات ، هى علاقة الدم وعلاقات المصاهرة وهما متعلقان بالعائلة والزواج (١) .

وعموما فالانتماء الاقليمى للمهاجرين وما يتصل به من علاقات القرابة وعلاقات الجوار يمثل الاختيار الأول بين البدائل المطروحة أمام أفراد المهاجرين من العمالة الجائلة ، فاذا كان هناك عدة مناطق يريدها الأفراد للهجرة فانهم عادة ما يضعون فى الاعتبار المناطق التى يتواجد فسها أفراد تربطهم بهم صلات قرابة أو معرفة سابقة ويفضلونها عن غيرها . ان النظرة الذاتية للمهاجرين الذين يبحثون عن إيجاد عمل ما الى توقعات اختيارات مناطق العمل الجديد أو البحث عن مكان للإقامة النوعية ، لذا فهم يفضلون الارتكان على أفراد يعرفونهم ويرشدونهم الى أماكن العمل الحرفى ، أو على الأقل ييسروا لهم تلك المهمة كوسطاء .

لكى نصل إلة فهم هذه الحقيقة على واقع العينة التى بين أيدينا ، نطرح سؤالاً عن متغير الهجرة ، من خلال تحديد الموطن الأصلى للذكور وهو ما يوضحه الجدول التالى :

---

(١) احمد ابو زيد : البناء الاجتماعى . مدخل لدراسة المجتمع . الجزء الثانى . الأنساق . الطبعة الثانية . الهيئة المصرية العامة للكتاب (١٩٦٧) ص ٢٧٦ .

جدول رقم (٦)

يوضح الموطن الأصلى لأفراد العينة

الموطن الأصلى	التكرارات	النسب ٪
محافظة الشرقية	٣٢	٢٦,٩
محافظات أخرى	٨٧	٧٣,١
المجموع	١١٩	٪١٠٠

يتضح من الجدول السابق أن نسبة العمالة الجائلة من مواليد محافظة الشرقية تمثل نسبة ٢٦,٩٪ من باقى أفراد العينة ، وهؤلاء يفدون من مراكز وقرى المحافظات المجاورة لمدينة الزقازيق ، يحملون سلعهم على الدواب أو يمارسون أنشطتهم فى الشوارع ، ويعودون فى نفس اليوم الى مقر اقامتهم .

أما المهاجرون الوافدون من المحافظات الأخرى ، فتصل نسبتهم الى ٣٧,١٪ وتأتى هذه العينة الوافدة من قرى مراكز محافظات : سوهاج ، أسيوط ، المنيا ، المنوفية ، الدقهلية ، ومحافظة القناة على الترتيب .

وتكشف اجابات هؤلاء عن دافعية هجرتهم الى عوامل جذب ، من أقاربهم وبلدياتهم المقيمين بمدينة الزقازيق . الذين هيأوا ظروف العمل ومكان الاقامة وشجعوهم على الهجرة والاستقرار فى المدينة .

وتبدو هذه الحقيقة خاصة بين عينة بائعة الخضروات والفاكهة . وبالتالى تصبح الجماعات المرجعية لهؤلاء هم " المعلمين " (بكسر الميم الأولى) . هؤلاء الذين يملكون رأس المال ويتولون أمور " السريحة " (بفتح السين) . حل مشاكلهم ، ومن الطبيعى يصبح ولاء هؤلاء لأصحاب رأس المال .

والطريف أن أحد أفراد العينة وهو طالب جامعى جاء من احدى قرى سوهاج ليلحق بوالده بائع العرقسوس الذى اتخذ من مدينة الزقازيق مستقراً لنشاطه

ليقوم بنفس عمل والده فى فترة لجازته الدراسية . وفى نفس الوقت حرص هذا الطالب على ارتداء الزى التقليدى لبائع العرقسوس المتجول . ويفسر هذا الطالب تواجده بمدينة الزقازيق بعاملين أساسيين ، أولهما ، أنه يمارس نفس نشاط الأب بمدينة الزقازيق ، وهو بذلك يضمن محلا لاقامته ، ويستثمر شهور أجازته الدراسية الثلاثة فى عمل يدر عليه بما لا يقل عن ٨٠٠ جنيه في هذه الفترة .

وثانيهما ، أنه يمارس نشاطه هذا ، بعيدا عن أنظار زملائه بما لا يقلل من مكانته كطالب جامعى أمامهم .

وهناك آخر من إحدى قرى محافظة أسيوط وفد الى المدينة بتشجيع من ابن عمه (الذى كان يمارس البيع المتجول ثم تحول الى وسيط فى تجارة الفواكه والخضروات) لشغل عمل التجوال فى بيع التين الشوكى ، وقد وفر له الاقامة مع آخرين فى مخزنه " خيمة " . واحدى عربات البيع ، وحدد له دائرة نشاطه بأحياء المدينة ، ويقدر هذا الطالب صافى حصيلته من البيع اليومى بما لايقل عن خمسة جنيهات يوميا . وتبدو لى هنا نقطة هامة ترتبط بعملية الوساطة . فالواضح أن المهاجرين الذين سبق لهم الاستقرار فى المدينة ـ أكثر من ٥ سنوات ـ يغلب على معظمهم أعمال الوساطة بين تجار الجملة والباعة المتجولين من أقاربهم وبلدياتهم . ويبدو أن بعض هؤلاء الوسطاء أصبحوا نماذج مقبولة لطموحات البائع المتجول .

وتتضح هذه الحقيقة من أجابات ٤٥٪ من أفراد العينة أنهم يجربون حظوظهم شأن حظ أقاربهم ، خاصة أنهم هم أحد عوامل وفادتهم الى مدينة الزقازيق وهم الذين تولوا اقامتهم وتوفير السلع الملائمة لبيعها فى شوارع المدينة أو على أرصفتها .

ومن شواهد البحث ما يبدو من عملية توزيع السلع عن طريق سيارات النقل الذى يحمل فيها الوسيط بضاعته ويقوم بتوزيعها على العمالة الجائلة من أقاربه فى محطات معروفة لهم ، هذه المحطات عبارة عن أماكن بالقرب من محلات

معارفة وأقاربه ، ومن هذه السلع التين الشوكى ، وثمار الذرة ، والليمون ، والفاكهة، والخضروات ، ومنتجات الألبان ، والبيض . وأحيانا ما يقوم الوسيط مع اثنين أو ثلاثة من الصبية بعرض سلعه مباشرة علىسيارة نصف نقل ، ويتحرك بها متجولا فى شوارع أحياء المدينة .

والواضح أن صَلات "القرابة"تعد أهم العوامل فى جذب هذا النوع من العمالة الى المدينة وهذا ما تبين من ٣٠٪ من أفراد العينة تقيم فعلا فى مسكن واحد مع أبناء عمومتهم وأقاربهم .

وعلى عكس ذلك نجد ٢٥٪ من أفراد العينة من المهاجرين ، تشير الى أنها وفدت الى المدينة دون ارتباط بأحد الأقارب أو البلديات .

والآن نصبح أمام نموذجين من اجابات أفراد العينة ، النموذج الأول وتمثله فئة اعتمادية موجهة ، والنموذج الثانى وتمثله فئة اختارت حرفتها بالمصادفة وهؤلاء يمكن أن نطلق عليهم الهائمون أو الشاردون وهم يشكلون فئة مستقلة غير تابعة .

* المشاركة السياسية :

خلال السنوات الأخيرة حاول بعض علماء الاجتماع التعرف على الدور السياسى الذى يمكن أن يلعبه فقراء المدينة ، ويبدو أن الاضطرابات السياسية التى شهدتها بعض مدن أمريكا اللاتينية ومواقف الجماعات الفقيرة . قد دفعت بعض الدراسين الى بحث المضمون السياسى للفقر الحضرى . وعلى سبيل المثال أوضحت " جوان نيلسون " فى دراسة لها عن فقراء المدن ودورهم فى احداث التفكك أو التكامل السياسى فى دول أمريكا اللاتينية أن المهاجرين الجدد الى المدن وكذلك الفقراء لا يلعبون دورا واضحا ومباشرا فى احداث الاضطرابات السياسية بل أن خبرات الدول الصناعية المتقدمة تشير الى أن فقراء المدن لم يلعبوا خلال تاريخهم دورا سياسا هاما . ومع ذلك يتعين علينا الاشارة الى الاختلاف الكبير بين

الظروف الديموجرافية الاقتصادية والسياسية التى مرت بها الدول الأوروبية خلال القرن التاسع عشر ، وتلك التى تمر بها الدول النامية الآن ، ان مثل هذا الاختلاف قد يجعلنا نذهب الى أن الفقراء الحضريين فى أمريكا اللاتينية وشمال افريقا وآسيا قد يلعبون دورا هاما فى تحديد السياسات القومية والمحلية ، على الرغم من أن قرنائهم فى الدول الأوروبية لم يفعلوا ذلك من قبل . والواقع أن وجهة نظر نيلسون ما تزال بحاجة الى مزيد من التحقيق والتأمل فتجد شواهد متناثرة تشير الى أن فقراء المدن فى بعض الدول النامية قد يلعبون دورا سياسيا ولوحظ حق غير مباشر، مما قد يشكل ضغطا على الحكومات عند رسم برامجها الاقتصادية والسياسية (١) .

عندما نبحث عن دلالات الوعى السياسى لدى أفراد العينة نجد فى البداية أن نفرق بين إتجاهين أساسيين تخضع لهما البحوث الاجتماعية السياسية. أولهما الاتجاه الواضح الذى يسعى فى البحوث المتعلقة بالكشف عن المنطلقات المؤدية إلى سلوك أفراد ما نحو المشاركة فى الانتخابات والسياسية ، وأهم المتغيرات المؤثرة على تلك السلوكيات ، من ناحية المهن التى يمارسها هؤلاء الأفراد ، والطبقات التى ينتمون اليها ، باعتبارهما متغيران مؤثران على ثقافة هؤلاء الأفراد ومتطلباتهم المتعلقة بكليهما . ولا يكتفى الباحثون فى ذلك ببحث السلوك الفعلى من خلال الدلالات الاحصائية بقدر ما يهتمون بتلك الدلالات خلف تلك الاستجابات للانتخاب عموما . فكلما ارتفعت تلك الاستجابات كلما زاد الوعى الطبقى لهؤلاء الأفراد . أما الاتجاه الثانى وهو الكامن الذى ينطلق فى حيثياته الى تكوين جماعات وتنظيمات غير رسمية ، وتكوين أشكال وتجمعات ذات منطلقات سياسية ، ربما تخالف المتعارف عليه من قبل السياسة العامة فى المجتمع .

وعموما تمثل الخصائص الفردية والذاتية لأفراد المجتمع متغيرا هاما فى تشكيل الجانب الأيديولوجى لأفراد العينة خاصة فيما يتعلق بالوعى السياسى لهم

---

(١) السيد الحسينى : المرجع السابق ص١٠٠ .

وادراكهم لحقيقة ما تعانيه مجتمعاتهم وربما نجد ـ من خلال مناقشتنا السابقة ـ توجد سمات اجتماعية واقتصادية خاصة بأفراد عينة البحث من العمالة الجائلة تعكس العديد من المؤشرات الثقافية الهامة والتى تبين مدى تدنى الثقافة العامة لديهم وبصفة خاصة الثقافة السياسية ، وترتبط بتلك الخصائص كوكبة من المتغيرات المؤثرة فيها ، على رأسها طبيعة الحرف التى يمارسونها والسكن وطبيعة المعيشة ، وعلاقات القرابة ، والصداقة ، وطريقة قضاء وقت الفراغ .. وغيرها ، وجميعها تشكل المكون البنائى للنسق السياسى التى يكونه هؤلاء الأفراد سواء اتضحت معالمه لهم أو غاب عنهم ، ولايقف تأثير تلك الخصائص الفردية أو الذاتية على المشاركة السياسية موقف المؤثر الأساسى . فهناك سلوك جمعى ينطلق منه وله أفراد المجتمع .

فالمشاركة عموما وان كانت تحمل السمة الفردية ، الا أنها تعطى مؤشرا لسلوك فئات مجتمعية تحددها العلاقات القبلية ، أو المهنية أو القرابية أو الأسرية أو الاقتصادية أو الطبقية ، وهذا السلوك يرتبط بالوعى الطبقى فى المشاركة السياسية .

ومن هنا حاول البحث الوصول الى معرفة مدى مشاركة أفراد العينة فى المجال السياسى . وفى ضوء تصور أن المنظمات السياسية التى أصبحت تتحدث عن قضايا ومشكلات الجماهير لابد وأن تستقطب مثل هذه العمالة التى تشكل طاقة فى قوى الانتاج أو ترعى احتياجاتها الانسانية وبالتالى تحاول حل مشاكلها أو تحقيق أمانيها .

ومن الطبيعى أن هذه المنظمات السياسية لابد وأنها تتواصل مع مثل هذه الفئات التى تستخدمها كحشد فاعل للاتصال والاعلام . ومن ثم فانها لابد وأن تجد قبولا عند هذه الفئات وقناعة بأيديولوجيتها ، ومشاركة فى أهدافها .

وبداية لايمكننا تحديد معالم تلك الاستجابات لأفراد العينة الا اذا أدركنا معرفتهم للأحزاب السياسية أو على الأقل أسماء " النواب " فى الدوائر الانتخابية ـ

بصرف النظر عن مهاجرين أو غير مهاجرين ـ وهو ما يمكن أن نوضحه فى الجدول التالى :

جدول رقم (٧)

يوضح ادراك أفراد العينة للأحزاب السياسية

المتغيرات	التكرارات	النسب ٪
١ ـ أعرف كل الأحزاب السياسية	٩	٪٧,٦
٢ ـ لا أعرف أى أحزاب	٧١	٪٥٩,٧
٣ ـ أعرف البعض منها	٣٩	٪٣٢,٧
المجموع	١١٩	٪..١

ويتضح من الجدول السابق أن أغلبية العينة لا يعرفون أى أحزاب سياسية ويمثلون نسبة ٥٩,٧٪ ، بينما يرى ٣٢,٧٪ من أفراد العينة أنهم يعرفون البعض منها ، ويعرفون ٧,٩٪ منهم كل الأحزاب . وننطلق للجدول التالى لمعرفة مدى ادراكهم السياسى من خلال معرفتهم بممثلى دوائرهم الانتخابية فى مجلس الشعب أو مجلس الشورى ونلاحظ استجاباتهم كما يأتى :

جدول رقم (٨)

يوضح ادراك أفراد العينة بممثلى مجلس الشعب والشورى

المتغير	التكرارات	النسب ٪
١ ـ أعرف ممثلى الدائرة	ـ	ـ
٢ ـ لا أعرف أحد منهم	١١٩	٪١٠٠
المجموع	١١٩	٪١٠٠

ويتضح من الجدول أن كل أفراد العينة تجمع على عدم معرفتها بممثلى مجلس الشعب أو أعضاء مجلس الشورى . وهذا يدل على أن أفراد العينة ليس لهم اهتمامات ذاتية أو مجتمعية تجاه الانتخابات أو من يمثلهم فى الدوائر الانتخابية . وهناك العديد من المسببات وراء ذلك ، فقد تكون تلك السلبية منهم نتيجة لقلة الوعى السياسى عندهم ، أو نتيجة لعدم الدافعية الذاتية منهم للمشاركة فيما يخص المجتمع وان كان يعود عليه آثاره ، أو نتيجة لعدم الثقة فى جدوى تلك المشاركة وغيرها . وهذا ما نحاول الكشف عنه فى سؤالنا التالى حول مشاركتهم بالأدلاء بأصواتهم فى الانتخابات كما يأتى :

جدول رقم (٩)

يوضح مدى مشاركة أفراد العينة فى الانتخابات

المتغير	التكرارات	النسب ٪
١ ـ نعم أشارك فى الانتخابات	٢٤	٢٠,٢٪
٢ ـ لا أشارك فى الانتخابات	٩٥	٧٩,٨٪
المجموع	١١٩	١٠٠٪

تبين من الجدول السابق أن أغلب أفراد العينة ٧٩,٨٪ يحجمون عن المشاركة بأصواتهم فى عملية الانتخابات ، وأغلبهم من الأميين الذين يعيشون على هامش الحياة فليست لهم طموحات أو أهداف غير الحصول على قوت يومهم . وان كان البعض منهم الذى يستند فى حياته المعيشية على كبار التجار والمقاولين ، يتحول كعنصر فعال لمناصرة هؤلاء فى حالات الترشيح فى الانتخابات ، ويصبح أداة فى تكوين الجبهة الانتخابية المؤيدة ، وكثيراً ما يستخدمهم هؤلاء التجار والمقاولين كأداة ردع ضد معارضهم . والغريب فى الأمر أن ٨٦٪ من أفراد هذه

العينة ليس لهم الحق فى التصويت فى دوائر المدينة ، لأن معظمهم لا يحمل بطاقات انتخابية نتيجة مولده خارجها من ناحية ، أو لم يسبق له استخراجها .

* عمالة الاناث :

تختلف عمالة الاناث فى أى مجتمع من المجتمعات باختلاف الظروف الاقتصادية والاجتماعية المحيطة بها فى أى موقع من مواقع العمل . وبشكل عام فان عمالة الاناث تسهم بطبيعتها فى بناء قوى الانتاج والانتعاش الاقتصادى للأسرة، وان كان ذلك يتم فى اطار الظروف العامة المميزة لتقسيم العمل . ويمكن هنا أن نقسم هذه العمالة على النحو التالى :

١ ـ أولئك اللاتى ليست لهن مسئوليات منزلية هامة سواء لإقامتهن بمفردهن أو لوجود نساء أخريات يقمن بالأعمال المنزلية .

٢ ـ أولئك اللاتى يستطعن استئجار عمالة منزلية بدلا عنهن وهن بذلك يحاولن الاستفادة من وقتهن ، لكنهن عادة لا يتحررن من مسئولية الاشراف على خدم المنزل .

٣ ـ أولئك اللاتى يكرسن أنفسهم للأعمال المنزلية .

٤ ـ أولئك اللاتى لا يستطعن استئجار الخدم بل يضطرون الى البحث عن عمل يرتزقن منه (١) .

وفى تصورى أن الفئة الرابعة تنقسم الى فئتين ، فئة تعمل فى اطار تنظيمى وفئة أخرى تعمل خارج هذا الاطار وتقع فى فئة الهامشيين .

وهذا لا ينفى بالطبع انتماء المرأة الى أكثر من فئة من هذه الفئات معا ، ومن ثم فإن تركيز البحث على نشاط المرأة فى سوق العمالة الجائلة يصبح مطلباً

---

(١) ريتشارد انكر وزملائه : ص ٣٧٩ ـ ٣٨١ .

هاماً فى تحليل هذه الظاهرة ، والكشف عن خصائص هذه العمالة ، وهو ما نحاول أن نوضحه في الجدول التالى :

جدول رقم (١٠)
يوضح نشاط البائعات المتجولات

المتغيرات	التكرار	النسب ٪
بائعة خردوات	٢٥	٤٠,٣٪
بائعة فاكهة	١٣	٢٠,٩٪
بائعة طيور وبيض	٩	١٤,٥٪
بائعة خضروات	٨	١٢,٩٪
بائعة أطعمة	٥	٨,٢٪
متسولة	٢	٣,٢٪
المجموع	٦٢	١٠٠٪

فى ضوء الجدول السابق يتضح أن نسبة بائعات الخردوات يمثلن ٤٠,٣٪ ومعظمهن يحتلن أرصفة الشوارع ، لعرض سلعهن من أكياس البلاستيك والخردوات مثل الأمشاط ، والخيوط ، ومشابك الغسيل ، والطواقى المصنوعة يدويا. ويأتى بعد ذلك بائعات الفاكهة ، ويمثلن نسبة ٢٠,٩٪ وبعض منهن يعرضن سلعهن من الفاكهة فى أماكن ثابتة ، وبعضهن يتجولن بها فى الشوارع ، أما بائعات الطيور والخضروات والأطعمة فيمثلن ٣٥,٦٪ ومعظمهن يحتل الأرصفة فى أماكن متفق عليها فيما بينهن ، أما المتسولات فينشطن فى أماكن التجمعات أمام محطة السكة الحديد ، والأتوبيسات ، والأسواق وأمام دور العبادة .

أما بالنسبة للحالة الاجتماعية فنجد ٥٥٪ منهن متزوجات وأزواجهن يعملون أيضا بائعين متجولين . بينما ٢٥٪ منهن متزوجات من عمال زراعة وحرفيين . أما باقى أفراد العينة فنجدها تتضمن الأرامل والمطلقات .

ويكاد يجمع أفراد العينة على دافعية العمل الى عنصر أساسى وهو العامل الاقتصادى . وتتضح هذه الحقيقة من اجابتهن لسؤال الدافعية للعمل على النحو التالى :

" نأكلهم والا نقعد جنبهم " . " لما الأولاد ما يلقوش أكل مش حتفرحهم قعدتى " . " العبد يجرى ورا رزقه " . " ولادى معايا على الفرش ، وشغلى وشغل العيال بيريحنا من مشاكل الجيران " . و " جوزى مش عاوزنى أقعد أندب حظى على قلة الفلوس اللى لازمة لينا ولأولادنا " . " العيشة تحب اللى يسعى ورا لقمتها ، والدى مش حايوكلنا حتى لقمة عيش حاف " . " أيام سوده خلتنا نكشف رؤوسنا ونشيل على راسنا " .

من هذا المنطلق نجد مبررات ممارسة العمالة الجائلة للاناث تعكس مشكلة الظروف الاقتصادية لهذه العينة وخاصة أن متوسط عدد الأطفال للعينة ٤,٦٪ وأن هذا العمل يكاد يكون المجال الوحيد لدخل الأسرة ، وخاصة أن موجهات اختيار العمل لهن جاء عن طريق الأزواج وهو يمثل ٣٧,١٪ بينما نجد ١٦,١٪ مارسن هذا العمل عن طريق تجار جملة ، كبائعات للسلع عن طريق الأجل . وهناك نسبة تمثل ١٤,٥٪ احترفن هذا العمل استكمالا لنشاط الأم أو الأب بعد عجز أحدهما أو وفاته . وبعد ذلك نجد ٤,٨٪ يقررن أن بعض الأقارب هم الذين اختاروا لهن نوع السلع ووفروا لهن أماكن البيع. وفى النهاية نجد ٦,٦٪ يعملن فى اطار المشاركة مع أخواتهن وخاصة فى بيع الفاكهة . وأنواع منتجات البلاستيك .

والواضح أن الموجه للاختيار المهنى يخضع أغلبه للتوجيه الأسرى وهذا يعنى أن عمل المرأة فى المجال الاقتصادى للعمالة الجائلة يأتى فى اطار البناء

الأسرى والسلطة التى يمنحها الزوج لزوجته ، أو الأب لبناته أو الأخوة لأخواتهن .
وفى اطار معانى السلطة والقدرة الاقتصادية نجد دراسة " محمد الغمرى " تشير الى بعض الدراسات المختلفة التى تكشف عن تحديد السلطة فى الأسر الفقيرة وخاصة من العمالة الجائلة . فالسلطة فى هذه الأسر تقوم على من يتميز بالقدرة الاقتصادية، وتعد القدرة الاقتصادية هى المعيار الذى له قيمة فى تحديد السيطرة . واذا كانت السيطرة تعد من خصائص الذكور لا الاناث فى الطبقات الدنيا الا انه فى بعض الحالات يتنازل الرجل طواعية عن هذه السلطة لزوجته ، وخاصة اذا كانت الزوجة تعمل ويشكل دخلها مصدر اقتصادى لاعاشة الأسرة ، ويزداد الأمر تعقيدا عندما يكون الزوج معرضا للبطالة لأوقات مختلفة وتصبح الزوجة هى مصدر إعاشة الأسرة.[1] ، ومفهوم السلطة يختلف بالطبع فى مغزاه بين الرجل والمرأة فكليهما له دلالته على تواجد السلطة لديه ، وأيضا تختلف نظرته للسلطةالذى يتمسك بها الطرف الآخر ، وما يهمنى فى هذا البحث هو رؤية أفراد عينة البحث من العمالة الجائلة من النساء حول سلطة الزوج وهذا ما نلاحظه فى استجابتهن لأسئلة البحث على النحو التالى :

" الراجل هو ستر' الست مش شغلها ، حتى ولوكان راجلها عاطل " .
" الراجل فى البيت لازم كلمته هى اللى يتمشى مراته " .
" فى الاسلام بيقولوا الرجاله قواميين على النساء " .
" بعد أبويا ما مات ما حدش غير جوزى وأولادى حينفعنى " .

والواضح من هذه التعبيرات استجابة أفراد العينة وقناعتهم الذاتية بسلطة الزوج .

والواقع أن السلطة لا تقف عند حد الاقتناع الذاتى من أفراد عينة البحث من عمالة الاناث ، لكنه قد يتعدى ذلك للاقتناع الاضطرارى نتيجة لسلطة الزوج القاسية

---

(١) محمد حسن الغمرى : المرجع السابق . ص ١٧٤ .

فى بعض الأحيان ، وهو ما تكشف عنه استجابات بعض أفراد العينة على النحو التالى :

" لو كلفنى جوزى بأى حاجة وما عملتهاش بيفرج على الناس " .

" ما أقدرش أخطى عتبة البيت من غير أذنه والا خلا نهارى أسود غير العلقة السخنة "

وتصف احدى السيدات قسوة زوجها فى معاملتها بالاعتداء البدنى الى حد القاء الشاى الساخن على ذراعيها . وضرب الأولاد . وتبرر تلك القسوة بتعاطيه للمخدرات وتورطه فى استهلاك مصروف البيت وصرفه على مزاجه . وتذهب احدى المطلقات لتبرر طلاقها من زوجها بائع المياه الغازية الى قسوته ، التى وصلت الى الاعتداء عليها بالكرباج ، وتكليف الأولاد الصغار بالعمل معه فى بيع المياه الغازية بالقطارات وتركهم لمدارسهم ، والاستيلاء على ايرادها من عملها فى بيع الجبن والزبد .

ومع ذلك فهناك بعض المبالغات الفردية فى تصوير السلوك العدوانى لبعض الأزواج ، الا أن هذا لا يؤكد انسحاب هذا السلوك على باقى أفراد العينة .

ومن الحقائق الهامة المعروفة عند المهتمين بالدراسات المتعلقة بالسكان والخصوبة ، أن الفقراء يميلون الى تكوين أسر ذات أحجام كبيرة ، ولهذا نجد أن ٢٠٪ من حجم عينة الاناث لديها ما بين أربعة الى خمسة من الأبناء . وهذا العدد فى تصورى يفوق قدرتهم الاقتصادية .

ويدرك أفراد العينة أن زيادة عدد الأبناء يؤدى الى كثير من المشاكل والأزمات المالية ، والمرض ، وعدم القدرة على استمرار تعليم الأبناء . ومع ذلك فالرغبة فى الانجاب تعنى العزوة ومصدرا للدخل فى مواجهة الحياة الصعبة . ومن اجابات أفراد العينة تبين أن ٣٠٪ من أبنائهن يعملون فى التجوال اليومى لبيع

المسليات ، والصحف ، ومسح الأحذية ، وأن ١٠٪ يعملون مع الأب والأم فى نفس حرفهم ، أما الباقون فملتحقون بالمدارس .

* حصاد البحث :

نخلص من هذا البحث أن العمالة الجائلة تعد ظاهرة اجتماعية فى البناء الحضرى ، وهى عبارة عن محصلة لعوامل اقتصادية واجتماعية وثقافية ، ويتمثل بناء القوى لهذه العمالة من خلال أنساق فرعية وأقليمية ، يدعم وجودها القاربة فى البناء الأيكولوجى للمدينة ، من خلال التوزيعات المكانية لأنشطتها على الشوارع والأسواق والأحياء السكنية .

لقد استطاع البحث أن يخرج بمؤشرات لاستجابات أفراد العينة نضعها فى نموذجين . أولهما : البائع المتجول أو الشارد فى شوارع المدينة .وثانيهما : بائع الرصيف .

والواضح من طبيعة النسق الحرفى للعمالة الجائلة أنها طريقة لكسب قوت يومهم وفق عوامل الصدفة ، فهم يتنقلون من مكان الى آخر حسب أيكولوجية المدينة ونوعية السلع التى يحملونها وقيمتها الاقتصادية والاجتماعية .

لقد تأثرت نظرة أفراد العينة نحو العمل بعدم الطمأنينة فدخولهم موسمية ومرتبطة بالقدرية . ان عدم استقرار أحوالهم حقيقة ، فأعمالهم تأتى فى اطار غير تنظيمى وخارج شرعيته ، وبالتالى يسودهم الشعور بعدم الرضا عن أنفسهم وعن حرفهم . فهم يشعرون بتدنى المكانة الاجتماعية ، وأن أعمالهم ترتبط أيضا بهذا التدنى .

ان انتشار الوحدات القرابية فى مدينة الزقازيق يعد أحد العوامل فى جذب المهاجرين الى المدينة واستمرار تدفقهم مما يؤثر بطبيعة الحال على ارتفاع معدل التزاحم فى السكن الواحد .

والواضح من مؤشرات اجابات أفراد العينة حول اختياراتهم الحرفية ـ ذكورا واناثا ـ ترجع فى المقام الأول الى موجهات عائلية ونماذج مثالية لوسطاء وتجار تدفعهم الى الحراك نحوها .

وتبدو أيضا اختيارات هذه الحرف لأصحابها أنها مرتبطة بالحالة الاجتماعية والاقتصادية والأسرية . ولاشك أن السلطة " الأسرية " والعائلية تسهم بشكل مباشر وغير مباشر فى هذا التوجيه الحرفى للفرد فيها .

فالفرد ينشأ خاضعا لهذه السلطة ، وتتضح هذه الحقيقة من دائرة العمل الحرفى الذى لا يخرج أحيانا عن أطار السلطة الأبوية وفى حدود نشاطه الاقتصادى.

بعد ذلك نجد أن معظم أفراد العينة ـ ذكورا واناثا ـ ينتمى الى الطبقة الدنيا، وأصبح الأبناء يشكلون عبئا اقتصاديا مما أدى الى دفعهم الى سوق العمل .

ان طبيعة العلاقات الاجتماعية بين الوالدين والأبناء أظهرها البحث بشكل سلبى داخل البناء الأسرى كرد فعل للحياة الاجتماعية والاقتصادية التى تسود البناء الثقافى لمجتمعهم .

واذا نظرنا للسلوك السياسى لأفراد العينة فاننا نجد اتجاها سلبيا نحو المنظمات السياسية الرسمية ، يتمثل فى انعدام المشاركة واللامبالاة نحو برامجها ، اذ يدرك أفراد العينة أنه لا فعالية فيها ، ولكن هذا لا يمنع أن يشارك بعضهم فى "الزفة " حسب تعبيرهم .

" تم الكتاب ، وبالله التوفيق "

قائمه المراجع

أولاً : ـ باللغه العربيه

١ ــ أحمد ابو زيد : البناء الاجتماعي : مدخل الدراسه المجتمع ، الجزء الثاني ، الأنساق ، الهيئه المصريه العامه للكتاب ١٩٦٧

٢ ــ أحمد النكلاوى : التحديث قضايانا فكريه ودراسات واقعية ، مكتبه نهضه الشرق ١٩٨٠.

٣ ــ ــــــــــ :دراسه المدينه مدخل نقدى ، دار النهضة العربيه ، القاهرة ١٩٧٦ .

٤ ــ أحمد مدحت إسلام : التلوث مشكله العصر ، عالم المعرفة ، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والأداب ، العدد ١٥٢ ، الكويت ١٩٩٠ .

٥ ـ أحمد علـى أسماعيل : دراسات فى جغرافيا المدن ، مكتبة سعيد رأفت، (١٩٨٢) .

٦ ـ السيد حنفى عوض : علم الأجتماع الحضرى ، مكتبة وهبه ، ١٩٨٦.

٧ ـ السيد عبد العاطى : الايكولوجيا الأجتماعيـة مدخل لدراسه الأنسان والبيئة والمجتمع ، دار المعرفه بالأسكندريه ٨١ .

٨ ـ أوليج يانتسكى : من أجل مدينه متوافقه مع البيئه ، المجله الدوليه ، اليونسكو ، العدد ٥٢ السنه الثالثه ، عدد يوليو / سبتمبر ١٩٨٣ .

٩ ـ الموسوعه المصريه : تاريخ مصر القديمه وأثارها فى لعصر اليونانى والاوربى ، الهيئه المصريه العامة للكتاب ، المجلد الاول .

١٠ ــ بترى و . م . فلندرز ، الحياه الاجتماعية فى مصر القديمة ، ترجمة حسن محمد جوهر وعبد المنعم عبد الحليم ، الهيئة المصرية العامه للكتاب ، القاهرة ١٩٧٥ .

١١ ـ تشارلز وورث : الأمبراطواريه الرومانية ، ترجمة رامز عبده جرجس ، دار الفكر العربى ، القاهره ، ١٩٦١ .

١٢ ـ ثروت أسحاق : علم الأجتماع : دراسه السكان ، دار المعرفه الجامعيه، الأسكندريه ١٩٨٢.

١٣ ـ جليله القاضى : تحضر عشوائى أم نسق جديد من التخطيط فى مدن العالم النامى ، المؤتمر السنوى الأول لتخطيط المدن والأقاليم ، جمعيه المهندسيه المصريه ، يناير ١٩٨٦

١٤ ـ جمال حمدان : جغرافية المدن ، مكتبه النهضة المصرية ، القاهرة ، بدون تاريخ نشر.

١٥ ـ جورج إى . هاردوى ،دفيد ساتر ذويت : مواطنونُ بلا ملاذ ، مقال منشور ، رساله اليونسكو ، السنه ٤٤ يناير ١٩٩١ .

١٦ ـ رمزى زكى : المشكله السكانيه وخرافه المالتوسية الجديده ، عالم المعرفه ، العدد ٨٤ ، ١٩٨٤٣ .

١٧ ـ ريتشارد أنكر : المرأه والمشكلة السكانية فى العالم الثالث ، ترجمه علياء شكرى وأخرون، دار الثقافه للنشر والتوزيع ، القاهرة ١٩٨٥ .

١٨ ـ زيدان عبد الباقى : علم الأجتماع المهنى ، مطبعه السعادة ، القاهره ، بدون تاريخ نشر .

١٩ ـ ساره متيمنه : التكوين الوظيفى للمدينه الأسلاميه ، مقال منشور ، مجله الفكر العربى ، العدد التاسع والعشرون ، السنه الرابعه ١٩٨٧.

٢٠ ـ سعيد فرح : دراسات فى المجتمع المصرى ، الهيئه المصريه العامه للكتاب ١٩٧١ .

٢١ ـ عبد الجليل الطاهر : مسيره المجتمع بحث فى نظريه التقدم الأجتماعى ، المكتبه العصرية ، بيروت ، ١٩٦٦ .

٢٢ ــ عبد الوهاب بكر : صفحات من تاريخ مصر الأجتماعى ، كليه الأداب جامعه الزقازيق ، ١٩٨٨ .

٢٣ ــ عبد المنعم شوقى : مجتمع المدينة ، مكتبه نهضه الشرق ، القاهرة ١٩٨٠ .

٢٤ ــ عزيز السيد جاسم : تأملات فى الحضاره والاغتراب ، بغداد ؛ الطبقه الأولى ١٩٦٥ .

٢٥ ــ عبد المجيد عبد الرحيم : علم الأجتماع الحضرى ، مكتبه الانجلو المصريه ، القاهره ١٩٧٦ .

٢٦ ــ عطيات حمدى : جغرافيا العمران دراسه موضوعيه تطبيقيه ، دار المعارف ، ١٩٦٥ .

٢٧ ــ عبد الله الخليفه : أثر العوامل الأجتماعية فى توزيع السكان على أحياء مدينة الرياض، ١٤١١ هـ .

٢٨ ــ فيكتور تياغوننكو وأخرون ، مدن دول العالم الثالث ترجمة دواد جبر ومصطفى الدباس منشورات وزارة الثقافة بدمشق .١٩٧٤ أكاديمية العلوم السوفيتيه . موسكو ــ منشورات ١٩٧٢ . وزارة الثقافة بدمشق ١٩٧٤ .

٢٩ــ كمال الزيات : علم الأجتماع المهنى ، مدخل نظري ، مكتبه نهضه الشرق ، القاهره ١٩٨٠.

٣٠ ــ لويس ممفورد : المدينة على مر العصور ، أصلها وتطورها ومستقبلها ، ترجمه إبراهيم صبحى ، مكتبه الانجلو ، القاهره ١٩٦٤.

٣١ ــ محمد الجوهرى وآخرون : ميادين علم الاجتماع ، دار المعارف بمصر ، ط٤، ١٩٧٦ .

٣٢ ــ محمد حافظ : مصر ومشكلاتها ، دراسات فى الهجره والتحضر والعداله الاجتماعية ، دار سعيد رأفت للطبع والنشر ، القاهره ١٩٨٧.

٣٣ ـ محمد حماد : تخطيط المدن وتاريخه ، الطبعة الأولى (١٩٦٥) .

٣٤ ـ محمد حسن الغامرى : ثقافة الفقر ، دراسه فى أنثرو بولوجيا التنمية الحضرية ، المركز العربى للنشر والتوزيع ، الأسكندريه ١٩٨٠ .

٣٥ ـ محمد عاطف غيث : قاموس على الأجتماع ، الهيئه العامه للكتاب ١٩١٩ .

٣٦ ـ ــــــــــــ : علم الأجتماع الحضرى مدخل نظرى ، دار الكتب الجامعيه ١٩٧٢.

٣٧ ـ محمد عبد الستار : المدينه الاسلاميه ، عالم المعرفة العدد ١٢٨ ـ الكويت ١٩٨٨ .

٣٨ ـ مختار القاضى : أثر المدينه الأسلاميه فى الجضارة الغربية ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية . لجنه التعريف بالاسلام ، القاهره ١٩٧٢ .

٣٩ ـ محمد رجب النجار : حكايات الشطار والعيارين فى التراث العربى ، عالم المعرفة ، العدد ٤٥ ، سبتمبر ١٩٨١ .

٤٠ ـ محمود عبد الفضيل : تأملات فى المساله الأقتصاديه المصريه ، دار المستقبل العربى ، القاهره ١٩٨٣ .

٤١ ـ محمود عودة : الهجره إلى مدينه القاهره ، المركز القومى للبحوث الأجتماعيه والجنائيه ، العدد الاول ، يناير ١٩٧٤ .

٤٢ ـ نيقولا تيماشيف : نظرية علم الاجتماع ، طبيعتها وتطورها ، ترجمه محمود عوده وآخرون ، دار المعارف ، مصر ط٢ ـ ١٩٧٢ .

تقارير :

٤٣ ـ الجهاز المركزى للتعبئه والإحصاء : الكتاب السنوى عام ٨٤ (بورسعيد) النتائج الأوليه ١٩٨٠.

٤٤ ـ اللجنة العليا لتخطيط القاهره الكبرى : التخطيط الأبتدائى لإقليم القاهره الكبرى ، الهيئه العامه لشئون المطابع الأميريه ١٩٧١ .

٤٥ ـ بورسعيد فى ثلاثين عاما : تقرير للعلاقات العامه بمحافظه بورسعيد، ١٩٨٦ .

٤٦ ـ مكتب العمل الدولى : العماله والتنميه الأقتصادية ، ترجمه جمال البنا ، جينيف ، بدون تاريخ نشر .

٤٧ ـ معهد التخطيط القومى : تقرير التنمية البشرية ١٩٩٦ .

٤٨ ـ ندوة عماله الطفل فى مصر : المركز القومى للبحوث الاجتماعيه ، التقرير العام يوليو ١٩٧٦

٤٩ ـ الجريده الرسميه : العدد ٢٩ تابع ب : ٢يوليو ١٩٧٨ قانون ٤٧ لسنه ١٩٧٨ .

ثانياً المراجع الأجنبيه : ـ

1- Webster Andrew., Introduction To The Sociology Of Development ., Macmillan Education., London., Ltd., 1988 .

2 - Akom Antwi , Development Strategies For Slums Of Lages., Habitant International Macmillan., London , 1988

3 - Berg Egon, Urban Sociolog ., Mc Graw Hill London., 1956 .

4 - Bent Hansen & Samir Radwan , Emplogment Opportunities & Equity In Egypt , I.L.O., Geneva, 1982 .

5 - Carlton J. Hayes, Political Of History Of Modern Europe Vol., 11 Macmillan , Canda , 1963 .

6 - Champion . Deans & Others., Sociolog., Halt Rinehart Winston., London., 1984 .
7 - Charles Abrams., Man's Struggle For Shelter In An Urbanizing World ., The M .I .T. Press London., 1966 .
8 - Charles, J Stokes., Atheory Of Slums., Land Economic 38 Agust. 1952 .
9 - Crowther J. G., The Social Relations Of Science., The Cresset Press London , 1977 .
10 - Costello J. F., Urbanization In Middle East ., Cambridge University Press , 1977 .
11 - Clark Kerr John T.Dunlop., Fredrick H. Harbison , and Charles A. Myers., Insustrialism and industrial Man., Heine Mann., London. 1962 .
12 - David Hunter, Slums Challenge And Response., Free Press, N . Y., 1964 .
13 - Ericken E. Gorden , Llrban Behavior., N. Y., 1954 .
14 - Eleanor Burk Leacock., The Culture Of Poverty ., Simon & Schuster . N. Y., 1971 .
15 - Elias Mendevich., Childern At Work . I.L.o., Geneva., 1980
16 - Forgarty M. P., Personality And Group Relations In Industry, Longman London , 1968 .
17 - Geoffrey Bruun., Nineteenth Century Eurbean Civilization 1815 - 1911 , N. Y., 1960 .
18 - Gittler, . B., Review Of Sociology, Hall Limited, London , 1957 .
19 - Gilbert Alan & Gugler, Josef., Cities , Poverty, And Development Urbanization In The Third World., Oxford University Press , London ,1982 .
20 - Gohn Kana, Social Problem, Prentice Hallin, Co. London , 1962 .
21 - Hauser P., Schnoer L., The Study Of Urbanization , ohn Wiley Sons Inc., N. Y., 1967.

22 - Henla Dierer & Sussanne Lucking., Fact About Germany., Publisshed By Lexikon Instiute Bertesman., Federal Rebublic Germany 1984.
23 - Herbert J. Gans. The Urban Villegers Group And Class In The Life Of Italin Americans Free Press., N. Y., 1962.
24 - John, Mack, Full Time Miscreats Delinquenr Nihborhood And CirminalNet Work., The British Journal Of Sociology., X. V. March, 1964.
25 - Roger perrinjaquet., The habitat as a universe of child socialization in
26 - R.E.pahl, R.Flynn & N.H, Buck., Structunes and processes of urban Life., Longman., London. 1975.

فهرس الكتاب

رقم الايداع
٨٩٢٩ / ٩٦
I.S.B.N
977- 5609- 56- 9

مصنف
السعر ١٢

كتب للمؤلف

* العلاقات العامة الإتجاهات والمجالات .
* علم الإجتماع التربوى .
* علم الإجتماع الحضرى .
الإحياء المتخلفة .
العمالة الجائله .
* علم الإجتماع السياسى .
* الحركات السياسية للطبقة العاملة .
* التنظيمات الاجتماعية فى ميدان الصناعة .
* علم اجتماع العمل الصناعى .
الجامعة العمالية .
الأيديولوجية والصحافة .
* بنو هلال بين السيرة التاريخية والواقع الإجتماعى .
* النوبة ومجتمع التعاون .
* فى قضايا الفكر ومشكلات المسلمين .
* قراءات فى علم الإنسان .